* أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله * أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله .

* أَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ * أَشْهد أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ .

* حيَّ على الصَّلاة * حيَّ على الصَّلاة .

* حيَّ على الفَلاح * حيَّ على الفَلاح .

* اللهُ أَكْبرُ اللهُ أَكْبرُ .

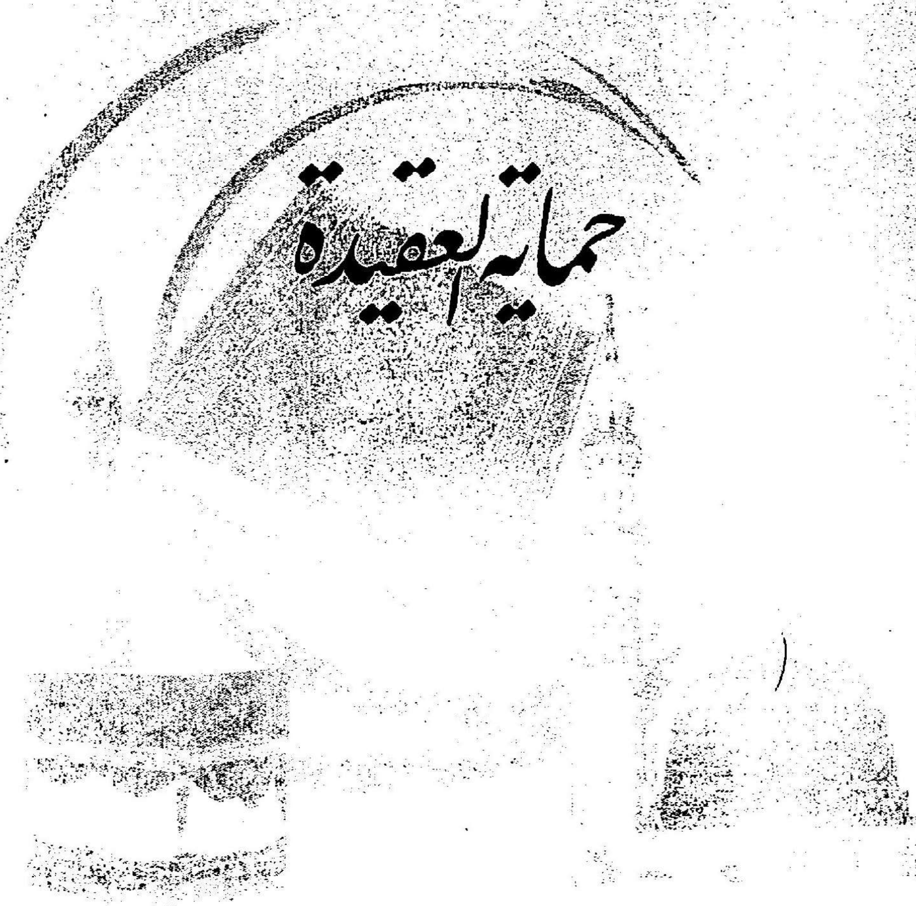
* لا إله إلا الله .

بِلالُ مُؤذِّنُنا

وما أَنْ سَمِعَ الرّسولُ ﷺ هٰذا الأذانَ الجديدَ حتَّى قالَ مُبْتسماً : (إنها لرُؤْ يا حَقٌّ إنْ شاءَ اللهُ ، فقُمْ مَعَ بِلالٍ فألقِها عليْه ، فليُؤَذِّنْ بِها ، فإنَّهُ أَنْدى صَوْتاً منكَ) أيْ إنَّهُ أعْذبُ وأَبعدُ مَدى في صوْتِه مِنْ صَوتِ عبْدِ اللهِ بنِ زَيْدٍ ، فلَمَّا أَذَّنَ بِها بلالٌ بِصوْتِه العذبِ الجميلِ ، سمعَها عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ وهُوَ في بَيْتِه ، فهرعَ إلى رسولِ اللهِ وهُوَ يجُرُّ رداءَهُ ، ويقولُ : يا نبيَّ اللهِ ، والذي بَعثَكَ بالحقِّ لقَدْ رأَيتُ مثلَ الذي رَأَى ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : (فللّهِ الحمْدُ على ذلكِ) . .

والمطلوبُ منَّا الآنَ أَنْ نَحفَظَ هٰذا الأذانَ ، ونردِّدَهُ بعْدَ المؤذِّنِ ، ثُمَّ نُصَلِّيَ على رسولِ اللهِ ﷺ إذا انْتهَينا ونسألُ اللهَ لَهُ الوسيلَةَ والمقامَ المحمودَ حتَّى نَنالَ شفاعَتهُ يومَ القيامَةِ كما وَعَدَنا رسولُ اللهِ ﷺ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّة
٣١



حماية العقيدة

حِمايَةُ العَقِيدَةِ

كُلُّ شيْءٍ إذا فقَدَ حمايتَهُ، فلا معْنىٰ لوُجُودِهِ في هذِهِ الحياةِ، فإذا أَهْمَلَ الإنْسانُ مثَلاً بضاعَةً ثمينةً لَهُ، وجَعَلَها مُعرَّضَةً للتَّلَفِ والضَّياعِ نالَ عقابَهُ في نهايةِ الأَمْرِ، حيْثُ سيجدُ البضاعَةَ لا تَسْتحِقُّ مَنْ ينظُرُ إليْها بعْدَ تلَفِها، وإنَّ قانُونَ حمايةِ البضاعةِ هُوَ أنْ يضَعَها صاحبُها في مكانٍ أمينٍ يبْعِدُها فيه عنْ عوامِلِ التَّلفِ.. والأَمْرُ نفْسُهُ منطبقٌ على حياةِ العقيدة تمَاماً، أيْ علىٰ ما يعتقدُهُ الإنْسانُ مِنْ نظْرةٍ إلى هٰذا الكونِ والحياةِ والخالقِ، فهذِهِ النظْرةُ هيَ مبدأُ هٰذا الإنسانِ، وعليْهِ أنْ يحميَهُ، ويضَعَ حولَهُ الوقاياتِ اللازمةَ..

ورسولُنا الكريمُ قَدْ جاءَنا بشريعَةِ الإسلامِ، ونَشَرَها ضِمْنَ مجتمعٍ آمنَ بها، لِذَلك لَنْ يَتأخَّر ﷺ في أنْ يأخذَ بعوامِلِ حمايَتِها..

أُخُوَّةُ المُسْلِمِينَ

وأوَّلُ هذِهِ العوامِلِ التي حَمَتْ عقيدَةَ المجتمعِ المُسْلِمِ: (الأخوَّةُ في اللهِ)، فالمسْلمُ أخُو المُسْلمِ، وهذِهِ الأخوَّةُ صلةٌ جديدةٌ أتانا بها الإسْلامُ، واللهُ تعالىٰ يقُولُ في القرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أيْ: إنَّ كُلَّ مَنْ آمنَ باللهِ ربّاً وبِمُحَمَّدٍ رسُولاً، فهُوَ قدْ دَخَلَ في دائرةِ الأخوَّةِ

الإسلاميَّةِ الرَّابطةِ بيْنَ المسلمِينَ أجمعينَ في بِقاعِ الأرْضِ كُلِّها.. وعلىٰ هٰذا الأساسِ فقدْ آخىٰ الرّسولُ بَيْنَ المهاجِرين والأنْصارِ، ولَقدْ قدَّمَ الأنْصارُ أمثلَةً رائعةً لأخوَّتِهِمُ العميقَةِ مَعَ المهاجِرينَ، فمدحَهُمُ اللهُ قائلاً بآيةٍ جميلةٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

والأُخوَّةُ الإنْسانيَّةُ

ولَمْ يعرفِ المسلمُ عداوةً للإنسانِ غيْرِ المسلم، لأنَّ الصِّلَةَ بمَنْ لَمْ يُؤْمنْ بعقيدَتِنا اعتمَدَتْ على أساسِ الأخوَّةِ الإنْسانيَّةِ، فلا مانِعَ مِنَ التَّعارفِ والتَّعاطفِ، فالمسْلمُ إذا لمْ يتعرَّفْ على الكافرِ فهذا يعْني أنَّهُ لَنْ يدعوَهُ إلى دينِ الإسْلامِ، ولَنْ يَزدادَ عددُ المسلمينَ، والأصْلحُ مِنْ هٰذا أنْ نَتعاطف مَعَ الكفّارِ، أيْ نَنظُرَ إليهِمْ نَظرَةَ عطفٍ، تَحثُّنا على التَّعاونِ معَهُم، وتحثُّهم على فهْمِ الحياةِ، ولا سبيلَ إلى التَّعاونِ بيْنَهم إلا في ظِلِّ السَّلامِ، ولا سبيلَ إلى السَّلامِ إلا إذا سادَ النَّاسَ شعورُ التَّرابطِ الأخويِّ العامِّ بوشيجةٍ إنسانيةٍ وعاطفةٍ جميلةٍ، تجمعُ بيْنَ قلوبِ البشرِ دُونَ تعصُّبٍ لجنسٍ أوْ وطنٍ خاصٍ، ومهما اختلفتِ المبادئُ والعقائد.. وقدْ دلَّنا الرسولُ العظيمُ ﷺ على هذا المبْدأِ الذي جعلَهُ

عاملاً ثانياً مِنْ عواملِ الحمايةِ لِعقيدتِنـا فقالَ : (أحِبَّ للنَّاسِ مَا تحبُّ لِنَفْسِكَ) .

كتابٌ بَيْنَ المسلِمِينَ

وبهذينِ العامليْنِ استَطاع رسولُ اللهِ يـا إخوتي أَنْ يُنظِّمَ أُمُوراً عظيمةً في حياةِ المدينـةِ المنوَّرةِ ، وأَنْ يَجْمعَها تحتَ جـامعةٍ جديـدةٍ مِنَ الإيمانِ والأخوَّةِ الإنسانيَّـةِ ، فَها هُوذا يَكْتُبُ كتـاباً بَيْنَ المهاجرِيـنَ والأَنْصارِ ، يبيِّنُ فيـهِ مـا يجبُ على المسلمينَ فيما بينهـم مِـنَ التَّعـاوُنِ والتَّكـافلِ والتَّناصر ، فَـلا يَبْخَلُ المسلمُ على المسلمِ في مَـدِّ يَدِ المعُونَـةِ إذا ما رأَى حاجَةً عنـدَهُ ، وَيبذُلُ ما بوسْعِـه ليعيشَ أَخُوهُ المسلمُ منْصُوراً لا يَبْغي عليْهِ أَحَـدٌ ، ودَوْماً كانَ الرّسـولُ ﷺ يحثُّ مَنْ وَجَدَ عِندَهُ سَعَةً وفَضْلاً مِنَ الزَّادِ والعيْشِ والملْبَسِ أَنْ يعُودَ بِهِ عَلىٰ مَنْ لا زادَ ولا مَلْبَسَ عِنْدَهُ . وهٰذا لا يَعْني أَيُّها الأَحِبَّةُ أَنَّ الفُقراءَ والمحتـاجينَ في المجتَمَعِ الإسلاميِّ قَدِ اسْتَغَلُّوا هذِهِ القوانينَ ، بَـلْ إنَّهمْ أَخَذُوا يسعوْنَ ويكـدُّون في سبيلِ العيْشِ ليحفَظُوا أنفسَهمْ مِنْ ضَنكِ العيْشِ وسؤَالِ النَّاسِ .

وَعَهْدٌ مَعَ اليَهُودِ

وبعْدَ أَنْ كَتَبَ الرّسولُ ﷺ كتابَ التّكافُلِ بيْنَ المُسْلمِينَ ، التفتَ إلى مَـنْ في المدينـةِ مِنَ اليَهُودِ ، وتعـاهَـدَ معَهُـم تحْتَ شروطٍ جميلـةٍ دُونَ

إجحافٍ لفريقٍ منْهما ، إنَّهُ قَدْ وادَعَهُم وعاهَدهم ، فشَرَطَ لَهُمْ أَنْ يَكُونوا آمنين عَلى دِمـائهـم وأَمْـوالِهم ، وأَنْ يكونُـوا أَحْـراراً في عَقـائِدِهـم ، لا يُكـرِهُهم أَحَـدٌ على اتِّباعِ ديـنِ الإِسْـلامِ . . وفتَحَ لهُمُ المجـالَ لمَنْ أرادَ منهـمُ الإيمانَ واتّبـاعَ المسلمينَ ، فمَـنْ تبـعَ المسلمينَ منْهُم فلَـهُ مـا للمسلمينَ مِنَ النَّصرِ والمعـامَلـةِ . . واشتَرَطَ عليهـمْ أَنْ يكُـونُـوا مَـعَ المسلمينَ يَـداً واحِدَةً علىٰ مَـنْ يُحاوِلُ الاعتـداءَ على يثْربَ ، أَوْ حـارَبَ أَهْلَهـا ، وأَنْ ينفِقُوا مَـعَ المؤمنينَ ، مـا دامُوا مُحاربينَ ، أَيْ : عَلى اليهـودِ نفقةُ حَرْبٍ ، وعلى المسلمينَ مثْلُ ذلكَ . .

وَشَرْطٌ مَعَ المُشْرِكِينَ

وفي المدينةِ يا أحبَّتي قِسْمٌ مِنَ العربِ بقِيَ علىٰ دِينِ الشِّرْكِ ، وهَؤُلاءِ المشركـونَ لَمْ يتركْهُم الرسولُ ﷺ دُونَ معاهَـدةٍ فيما بَيْنَـه وبينهُمْ ، بَـلِ اشترَطَ عليهـمْ أَلا يُجيروا قريْشـاً (أيْ : أَلا يُسـاعِـدوها في مـالٍ ولا في نَفْـسٍ) ، وكذلـكَ أَلا يُجيروا مَنْ وَالى قـريشاً ونَصَرَهـا ، وإذا ما داهَـمَ المدينـةَ عدوٌّ مِـنَ الأعداءِ ، وقَـفَ المشركونَ فيهـا إلى جانِـب المسلمينَ واليهود مُدافعينَ عَـنِ البلادِ . . وحصانَةِ الأَرْضِ . وفَهِـمَ المشركونَ أَنَّ رسولَ اللهِ لا يَبْغي شَرّاً بهِمْ، بَلْ غايتُهُ أَنْ يعيشَ الجميعُ في المدينةِ آمنينَ على أَنْفسِهـم وأَمْوالِهم وأَعْراضِهـم وأَهْليهـم ، وأَنْ يَكونـوا أَحْـراراً في

عَقيدتهم وآرائِهم ، وأَنْ يَتعاونوا على خَيْرِ ديارهم ومجتمعِهم . . . وإنَّهُ لبناءٌ جميلٌ ، وتعاهُدٌ جميلٌ.. فمَرْحَباً بالسَّلامِ والأَمانِ والتَّعاوُنِ والإِخاءِ..

أَخْلاقٌ عامَّةٌ

ولَقَدْ عرفْتُم في هذِهِ الكتبِ الثَّلاثةِ أَنَّ الإسلامَ دينٌ يضَعُ قواعِدَ المجتمعِ الصَّالحِ ، الذي يَسُودُهُ السَّلامُ والوِئامُ والحبُّ ، فَمَنْ وافَقَنا في دينِنا فهُوَ أَخٌ لَنا في اللهِ ، نحبُّهُ ونعمَلُ مَعَهُ ، ومَنْ خالَفَنا في ديننا فإنَّنا نتعاطفُ مَعَهُ لننقذَهُ مِنَ الظُّلْمِ وعبادةِ الآلهةِ المزيَّفَةِ الكاذبةِ ، فإنْ أبىٰ إلا العداءَ خَرجَ مِنْ دائرة المسالَمَةِ . إنَّ القاعِدَةَ هيَ أَنْ نُعامِلَ الجميعَ عَلى أَساسٍ إنسانيٍّ ممَّا يجعلُ عندَنا حِسّاً مرهفاً نحوَ كُلِّ مُشْرِكٍ دُونَ أَنْ تَضيعَ شخصيَّةُ المُسْلِمِ (المستقلةِ عَنْ غيرِها) .. بِسُلوكِها وعِبادتِها للهِ وحْدَهُ .

ومجتمعٌ كهذا يا أحبَّتي لَنْ يخسَرَ ، ولَنْ يَضيعَ ، ولَنْ يتفكَّكَ إلا إذا ابْتعدَ أَهْلُهُ عَنْ مبادِئِهِمُ الحصينةِ ، وتَركوا حمايَتَهم لعقيدتِهِمْ ، وأثاروا فيما بَينَهم عَوامِلَ الحسَدِ والبغضاءِ والفَوضىٰ .

وَماذا مَعَ قُرَيْشٍ ؟؟

وسنتطَلَّعُ معاً إلى الوراءِ ، حيثُ قريشٌ في مكَّةَ قدْ كادَتْ أَنْ تفقدَ صوابَها ممَّا فعلَهُ الأنصارُ في إيواءِ الرَّسولِ وأتباعِهِ مِنْ مكَّةَ ، ماذا

سيَفْعلُ الرّسولُ ﷺ معَها ؟ هل سيَتْرُكُها كافرةً ؟ هَلْ سيَدْعوها إلى التَّوْحيدِ مرَّةً أُخرىٰ ؟ كيْفَ سيَحْمي الرّسولُ عقيدتَهُ مِنْ جهةِ قريشٍ وأَمْثالِها ؟ .

إنَّ حمايَةَ العقيدةِ هُنا ، تتطلَّبُ عامِلاً جديداً مَعَ مَنْ يَأْبىٰ الصُّلحَ والحياةَ بسلامٍ ! ! إنَّنا أَمامَ قريشٍ التي تزَلْزلَتْ واضطربَتْ منْذُ سَنَةِ لأَعْظمِ بَيْعةٍ في التَّاريخِ (بيعةِ العقبةِ الكُبرى) ، وحاولَتْ أَنْ تستردَّ مِنَ الأَنْصارِ بَيْعَتَهمْ لمحمّدٍ فَلَمْ تستطِعْ ، فأَخَذَتْ تحولُ بيْنَ المؤمنينَ وهجرتِهم ، ودبَّرَتْ مؤامرةَ القَتْلِ للرّسولِ فلَمْ تفلحْ في تَنْفيذها ، وجُلُّ ما تمكَّنَتْ مِنْ صُنْعِهِ أَنْ حبسَتِ الضُّعفاءَ عنِ الهجرةِ كالنّساءِ والولْدانِ الذينَ بقُوا في مكَّةَ يُعانُون ظُلْمَ قريشٍ لهُمْ .

لِماذا المُطارَدةُ ؟!

وبقيَتْ قريْشٌ بعدَها تحاوِلُ وتحاوِلُ الكثيرَ لتنالَ مِنْ محمّدٍ وصحبهِ ، وقَدْ تتساءَلونَ يا أحبَّتي فيقولُ أَحَدُكُم لي : (لقَدْ ذهبَ الرّسولُ ﷺ عَنْ أَرْضِها مَعَ أَصحابِهِ ودعوتِهِ ، فلماذا ستبْقَى قريشٌ تُطارِدُ المسلمينَ وقائِدَهم ودَعْوتَهم باستمرارٍ ؟) .

وأقولُ لكُمْ : الجوابُ على سُؤالِكم الهامِّ هُوَ أَنَّ قريشاً لَمْ تكُنْ تحارِبُ محمّداً حُبّاً في المحافظةِ على دِينِها ، بَلْ لأَنَّهُ كانَ في دَعْوتِهِ خطرٌ مباشرٌ

عَلى سيادتِها وزَعامتِها بَيْنَ العربِ ، ولَولا هـذِهِ السيادَةُ لما كانَتْ قريشٌ تعيشُ في عِزَّةٍ ونعمـةٍ وشرفٍ . وحتَّى لَوْ ذهَبَ الرّسولُ عنْها فدعـوتُهُ ستنتصِرُ ، إذا لم تتَـداركْ قريْـشٌ أمْرَهـا فتَقضي على الدَّعـوةِ بأَسْرعِ مـا تَسْتَطيعُ ، ولهذا بقيَتْ تطارِدُ الرّسولَ وأَتْباعَهُ .

وَأَذِنَ اللهُ بالْقِتالِ

كلُّ ما تفعَلهُ قـريشٌ إذاً إنّما تفعلُهُ خَوْفاً مِنْ نَجاحِ دعوةِ محمّدٍ التي إنْ نَجحتْ فستَقضي على كيانِ قريشٍ وجاهليتها وترَفِهـا ، فلنْ تتْرُكَ المدينةَ هادئةً مستقرَّةً ، وكيفَ تترُكُها وقَدْ أصبحتِ المدينةُ خطَراً يهدِّدُ تجارةَ قريشٍ إلى الشَّمالِ ؟ ولا بُـدَّ أنْ يحْميَ اللهُ رسولَهُ ، فالرّسُولُ الذي هاجَرَ بدعوتِهِ الحبيبَةِ مِنْ مكّـةَ بحاجةٍ الآنَ إلى أنْ يأذَنَ لَهُ ربُّهُ بالقتالِ ضدَّ أعداءِ الدّعوةِ ، ونَزَلَ ما كانَ ينتظِرُهُ الرّسولُ ﷺ والمؤمنونَ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ . . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ فاللهُ سينصُرُ الـذينَ آمَنُوا بِهِ ونَصَروا دينَهُ ، واتّبعوا رسولَهُ ، والإِذْنُ لهمْ بالقتالِ هُوَ أفْضَلُ حَلٍّ لمجتمعٍ يُريدُ أنْ يَحْميَ عقيدتَهُ مِنْ جانبِ قريشٍ ومَنْ والاها .

وَأَمَرَهُمْ بالاسْتِعْدادِ

وإذا ما طَلَبَ إنسَانٌ النَّصر مِنَ اللهِ ، فَسيُقالُ لَهُ : (وهَلْ يأْتي النَّصْرُ مِنَ السَّماءِ مِـنْ غَيْرِ عَمـلٍ واسْتعـدادٍ ؟) . صحيـحٌ أَنَّ اللهَ قَـدْ أَذِنَ للمسلمينَ بـالقتال ، لكنَّهـمْ يستَحقُّـون هٰذا الإِذْنَ ، ويَعْملـون للنَّصْر حَقّاً بإيمانِهم القـويِّ ، وإنَّهمْ بَعْدَ هٰذا الإِذْنِ السَّماويِّ قَدْ عَمِلـوا كُلَّ ما بوسْعِهم ليعـدُّوا أَنفُسَهـم وأَرْضَهم وأَجْسـامَهُم للقِتـال ضدَّ أعـداءِ الدّعوةِ . . إنَّهم قَـدْ سَمِعوا أَمْراً مِنَ السَّماءِ يقولُ لَهُمْ : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . وأرْجُو يا أحبّتي أنْ تَنْتَبِهـوا إلى آخِرِ الآيـةِ التي تبيِّنُ في نِهايَتِهـا أنَّ أعـداءً جُـدُداً يُحاولـونَ القضاءَ على الدّعـوةِ ، والمسلمونَ أحبُّوا أنْ يعرِفُوا مَنْ هؤلاءِ الأعداءُ، فَقَدْ عرفُوا حتَّى الآنَ أنَّ قرَيْشاً العدوُّ الأوّلُ الذي ظلَمَ المسلمينَ وأتْباعَ محمّدٍ ﷺ .

الأَعْداءُ ثَلاثَةٌ

وزيادةً على مُعـاداة قريشٍ للمسلمين فقدْ حاولَ آخرونَ ممّنْ كتَبَ رسـولُ اللهِ معهَـمْ معاهـداتِ السَّـلامِ أنْ يحرّكـوا في أنْفُسِهم عـوامـلَ الضَّغينةِ والحقْـدِ والحَسَدِ والبغضـاءِ . ها هُـمْ أُولاءِ اليهودُ قَـدْ برزُوا إلى

ساحةِ العِداءِ بعدَ كِتابِ المعاهَدَةِ ، وصَعُبَ عليهِمْ أَنْ يكُونَ هٰذا النبيُّ مِنَ العربِ ، لا مِنَ اليهودِ ، عَلىٰ الرّغْمِ مما يعرفونَ مِنْ صِفاتِهِ وَصِدْقِهِ في توراتِهِم ، وأَصبَحوا يودُّونَ الشَّرَّ للمسلِمينَ ولِرسولِهم ، ويتغافَلون عَنْ حَقائقِ الأُمورِ ، وقدْ هدَّدوا من قبلُ مفتخرينَ بقتْلِ مَنْ سَيبعثُهُ اللهُ رسُولاً ، لكنَّ اللهَ ليْسَ بغافِلٍ عمَّا يعملونَ ، وأمَّا عَنِ العدوِّ الثَّالثِ فهُوَ مَوْجودٌ بينَ صفوفِ المسلمينَ ، وأَفرادُهُ فِئةٌ مِنَ الذينَ قالُوا : آمنَّا باللهِ وبالرَّسولِ ، لكنَّ أعمالَهُمْ تدُلُّ على أَنَّهمْ يُضْمِرونَ العداوَةَ والبغْضاءَ ، واسمُهُم (المنافقُونَ) ، ورئيسهُمْ هوَ (عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيّ) . وَأَوَّلُ ما يُقابَلُون بِهِ حقّاً هُوَ الحذَرُ والانتباهُ .

لماذا الجهادُ ؟

واجتَمَعَ الأعداءُ مِنْ قريْشٍ واليهودِ والمنافقِينَ صَفّاً واحِداً ضِدَّ محمّدٍ رَسُولِنا ورسولِ العالمينَ ﷺ ، وقدْ حَسَبَ الرسولُ ﷺ لهذا حِسابَهُ عندَما بايَعَ الأنصارَ على أَنْ ينصرُوهُ إذا ما حاوَلَ عدوٌّ أَنْ يُحارِبَ المدينةَ، لأَنَّهُ كانَ على يقينٍ بأَنَّ قريْشاً ومَنْ والاها وأمثالَهُمْ لَنْ يتركُوهُ آمِناً . ومِنْ أَجْلِ هذا كُلِّهُ ، عرَّفَ اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ بأَعدائِهِم وأَعْدائِهِ ، وأمرَهُم أَنْ يُعِدُّوا العُدَّةَ لإرهابِهِم وتَخْويفِهِم وحِمايةِ العقيدةِ ، وحينَ لا تجْدي وسائلُ السِّلْمِ ، فلَنْ ينفَعَ إلا القتالُ والجهادُ لحمايةِ هذِهِ العقيدةِ

التَّوحيديَّةِ الصَّحيحةِ . وإنَّ اللهَ يا أحبَّتي حينَ أَذِنَ بالقتالِ ، وأَمَرَ بالاستعدادِ لَهُ ، لَمْ يأذنْ بذلكَ إلا للدِّفاعِ عنِ العقيدةِ دونَ نِيَّةِ العُدوانِ ، فأَيُّما مُسْلِمٍ في أَنحاءِ الأرْضِ يجدُ ظلْماً ضِدَّهُ ، فَعَلىٰ الدَّولةِ المسلمةِ والمجتمعِ المسلمِ بذْلُ القوّةِ للدِّفاعِ عنْهُ ونصْرتِهِ وحمايتِهِ .

لا إكْراهَ في الدِّينِ

. . ومَن هُنا يا أحبَّتي يتبيَّنُ لَنا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمْ يكُنْ يسمَحُ لأَصْحابِهِ ولا لنفْسِهِ باسْتعمالِ القُوَّةِ والعُنْفِ والقتالِ في مَكَّةَ ضِدَّ قريْشٍ أَوْ غيرِها . . بَلْ كانَ يحثُّهم على الصَّبرِ والثَّباتِ حَتَّى ولَوْ ذَهَبَ كثيرٌ منهُمْ شهداءَ أَمْثالِ ياسرٍ وسميَّةَ وَالِدَيْ عمَّارٍ . . لذلكَ أُنزلَ الأَمْرُ في الإذْنِ بالقتالِ في آيةٍ أُخرىٰ للأمَّةِ والدولةِ جَماعياً : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ . . ثُمَّ : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ . لا نَنْوي العدْوانَ ، ولا نبدأُ القِتالَ ، ولا نُكرِه أَحَداً على اتِّباعِ عقيدتِنا ، فدِينُنا يأْبىٰ الإكْراهَ ، ولَسْنا بحاجةٍ إلى مَنْ يُنافِقُ بعْدَ كُرهٍ ، فيؤمِنُ ظاهِراً بلسانِهِ دُونَ عملِهِ . . ولْنحفَظْ معاً هَذِهِ القاعدةَ الخالدةَ يا أحبَّتي . قُولوا مع القرآنِ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ .

******

قصص
السيرة النبوية
٣٢

حرب الأعصاب

البيئةُ الجديدةُ

سأُحدِّثُكمُ الآنَ عَنْ حَرْبِ الأَعْصابِ التي اسْتَخدمَها المُسْلمونَ ضِدَّ أعداءِ اللهِ وأَعْدائِهم ، وعَنْ أَسْبابِ هذِهِ الحَرْبِ ، فإذا ما عرفْتُم الأَسْبابَ فَهِمْتم لماذا كانتْ هذِهِ الحربُ ؟ وتأَكَّدْتُمْ ما المبرِّرُ الذي يسوغُ للإنْسانِ المسلمِ محاربةَ عدوِّهِ في بعضِ الظُّروفِ . .

هَلْ تَذكُرُونَ الهجرَةَ إلى المدينةِ ؟ لَقَدْ هاجَرَ المهاجرونَ تارِكينَ مكّةَ وراءَهُمْ ، فَوَجدوا في الأَرْضِ الجديدةِ بيئةً صعبةَ التَّحملِ في بادِئِ الأَمْرِ ، فَمَعَ كُلِّ ما غَمَرَهُم بِهِ إخوانُهُم الأَنصارُ مِنْ كريمِ العواطِفِ ، كانَ الجوُّ الرطْبُ في المزارِعِ وتحتَ الظِّلالِ يجعَلُ حياةَ المكِّيين شاقَّةً ، فمكَّةُ مشهورةٌ بالجوِّ الصَّحْوِ ، والجفافِ ، والخُلُوِّ مِنَ الرُّطوبةِ ، ولذلكَ فَقَدْ مرِضَ أكثَرُ المهاجِرينَ ، لتغيُّرِ البيئةِ ؛ حيثُ المناخُ الجديدُ لَمْ يناسبْهم ، وجلَسُوا في بيوتِ المدينةِ مُنْهَكِينَ يحنُّون إلى أَرْضِهم الأُولى .

وَنَظْرَةُ حِقْدٍ

وزِيادَةً عَلَى مَرَضِهم فقَدْ وجَدُوا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ المدينةِ مِنَ المنافقينَ واليهودِ لَمْ يُرَحِّبوا بِهِمْ كتَرْحيبِ الأنْصارِ ، وإنَّ الضِّيقَ ليعتَصِرُ أفئِدَةَ الحاقِدِين النَّاظِرينَ إلى المهاجِرين نظرَةَ مقْتٍ ، مُعْتبرِينَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَتى

مِنْ مكّةَ دَخلاءُ عليهم ، بَلْ وَعُنْصُرٌ غـريبٌ يَحْتاجُ إلى الطَّرْدِ مِنْ يثربَ لأنَّهُ (حَسْبَ زَعْمِهم) زاحَمَهُم في مـأْكَلِهم ومَشْرَبِهم وأَرْزاقِهم ، وعكَّرَ عليهِمْ صفاءَ الحياةِ التي أَلِفُوها بيْنَ ظلالِ وجمالِ المزرُوعات .

والحقيقةُ يا أحبّتي أنَّ الحاقدينَ لَمْ يَحْقِدوا على المهاجِرينَ إلا لإيمانِ هؤلاءِ المهاجرينَ باللهِ ، فالمهاجرونَ لَمْ يعيشُوا عالةً على الآخرينَ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يحِبُّونَ التِّجارةَ والعملَ والسَّعْيَ للرِّزْقِ ، فما لهؤلاءِ المنافقينَ واليهودِ يَحْقِدونَ على السُّكّانِ الجُدُدِ ، ويَزْعمونَ زعمَهُم الخاطئَ ؟ ولربّما حَقدوا على الأَنْصارِ أيضاً ! !

وَزِيادَةُ العَدَدِ

وظَلَّ عَددُ المؤمنينَ يتزايدُ في المدينةِ بِسَببِ ازْديادِ الهجْرةِ مِنْ مكَّةَ ، وازدحَمتْ بِهِمُ البيوتاتُ ، وضاقَتْ بِهِمُ الرِّحابُ والأَرْجاءُ ، وأَصْبحَ بعضُهم دونَ مأوى ولا مسكن ، فأسْكنَهُم الرّسولُ ﷺ مكاناً خاصّاً في المسْجِدِ يُسَمّىٰ (الصُّفَّة) ، وجَعَلَ يؤمِّنُ لهُمْ ما أَمْكنَهُ مِنَ الزّادِ لشدَّةِ فَقْرِهم ، وإنَّ ازْديادَ العددِ جعَلَ المهاجرينَ يَشْعرون بشَيءٍ مِنَ الضِّيقِ النَّفْسيِّ ، فَقَدْ أَسْهمَتْ زيادةُ عددِهم في اشتدادِ الأزمةِ القاسيةِ التي مَرَّ بها المُسلمُونَ في المدينةِ . إنَّ كُلَّ واحدٍ منهمْ كانَ يَنْظُرُ إلى السَّماءِ ، ويرفَعُ يديهِ ليناجيَ اللهَ قائلاً : لَيْسَ لَنا غيْرُكَ يا ربَّ المهاجرينَ والأَنْصارِ، أَنْتَ الذي جعَلْتَنا نَصبرُ على إيمانِنا ، وها نَحْنُ أُولاءِ نُعاني

مِنْ نظَراتِ الحِقْدِ مِنَ الحاقِدين . . فَهَلْ لَنا مِنْ فَرَجٍ بعدَ هَذا الضِّيقِ ؟ لقَدْ طالَ اعتصامُنا بالصَّبرِ وتجمُّلُنا بِهِ يا ربّ . .

واشْتِدادُ الفَقْرِ

ولَقَدْ قاسىٰ قـائِدهُم معَهُم ما أَحَسُّوا بِهِ مِنَ الفَقْرِ الشَّديدِ ، يتألَّمُ إذْ يتألّمونَ مِنَ الجوعِ ، ويرْبِطُ على بطنِهِ حَجرَيْنِ أكثر مما يَرْبطون مِنْ شِدَّةِ هٰذا الجوعِ ، ويضْطرُّ إلى رهْنِ دِرْعِهِ عِنْدَ يَهُوديٍّ ذاتَ يوْمٍ لخلوِّ بيْتِ الرّسولِ ﷺ مِنْ صاعِ شعيرٍ يقْتاتُ بِهِ مَعَ أَهلِهِ ، ولقَدْ حدَّثتنا عائشةُ زوجتُهُ عَنْ شيْءٍ مِنْ هٰذا الذي قاسَتْهُ معَهُ . . وإنَّ العِفَّةَ التي يَملِكُها المهاجِرونَ ذَوُو العددِ المتزايدِ ، جعلَتْهُم يعيشُونَ هٰذا الفقرَ أَكْثَرَ مِنْ غيرِهم ، حَتّى وصلَتْ حالتُهُم إلى درجةٍ لا يتحمَّلُها إلا أَهْلُ الإيمانِ القويِّ ، وأَخَذَ يجمَعُهُمْ (ضَنْكُ العَيْشِ ، ومشقَّةُ العملِ ، ووحشَةُ الغُرْبةِ ، وحنينٌ إلى الدِّيارِ والأَهْلِ ، وشعورٌ بالظُّلْمِ مِنَ الحاقِدينَ عليهِمْ) ، وممَّا زادَ الأَمْرَ شِدَّةً أَنَّ قُريشاً ما تَزالُ تَسْعىٰ وتعدُّ العدَّةَ للقَضاءِ عليهِمْ ولَوْ بَعُدَتْ مساكِنُهم.

فَدَعا لَهُمُ الرَّسُولُ

مِنْ أَجْلِ هذا كُلِّهِ ، جعَلَ رَسولُ اللهِ أَخيراً يَدْعو ربَّهُ أَنْ يحبِّبَ إليهِمُ المدينَةَ ، ويرزقَهُم فيها رغَدَ العَيْشِ وبركَةَ الرِّزْقِ وصِحَّةَ الجِسْمِ ، وجعَلَ يفكِّرُ فيما يُسْعِدُ أَصْحابَهُ ، ويزيلُ عنْهُم وحشَةَ الغُربةِ

وذُلَّ الحاجَةِ ، وغليانَ الحنينِ إلى الأَهْلِ والدِّيارِ . ومِمَّا أَلهمهُ اللهُ عليهِ أَنَّهُ ﷺ بَنىٰ للمهاجِرينَ في الأَراضي المهجورَةِ بُيُوتاً ، وفي الأماكِنِ التي وَهَبها الأنصارُ لَهُمْ مَساكنَ .

وأَخذ يكرِّرُ دعاءَهُ للهِ بيْنَ الحينِ والآخرِ ، آمِلاً وواثِقاً بأَنَّ اللهَ سيمُدُّ لهم يدَ العونِ ، وسيجعلُ لهم مِنْ ضِيقهِم مَخْرجاً ، وَلا سيَّما بعدَ الإِذْنِ بالقِتالَ الذي نَزَلَ مِنَ السَّماءِ ، والأَمْرِ بالاستعدادِ لإرْهابِ العدُوِّ ، ولقَدْ وَعىٰ المسلمونَ هذيْنِ الأمْرَيْنِ . فَمِنْ أَيْنَ يبدؤُونَ يا تُرىٰ للاستِفادةِ منهُما ؟

أَمْوالُنا وَأَهْلُونا

وتذْكُرونَ أَنتُمْ أَوَّلَ الطَّريقِ . أَلا تفكِّرونَ في أَموالِ المهاجرينَ الكثيرةِ التي تَركُوها في مكَّةَ ؟ أَلَمْ تأْخذْها قُرَيْشٌ ظُلماً وعُدواناً ؟ أَلا نتذكَّرُ مَثلاً صُهيباً الروميَّ الذي لَمْ يَدَعْ لَهُ المشركونَ درهماً واحِداً ؟ إنَّ قريْشاً الآنَ لتَرْتَعُ في مكَّةَ في رَغَدٍ مِنَ العيْشِ ، وتَسْتَمْتِعُ بأَمْوالِ هؤلاءِ بعْدَ أَنْ أرْغَمَتْهمْ على تَرْكِها ، وتتصرَّفُ في دُورِهم ومَتاعهم ومَتاجرِهم ؛ تَصرُّفَ المالِكِ بغيرِ حقٍّ ، وتستذِلُّ مَنْ خلَّفهم المهاجرونَ منْ أَهْليهم المسلمينَ : كالنِّساءِ والوِلْدانِ . أَليسَتْ قُرَيْشٌ هي التي تَفْعَلُ كُلَّ هذا؟

أَمْوالُنا قدْ نُهبتْ يا ربُّ ، أَهْلُونا قد شُرِّدوا يا ربُّ . أَنْتَ تعلمُ كُلَّ

هٰذا.. وإنَّكَ لتَدْري قَبْلَنا بأَنَّ نِيَّةَ قريشٍ أَكْلُ الأموالِ وظُلْمُ الأَهْلِ . . فَعونُكَ يا ربُّ لنا . . حَتَّى نُرزَقَ مِنْ حلالِ أَمْوالِنا ، ونُخَفِّفَ الظُّلْمَ عَنْ أَهْلينا في مكَّةَ . .

أفَلا يَحِقُّ لَنا ؟

ويدْعُو الرَّسولُ ﷺ معَهمْ ، فقَدْ تَرَكَ مالَهُ وبيتَهُ وبَعْضاً مِنْ أَهلِهِ ، ويسأَلُ اللهَ أَنْ يعينَهُم عَلَى ما هُمْ عليْه منَ الضيِّقِ ، وقَدْ أَصبَحوا الآنَ يملِكُونَ مُسوِّغاتٍ كثيرةً يحِقُّ لَهُم بموجِبها أَنْ يتحرَّكوا مِنْ أَماكنِهم للقضاءِ على ظُلْمِ قريشٍ للمسلمينَ . . أَلا يحِقُّ لهؤلاءِ أَنْ يَسْتَرِدُّوا ولَوْ قليلاً مِنْ أَموالِهم ، عَساهُم يُفرِّجونَ بها عَنْ أَنْفسِهم وفُقَرائِهم ، ويخفِّفونَ عَنَ الأَنْصارِ بعْضَ الحِمْلِ الثَّقيلِ ؟ أَلا يحِقُّ لهُمْ أَنْ يَعودوا إلى دِيارِهم التي أُخْرِجوا منْها ظُلْماً بغَيْرِ حَقٍّ ؟ أَلا يحِقُّ لهُمْ أَنْ يَفتَحوا المجالَ أخيراً لمنْ يرغَبُ في الإسْلامِ ، وذلِكَ عَنْ طريقِ إِشْعارِ العَدوِّ بأنَّهم أَقوياءُ بإِذْنِ اللهِ ؟ إنَّ كُلَّ هٰذا ، بَلْ إنَّ واحِداً مِنْ هٰذا ليدفَعُ المهاجرينَ والأَنصارَ معاً ، ومعَهُم الحقُّ لِقتالِ كُلِّ ظالمٍ .

وَتَذَكُّرٌ للآيةِ

وهُمْ وَإِنْ بدؤوا بأَخذ حَقِّهم مِنْ قُرَيشٍ لا غيرِها إلاّ أَنَّ غاياتِهم لم تكُنْ مقصورةً على قتالِ قريشٍ وحْدَها ، فللمسلمِينَ كما عرفْنا أَعْداء في المدينةِ وأعداء فيما حوْلها ، ولَنْ يصدَّ الأعداءَ عَنِ النَّيْلِ مِنَ المسلمينَ إلا

الرهبةُ والإرْهابُ والتَّخويفُ . . ولا أبلغ من قولِ اللهِ عِندما أَمَرَهُم بالاستعدادِ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . .﴾ . وما عَلَيْنا الآنَ إلا أَنْ نُتابع القراءَةَ لنَعْرِفَ مَعاً كيفَ نَفَّذ المسلمونَ هٰذا الأَمْرَ بقيادةِ قائِدِهم الحكيمِ محمّدٍ ﷺ ، فقدْ آنَ الأوانُ حقّاً لكيْ نَفْهَمَ ترجمَةَ الآيةِ إلى عملٍ يَحْمي العقيدةَ ، فالمُسْلِمُ يُؤْمن بالتَّنفيذِ الفَوْريّ لأَوامِرِ رَبِّهِ وَرَسُولِهِ . . وَلا سيَّما إنْ كانَ في شَوْقٍ لهٰذهِ الأوامِرِ.

سَرَايا لتَخْويفِ العَدُوّ

لقَدْ أَخذَ الرّسولُ ﷺ يُرْسِلُ الكتائِبَ والسَّرايا مِنْ أَصحابِهِ إلى طريقِ مكَّةَ ، ليتحسّسَ أَخبارَ العَدوّ ويكْشفَ نواياهُ الخبيثَةَ ، وبالتّالي ليقطعَ الطّريقَ على تجارتِهم نَحْوَ الشّامِ ، فإذا ما استطاعَ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ قضىٰ على شَريانٍ مِنْ أهمِّ شرايينِ حياتِهم وقُوَّتِهم وجَبَروتِهم ، وأجبرَهُم على الاقْتِناعِ بأنَّ المسلمينَ قَدْ أَصْبحوا قوَّةً يُحْسَبُ حِسابُها . ومحمّدٌ القائدُ ؛ كانَ يُعلِّمُ أَصْحابَهُ أنَّ هذهِ السَّرايا ليْسَتْ لغايةٍ شرّيرةٍ ، وأنَّها لا تريدُ الحربَ لمحبَّتِها بالحربِ ، إنَّما كانَتْ سَرايا إرهابٍ للعدوّ ، واختبارٍ لقوّةِ هذا العدوّ . . ومِنَ الأمثلةِ على هـذهِ الكتائبِ والسَّرايا : (سريَّةُ حَمْزَةَ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلب باتّجاهِ البحرِ في ثلاثينَ مِنَ المهاجِرينَ) ، (وسريَّةُ

عُبَيْدَةَ بْنِ الحارِثِ بَعْدَ ستّةِ أَشْهُرٍ مِنْ سابِقَتِها إلى وادِي رابغ في ستّينَ راكِباً مِنَ المهاجِرينَ) ، (وسريَّةُ سعدِ بْنِ أَبي وَقّاصٍ في عِشْرينَ مُقاتِلاً) .

فاشْتَدَّ خَوْفُ العدُوّ

ووجَدَ الرّسولُ القائدُ أنَّ الفائدَةَ بدأَتْ تتحقّقُ شيْئاً فشيْئاً ، فتابعَ إرسالَ سَراياهُ وكتائبَهُ ، وربَّما خرجَ مرّاتٍ عديدةً على رأْسِ السَّريةِ في عَدَدٍ أكْبرَ ، كَما فَعَلَ عنْدَما عَلِمَ أنَّ قافلةً عظيمةً لِقريشٍ قدْ خرجَتْ مِنْ مكَّةَ تُريدُ الشّامَ ، وعلىٰ رأسِها أبو سفيانَ في بضعةٍ وعشرينَ رجُلاً ، وفيها مِنْ أَمْوالِ المهاجِرين وكُلِّ أَهْلِ مكَّةَ ، ففي هذِهِ المرَّةِ خرجَ الرّسولُ ﷺ إلى القافِلَةِ ومعَهُ مئةٌ وخمْسُونَ مِنَ المهاجِرينَ ، وكُلُّهم قَدْ أَصابَهُ الفقْرُ والضَّنْكُ . . ووصَلَ بِهِمُ القائدُ البطَلُ مكاناً في ناحيةِ (يَنْبع) فوجَدَ القافِلَةَ قدْ مضَتْ وأفلتَتْ مِنْ يدِهِ ، فرجَعَ إلى المدينةِ يترقَّبُ عوْدَتَها مِنْ بِلادِ الشّامِ ، ووصلَتْ أخبارُ هذِهِ السَّريةِ إلى قُرَيْشٍ ، وعَلِمَ بها أيضاً أَبو سفيانَ ، فأصبحَ العدوُّ يتمهَّلُ ويحذَرُ في حركاتِهِ هُنا وهُناك ، حتّى لا يقَعَ فيما يكرَهُهُ مِنْ قُوَّةِ محمّدٍ والمسلمينَ الجديدةِ .

وَرَدَّ القُرَشِيُّونَ

وخَطَرَ على بالِ قريشٍ أنْ تتخذَ حلفاءَ يُساعِدونَها على رَدِّ المناوشاتِ التي يَقُومُ بها المسلمونَ ، ونجحَتْ في أمْرِها بعْضَ الشَّيْءِ ، إذْ حالفَتْ

واحداً مِن المشركين يسمّى (كَرْزَ بْنَ جَابِرِ الفِهْرِيّ) واستخدمَتْهُ في إرْهابِ المسلمينَ ، فقامَ (كَرْزٌ) مَعَ بعضِ رجالِهِ بِغارةٍ على مَرْعى المدينةِ ، واستطاعَ أَنْ يستاقَ بعْضَ الماشِيَةِ والأغنامِ على بُعدِ ثلاثةِ أميالٍ مِنْ يثربَ ، فما كادَ يبلُغُ رسولَ اللهِ ﷺ خبرُهُ حَتّى أَسْرَعَ في جمعٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، ولحِقَ بالسَّارِقِ واللُّصوصِ ، حَتّى يَضَعَ حَدّاً لعُدوانِ كَرْزٍ ويؤدِّبَهُ ، وليستعيدَ ما استاقَهُ المغيرونَ مِنَ الإبلِ والأغنامِ . ولا عَجَبَ في عَمَلِهِ هٰذا فَهُو رسولٌ وقائدٌ يحسبُ حِساباً لِكلِّ غاراتِ العدوِّ مِنْ حولِهِ . . وهٰذا ما يجبُ على المسلمينَ دَوْماً أَنْ ينتبهوا لَهُ ، لكيْ يحقّقوا مَعْنى الآيةِ الكريمةِ في القتالِ والاستعدادِ ، ويكسبُوا نَصْراً كالذي كسبَهُ رَسُولُهم ضِدَّ المعتدينَ أَمْثالِ كَرْزٍ .

حِمايَةٌ وَاسْتِطْلاعٌ

وسواءٌ أَكانَ الرَّسولُ ﷺ في السَّرِيَّةِ المدافعةِ أَمْ لا ، فإنَّ اللهَ مَعَ المسلمينَ أينما كانُوا ، لينصرُهُمْ ويحْميَهُم في تنفيذِ الآيةِ الكريمةِ ، وقَدْ تمكّنَ المسلمونَ حقيقةً مِنْ زرعِ عدّةِ شوكاتٍ في صَدْرِ العدوِّ ولا سيّما على طُرقِ تجارَتِهِ وتحرُّكاتِهِ . ومَعَ أَنَّ العَدَدَ الذي كانَ يخرُجُ في كُلِّ مرّةٍ قليلٌ ، لا يُمكنُ أَنْ يَصلُح لقتالٍ هجوميٍّ ، إلا أَنَّ النَّجاحَ كانَ حليفَهم في الاستطلاعِ وكَشفِ حركاتِ العدوِّ وإرْهابِهِ وتأديبِ حُلفائِهِ أَمْثالِ كَرْزٍ ، ولا مانِعَ مِنْ أَنْ نحصرَ الفوائِدَ مِنْ سَرايا المسلمينَ في أمرينِ

اثنيْنِ هُما :

أولاً : التدرُّبُ على إعْدادِ قُوّاتٍ تَطوفُ ما بَيْنَ المدينةِ ومكّةَ خَوْفاً مِنْ هُجومٍ قُرَشيٍّ مفاجئٍ على المدينةِ قَبْلَ إعْدادٍ سابِقٍ للدِّفاعِ . .

ثانياً : العملُ على الاقترابِ مِنْ قُرَيْشٍ في عُقْرِ دارِها وسَبْقِها في الدِّفاعِ الهجوميِّ.. وبكلمةٍ واحدةٍ : كانتِ السَّرايا حَرْبَ أعْصابٍ وحصاراً اقتصادياً ضِدَّ قريشٍ .

وَحَدَثَ قِتالٌ

ويشاءُ اللهُ أَنْ تحْدُثَ شرارةٌ كبيرةٌ بَيْنَ الطَّرفَيْنِ ، حَيْثُ أَرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ أَحَدَ صَحابتِهِ وهو ابنُ عَمّتِهِ عبدُاللهِ بنُ جحشٍ في سريةٍ مَعَ ثمانيةٍ مِنَ المهاجرينَ في شهرِ رجبٍ ، ليستطْلِعَ أخْبارَ قريشٍ في مكانٍ اسْمُهُ (نخلةُ) ، يقعُ بينَ مكّةَ والطّائفِ ، فرأى هنالِكَ قافِلةً تجاريةً لقريشٍ مَعَها أربعةُ نَفَرٍ ، فهاجَمَ الصّحابةُ القافلةَ ورجالَها ، واستطاعوا أَخْذَ البِضاعةِ وأَسْرَ اثنَيْنِ وقتْلَ واحِدٍ .

ولمّا عادُوا نحوَ المدينةِ ، وأعْلَموا الرّسولَ بما فَعلوهُ ، غَضِبَ الرَّسولُ ﷺ لأنَّ الشّهرَ الذي حدَثَ فيهِ القِتالُ هُوَ (شَهْرُ رجَبٍ) ، وهٰذا الشّهرُ تعارفَ عليهِ العربُ على عَدَمِ القتالِ فيهِ ، فقالَ لَهُمْ : (مَا أَمَرْتُكُمْ بقتالٍ في الشَّهْرِ الحرامِ) ، فوقفَ عبدُاللهِ مَعَ الثّمانيةِ لا يَدْرُونَ ما

يصْنعونَ ؟ ولا ماذا يتكلَّمون ؟ ولا يَعْرِفون كيْفَ يُكَفِّرونَ عَنْ خطيئَتِهِمْ إنْ كانَ عَمَلُهُمْ خطأً يُغْضبُ اللهَ ورسولَهُ ؟ .

فَدافَعَ اللهُ عَنْهُمْ

واستغلَّتْ قريْشٌ الفُرصَةَ لِتُشِيعَ بيْنَ العربِ أَنَّ محمَّداً وأَصْحابَهُ قَدِ استحلُّوا الشَّهْرَ الحرامَ ، وقَاتَلُوا فيهِ عدوَّهُمْ ، وتعجَّبَ النَّاسُ السَّامعونَ، واستفْظَعوا على المسْلمينَ عَمَلَهُم ! ! أَيْنَ العِبادَةُ للهِ ؟ وأَيْنَ ديانَةُ الإِسْلامِ؟ وخافَ بعْضُ المسلمينَ مِنْ عواقِبِ الأَمْرِ ، وتفاقُمِ الخطَرِ ، وعنْدَها جاءَتْ نجدَةُ السَّماءِ ، ونزَلَ جبْريلُ على رسولِ اللهِ يقولُ لَهُ مُبشِّراً مُدافِعاً : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أَيْ : إنَّ القتالَ الذي حدَثَ أَمْرٌ كَبيرٌ لأَنَّهُ في الشَّهْرِ الحرامِ، وحبَّذا لَوْ لَمْ يحصَلْ ، لكنَّ ما فَعَلَهُ المشرِكُونَ بالمسلِمِينِ مِنْ قَتْلٍ وفتْنَةٍ أَخْطَرُ وأَكْبَرُ ، فَلا مانِعَ مِنَ القِتالِ إذاً ضِدَّ المشرِكينَ ، ولا مانِعَ مِن الانتصارِ عَلى كُلِّ كافرٍ ولَوْ في الشَّهْرِ الحَرامِ إذا لَزِمَ ذلكَ .

******

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٣٣

أموالنا يا قريش

اعْلَمي يا قُرَيْشُ

. . ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ ﴾

هَذه هيَ الآيةُ التي اختتمْنا بها الحديثَ في حَلقتِنا الماضية ، وعرَفْنا يا أحبَّائي أنَّ هَذِهِ الآيَةَ دفاعٌ عَنِ الذين قاتَلُوا المُشْرِكين في الشَّهرِ الحرامِ ، وكأنَّ اللهَ يقولُ لقريْشٍ : اعْلَمي يا قُـرَيْشُ بأنَّ الشَّهْرَ الحرامَ لَيْسَ معناهُ أنَّ الظُّلْـمَ لا يُرَدُّ على الباغـي . . فمِـنَ الآنَ ، لَـنْ يسكُـتَ عـادِيَ المُسْلمونَ عَنْ كُلِّ ظُلْمٍ منْكِ ، وإنَّ طَـرْدَكِ لَهُمْ لَهُوَ أكبرُ مِمَّا زَعَمْتِهِ حراماً منْهُمْ ، فإنَّكِ قَدْ فَتَنتِ المُسلمينَ عَنْ دِينِهِمْ ، وشَرَّدْتِ الأهْلَ فيما بيْنَهُم ، وَإنْ أَرَدْتِ استغلالَ الفرصةِ ضِدَّ محمَّدٍ وأتْباعِه بأنَّهمْ قاتَلُوكِ في الشَّهْرِ الحَرامِ ، فإنَّ حجَّتَكِ باطِلةٌ ، ولقَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ بذلكَ . .

وَخافَتْ قُرَيْشُ

وخافَتْ قريْـشٌ مِنْ هذِهِ الآيةِ ، وعَلِمَتْ حَقّاً أنَّها مُـؤاخَذَةٌ مُنذُ الآنَ عَنْ كُلِّ مـا تفعلُهُ ، وأنَّ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ لَـنْ يتْرُكوها كما كانَـتْ مِنْ قَبْلُ ، فـالمسلمونَ اليومَ أقوِيـاءُ أعزَّةٌ ، يُحسَـبُ لهُمُ الحِسابُ في طَـريقِ التِّجارةِ نحْـوَ بِلادِ الشَّامِ . وإنَّـهُ لا بُدَّ مِنَ الخوفِ . . وعَلى قـريْشٍ أنْ تُعيـدَ النَّظَرَ لحِمايَـةِ أَمْوالِها وتجارتِها لكيْ تستطيعَ التَّحليـقَ بأجنحـةِ

الطُّغيانِ والقوَّةِ ، والفَتْكَ بواسطةِ مَخالبِ المكْرِ والخِداعِ . .

ولَـنْ تَستطيـعَ . . إنَّها لا تَـدْري مـاذا يُخَبِّئُ لها أَصْحـابُ الـدَّعـوةِ الإسلاميَّةِ مِنْ مُفاجآتٍ ، فقدْ ينقضُّونَ على شَريانِ حَياتِها ، فيَقْطعونَهُ ، أَوْ يَقُصُّونَ على جنـاحِ الطَّيَرانِ القرشِّي ، ويقلِّمـون مَخالِـبَ الغـدْرِ والظُّلْـمِ . إنَّ المسلمينَ لا بُـدَّ وأَنَّهمْ يترصَّدونَ ويقِفُونَ في سبيـلِ كسرِ شَوْكَتِها . . وسَيَسْتَرِدُّونَ أَمْوالَهم بإذْنِ اللهِ .

أَمْوالُكُمْ يا قَوْمُ

وتَذَكَّـرَ رسولُ اللهِ القـافلةَ التـي خَرَجَـتْ مِنْ مَكَّةَ إلى الشَّامِ ، فلَـمْ يُدرِكْها آنَـذاكَ ، إنَّها الآنَ على طريقِ العودةِ مِنَ الشَّامِ إلى مَكَّةَ ، وفيها مِنْ أموالِ المسلمينَ الكثيرُ الكثيرُ ، تحمِلُ تجارةً يُقدَّرُ ثَمَنُ بضاعَتِها بنحو خَمْسين ألفِ دينـارٍ في ذلكَ العَصْرِ . . فوقفَ خطيبـاً في المجتمعِ الإسلاميِّ يحثُّ أَصْحابَهُ على أَنْ يَسْتَنْهِضوا هِمَمَهُمْ هذهِ المرَّةَ ، ويُسْرِعوا إلى تهيئةِ أنفسِهم ، ويَخْرجـوا مَعَهُ إلى حَيْـثُ ستمرُّ القـافِلةُ بقيادةِ أبي سفيانَ ، ومِمَّا قالَهُ لَهُمْ : (هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فيها أَمْوالُهم ، فاخرجوا إليها ، لَعَلَّ اللهَ أنْ يُنفِلَكُموها) أي: يجْعلها غنيمـةً لكم . وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَدْ أبقى اثْنَيْنِ مِنَ القادِرين على الاستـطلاعِ ، لمعرفةِ خَبَرِ القافلةِ وهُما : (طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْـدِ اللهِ ، وسعيدُ بْنُ زيدٍ) ، ولكنَّهُ لَمْ ينتظِـرْ عودَتَهما ، بَلْ خَرَجَ مَعَ أَصْحابِهِ مِمَّنْ هيَّأَ نفْسَهُ ، ليُدْرِكَ القافِلَةَ قبْلَ فواتِ الأوانِ .

التَّوكُّلُ الصَّحيحُ

وكانَ خروجُ الرّسولِ ﷺ يومَ السَّبْتِ الثَّاني عَشَرَ مِنْ رَمَضانَ مَعَ ثلاثمئةٍ وبضعَةَ عشَرَ رَجُلاً مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ، والذينَ تَخلَّفوا ظَنُّوا أنَّ رسولَ اللهِ لَنْ يَلْقىٰ حَرْباً مَعَ المشركينَ، وإنَّما خَرَجَ للغنيمةِ مِنَ القافلةِ. ومَشىٰ الجمعُ المؤمنُ مَع القائدِ المؤمنِ، وبرعايةِ ربِّ العالمينَ، وبَلَغُوا مَكاناً يَبعُدُ ميلاً عَنِ المدينةِ، وإنَّهُ لمكانٌ يناسبُ تَفقُّدَ الرّسولِ لأصحابِهِ وإحصاءَهم وترتيبَ الأُمورِ.. وكأنَّ اللهَ ألهمَهُ أنَّ القومَ مِنَ الكفّارِ قَدْ يُشْهِرونَ سلاحَهم محاربينَ لكُمْ، فَلا مانعَ أنْ تستعرضَ أصحابَكَ الآنَ، وتُرتِّبَ أمرَكَ، ثُمَّ تتوكَّلَ على اللهِ، فيكونَ اللهُ نِعْمَ المَوْلَى والنَّصير، وحسبُكَ اللهُ وَكيلاً بعدَ أنْ تُقدِّموا كُلَّ ما بوسعِكم مِنْ بذْلٍ وعطاءٍ وإيْمانٍ..

وَبَكىٰ الصِّغار

وَيرىٰ الرّسولُ ﷺ بعضَ الصِّغارِ أثناءَ استعراضِهِ للجُنْدِ، فيردُّهُم لِصِغَرِ سِنِّهم، ولأنَّهم لا يَقْوونَ عَلَى حَملْ السِّلاحِ، فَهُمْ في مِثْلِ بَراعمِكم النَّاميةِ على الإيمانِ.. ومِمَّنْ ردَّهُمْ رسولُ اللهِ في بعضِ معاركِهِ: (عبدُاللهِ بْنُ عمرَ بن الخطاب) و (رافعُ بنُ خُديجٍ) و (البراءُ بْنُ عازبٍ) و (زيدُ بنُ الأرقم) و (زَيْدُ بْنُ ثابتٍ) و (عُمَيْرُ بْنُ أَبي وقّاصٍ). وكلُّهم مِنَ الأبطالِ الصغارِ، بَكَوا واستَعطفَ بعضُهم النبيَّ

ليأْخذَهُم مَعَهُ، وَبعْضُهم طلبَ مِنَ الرسولِ اخْتبارَ قُوَّتِهِ، فيتصارعُ اثنانِ منهمْ أمامَ القائدِ في مباراةٍ بريئةٍ جميلةٍ، فيبتسِمُ رسولُ اللهِ ويأْخُذُ مِنْهُمْ عَدَداً قليلاً، حيْثُ رآهُمْ مليئينَ شوْقاً وحَناناً للذّهابِ، وما أحْلى الجيشَ الذي تتفتَّحُ فيهِ أمثالُ هذهِ العيونِ الفتيَّةِ الباكيةِ، تطلبُ مِن اللهِ شهادَةً أوْ نَصْراً.

وَصْفٌ للجَيْشِ المؤْمِن

وفيما يَلي يا أَحبَّتي وَصْفٌ للجيشِ الذي سيسيرُ بَعْدَ انتهاءِ الاستعْراضِ: العَددُ (ثلاثُمئةٍ وعشرةٌ مِنَ المسلمينَ): فيهِم نَحْو (سبعينَ) مِنَ المهاجرينَ ونَحْو (مائتينِ وأربعينَ) مِنَ الأنْصارِ، والجميعُ يملكونَ مِنَ الخيلِ (فَرَسَيْنِ) ومِنَ الجمالِ والبعيرِ (سَبْعينَ) أيْ: كُلُّ ثلاثةٍ يتبادلونَ الرُّكوبَ على راحلةٍ، ويأْبىٰ القائدُ كما تتوقَّعونَ إلا أنْ يأْخُذَ دورَهُ في المشْي بَعْدَ قليلٍ، وحينَ أرادَ رفيقاهُ أنْ يُعْفياهُ ويمشيا عَنْهُ، قالَ لَهما ﷺ: (ما أَنْتُما بأقوىٰ منّي على المشْي، وما أَنا بأغْنىٰ عَنِ الأَجْرِ منكُما.). وَلَوْ سَأَلْتُموني عَنِ السِّلاحِ والطَّعامِ لأَجبْتُكُم: إنَّهُ قليلٌ، فالزّادُ تَمْرٌ وخبْزٌ، والسِّلاحُ سُيُوفٌ فقيرةٌ، وَدُروعٌ معدودةٌ، وقَدْ عَوَّضُوا عَنْ قِلَّةِ العَتادِ والعدَّةِ والعَدَدِ بأَنَّهم مُؤْمِنونَ حَقَّ الإيمانِ، فَعلُوا ما بوسْعِهم مِنَ الاستعدادِ النَّفسيِّ والحَرْبيِّ، ثُمَّ توكَّلوا على اللهِ ربِّ العالمين..

تَشْكِيلٌ حَرْبِيٌّ حَكِيمٌ

لقَدْ وَضع الرّسولُ ﷺ جَيْشَهُ في تشكيلٍ يُناسِبُ الحالَةَ والغايَة والسَّيرَ في أرضِ العدوِّ ، فرتَّبَ الجيْشَ تَرْتيباً يتلاءَمُ مَعَ السَّيْرِ في هَذِهِ الأَرْضِ خَشْيَةَ أَنْ يَلْقَوا عَدُوَّهُمْ فَجْأَةً . ولكيْ يأْمَنَ الرّسولُ المفاجَأَةَ نَراهُ قَدْ قَسَّمَ الجيْشَ إلى مقدَّمةٍ ومؤخَّرةٍ ، وجَعَلَ لَهُ ثلاثَةَ أَلْويَةٍ ، وطَلَبَ مِنْ أَفرادِ الجيشِ إظْهار السِّلاحِ بشْكلٍ واضحٍ ، تَحَسُّباً للأَمْرِ ، وبسببٍ مِنْ مخاطِرِ الأَرْضِ الرَّمليةِ المكْشُوفةِ ، فقدْ كانَ التَّشكيلُ مفتُوحاً بعيداً عَنِ الصُّفوفِ المتراصَّةِ ، وفي هذا فائدة في سُرْعةِ السَّيرِ مِنْ ناحيةٍ .. ولأَمْنِ المفاجَأةِ مِنْ ناحيةٍ أُخْرى .

ما أَرْوَعَكَ يا رسولَ اللهِ ! . وما أَرْوعَ حِكْمَتَكَ ، وما أَعْظَمَ قيادَتَكَ ! . فَعَلى الرَّغم مِنْ فقرِ الجيْشِ في العَتادِ والمؤونةِ إلا أنَّكَ أَظْهرْتَهُ في مظهرٍ يدلُّ على القُوَّة . . والقيادةِ الحكيمة .

اسْتِنْجادٌ بِقُرَيْشٍ

واقتربَتِ القافلةُ المُنْتَظَرَةُ والعائدةُ في طريقِها نَحْوَ مكَّةَ ، ويعْلَمُ أَبُو سفيانَ بأَنَّ الذينَ أُفلتَ مِنْ أَيدِيهم في الذَّهابِ ، قَدْ وقفُوا لَهُ بالمرْصادِ في طريقِ عَوْدتهِ ، لذلكَ أَرْسَلَ على عَجلٍ رَسُولاً إلى قريشٍ يُعْلِمُها بالخبرِ ، ويَسْتَنْجِدُ بها ، لكيْ تُرْسِلَ لَهُ مَنْ يَحْمي أَمْوالَها . . ويصلُ حامِلُ الخبرِ إلى مكَّةَ ، ومِنْ شِدَّةِ ذكائِهِ أَنَّهُ وَصَلَ بهيئَةٍ يُرْثَى لَها مِنَ

التَّعب والصِّياح والصُّراخ ، وقَدْ شَقَّ قميصَهُ ، وجدَعَ أَنْفَ بعيرِهِ (أَيْ قَطعَ جُزْءاً مِنْ أَنْفِ الجملِ) ، كُلُّ هٰذا لِيُوهِمَ القومَ بأَنَّ الأَمْرَ جِدُّ خطيرٍ ، ورأَى أَفْرادُ قريشٍ فيه كُلَّ مظاهِرِ الصَّارخِ الملْهوفِ ، وهُوَ يقولُ : يا مَعْشَرَ قريْشٍ ، يا مَعشرَ قُريْشٍ ، اللَّطيمةَ اللطيمةَ . . الغوثَ الغوْثَ ، أَمْوالكم مَعَ أَبي سفيانَ قدْ عرَضَ لَها محمّدٌ وأَصْحابُهُ ، ولا أَظُنُّ أَنْ تُدْرِكُوها ، فَالنَّجدةَ النَّجدةَ .

خطَّةُ أَبي سُفْيانَ

وسرعانَ ما تجهَّزَ الرِّجالُ ، وفي أنفسِهم شرٌّ ، وعلى رأْسِهم أَبُو جهلٍ -أخزاهُ اللهُ- يَنْوي أَنْ يُهلكَ محمّداً وأَصْحابَهُ بيديْهِ ، وسارُوا في طريقِهم مدجَّجين بالسِّلاحِ ليُلاقوا المُسْلمينَ ، ويحموا القافلَةَ القُرشيَّةَ .. وأَبُو سفيانَ رجلٌ خبيرٌ بدروبِ مكَّةَ ، لا يسيرُ إلا بحَذَرٍ ولا سيّما وَقْت المأْزِقِ الَّذي سيقعُ فيه إنْ لم يَتَّخِذ احتياطاتِه ، لذلكَ اتَّجهَ بقافلَتِهِ في طريقٍ يمينيٍّ باتجاهِ ساحلِ البحرِ الأحمرِ ، تارِكاً الطريقَ الأقربَ ، خشْيَةَ أَنْ تضيعَ منْهُ القافلةُ . . وكانَ أَسْرَعَ منْ أَنْ يتمكَّنَ الرّسولُ وصحبُهُ مِنَ اللّحاقِ بِهِ .

لديْنا الآنَ إذاً ثلاثةُ جموعٍ تسيرُ : جَمْعُ رسولِ اللهِ ﷺ مَعَ صحابَتِهِ ، وجَمْعُ أَبي جهلٍ مَعَ جيشِ قريْشٍ ، وجَمْعُ أَبي سفيانَ مع قافلتِهِ . . وكلُّ جَمْعٍ منهمْ في طريقٍ ولغايةٍ ينفردُ بها مِنْ دُونِ الآخرينَ .

ما رَأْيُ أَصْحابي ؟

ويصلُ الخبرُ إلى رسولِ اللهِ مُزْدوجاً ، فالقافلةُ قَدْ غيَّرتْ سَبيلَها فَنَجَتْ، وقريشٌ قَدْ خرجَتْ مِنْ مكَّةَ لحمايَتِها ، لذلكَ نَراهُ يأْمُرُ بالوقوفِ ويجمعُ الصَّحْبَ مِنْ حولِهِ ، ليخْبرَهم بما كانَ مِنْ خُروجِ قريْشٍ ونجاةِ القافلةِ . ومِنْ ثَمَّ سألَهُمْ عمَّا إذا تابعَ القرشيُّون سَيْرَهُم نحوَهُ ، فهلا قاتلوهُم ، ودافَعوا عَنْ أنفسِهِم بجدارةٍ ؟ ! ! وسادَ الجوَّ صمْتٌ لمدَّةٍ قليلةٍ ، وقطعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ جديدٍ : (ما ترون في قتالِ القوْمِ ؟) وكأنَّهُ يرغِّبُهم في عدَمِ التَّراجُعِ ، وبدأَ الجوابُ يتوالىٰ علىٰ الألْسُنِ ، حيثُ قامَ أبو بكرٍ فأحسنَ ، وقامَ عُمرُ بنُ الخطابِ وأجابَ أيضاً فأحسنَ ، ثم نظرَ الرّسولُ في القوْمِ وكأنَّهُ يريدُ منهمُ التّحدُّثَ وتقديمَ آرائِهِم ، فهوَ قَدِ اسْتشارَ الجميعَ ليعرفَ رأْيَ الجميعِ . .

امْضِ لما أَمرَكَ اللهُ

وظَهر مِنْ بَيْنِ الوُجوهِ وجْهُ فارسٍ يتلألأُ رضاً لرَغْبةِ رسولِ اللهِ ، إنَّهُ وجْهُ الصَّحابيِّ الفارسِ الشُّجاعِ : (المقْدادِ بْنِ عَمْرو) الذي وقفَ يردُّ على سؤالِ رسولِ اللهِ بجوابٍ أرْضىٰ بِهِ قَلْبَ القائدِ الحكيمِ ، لقَدْ قالَ : (يا رسولَ اللهِ امْضِ لما أَمرَكَ اللهُ بِهِ فنَحْنُ مَعَكَ ، واللهِ لا نَقولُ لَكَ كما قالَ بَنُو إسرائيلَ لموسىٰ : اذهبْ أنْتَ وربُّكَ فقاتِلا إنَّا هاهُنا قاعدونَ ، ولكنْ : اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا، إنَّا معَكُما مُقاتِلُون . فَوالذي بعثَكَ بالحقِّ ، لو سِرْتَ بِنا إلى بَرْكِ الغِمادِ لجالدنا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ).

أيْ : لَوْ طَلَبْتَ مِنَّا يا رسولَ اللهِ أَنْ نَسيرَ إلى أيِّ مكانٍ مُمعِنٍ في البعدِ مثْلِ بَرْكِ الغِمادِ الموجودةِ في اليمنِ لَما تخَلَّفَ مِنَّا واحِدٌ أبداً ، فامضِ لما تَراه خَيْراً . ويفرحُ رسولُ اللهِ ﷺ ، ويُثني على المقْدادِ خَيْراً ، ويدْعو لَهُ .

صِدْقٌ في اللِّقاءِ

ثُمَّ التفتَ الرّسولُ ﷺ جِهةَ الأَنْصارِ ، وهُوَ يقولُ : (أَشيروا عَلَيَّ أَيُّها النَّاسُ) ، ولعَلَّ الرّسولَ يجدِّدُ البيعةَ التي بايَعُوهُ إيّاها في العقبةِ مِنْ قَبْلُ، فقامَ سعْدُ بْنُ مُعاذٍ وقالَ : (يا رسولَ اللهِ ، إنَّكَ عَسَىٰ أَنْ تكونَ خرجْتَ لأمْرٍ وأَحْدَثَ اللهُ لكَ غيْرَهُ ، فانْظرِ الذي أحْدَثَ اللهُ إليْكَ فامضِ لَهُ ، فإنَّا قَدْ آمَنَّا بِكَ وصَدَّقْناكَ ، وشَهِدْنا أنَّ ما جِئْتَ بِهِ هُوَ الحَقُّ ، وأَعْطَيْناكَ عُهودَنا على السّمعِ والطاعةِ ، وما أمرْتَ فيهِ مِنْ أمْرٍ فأَمْرُنا تَبَعٌ لأَمْرِكَ ، فامْضِ يا رسولَ اللهِ لما أرَدْتَ فنَحْنُ مَعَكَ ، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لو اسْتَعْرَضْتَ بنا البَحْرَ فخُضْتَهُ لخُضْناهُ مَعَكَ ، ما تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ واحِدٌ ، وما نكْرَهُ أَنْ تَلْقىٰ بِنا عَدُوَّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ في اللقاءِ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُريكَ مِنَّا ما تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ .. فسِرْ علىٰ بركَةِ اللهِ).

عَلىٰ بَرَكَةِ اللهِ

ويشتدُّ سرورُ رسولِ اللهِ ﷺ ، ويقولُ : [سِيرُوا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ وأَبْشِروا ، فإنَّ اللهَ وَعَدني إحْدىٰ الطّائفتيْنِ : (القافلةَ أو النَّصْرَ علىٰ الأعداءِ) ، واللهِ لكأنِّي أنظرُ إلى مَصارِعِ القَوْمِ] . . أيْ مكانِ مَصْرَعِ زُعماءِ قُرَيْشٍ .

إنَّهُ لجوابٌ جميلٌ مِنَ القائِدِ الحكيمِ ، يبيِّنُ فيه لأصْحابِهِ أنَّهُ سيلْقىٰ مِنَ اللهِ النَّصْرَ .. فإنْ فاتَهُ ما في القافِلَةِ ، فلَنْ يفوتَهُ النَّصْرُ على قريْشٍ . إنَّ رسولَ اللهِ لمْ يطلُبْ أنْ يَسيرَ المسْلمونَ علىٰ بركةِ اللهِ إلا بعْدَ أنْ فعَلوا مَا أمرَهُمُ اللهُ وأَطاعُوا رسولَ اللهِ .. وتابَعَ الجميعُ سيْرَهُم ، وما زالَ الرَّسولُ يكْتُمُ أمْرَهُ عَنِ النَّاسِ الآخرينَ مِنَ القبائِلِ حتّىٰ لا يعرِفَ حقيقتَهُ أحَدٌ ، فأَمَرَ لذلكَ أنْ تُقْطَعَ الأجراسُ مِنْ أعناقِ الإبلِ ، وجعَلَ كُلَّما نَزَلَ مَكاناً يتحسَّسُ أخبارَ قريشٍ في حذَرٍ وحيطةٍ ، وتوفَّرتْ لَهُ المعلوماتُ قريبةً مِنَ الحقيقةِ ، فحمِدَ اللهَ علىٰ ذلكَ .

إلى الحَرْب

وعَلِمَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ قُريْشاً قدِ استعدَّتْ أكبرَ استعدادٍ فقالَ لأصْحابِهِ : (هذِهِ مكَّةُ قدْ ألقَتْ إليكُمْ أفلاذَ كبِدِها) .. وفَهِمَ المسْلمونَ أنَّها الحرْبُ لا محالَةَ .. وأنَّهُ لا بُدَّ مِنْ لقاءِ قريشٍ وهيَ في أقْوى قوَّتِها ، وأعْظَمِ اسْتِعدادِها .

فأينَ ستقعُ الحربُ ؟ ومتىٰ ستَحْدُثُ ؟ وكيْفَ سينتصرُ رسولُ اللهِ على المشْرِكينَ ؟ وما عواقِبُ هزيمةِ قُريشٍ ؟ كلُّ هذا سنَعرفه يا أحبَّتي بالتَّفصيلِ في حلقاتٍ قادمةٍ إنْ شاءَ اللهُ ، ولكُمْ منّي أجملُ تحيَّةٍ ، ولكُمْ مِنَ اللهِ جزيلُ الأجْرِ والثَّوابِ يا أصحابَ القُلوبِ المؤمنةِ الفتيَّةِ والأنْفسِ الطَّاهرةِ الزكيَّةِ التي يَفُوحُ عِطرُها .. وما أطيبَهُ ! ! .

الضربة القاضية



إلىٰ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ

. . وجُمْلَةُ ما عَرَفْناهُ عَنْ موضوعِنا هذا : أَنَّ القافِلَةَ التي يَقُودُها أبو سفيانَ قَدْ نجَتْ مِنْ مُطارَدَةِ محمّدٍ وصحبِهِ لها ، وأَنَّ قُرَيْشاً قَدْ خَرَجَتْ عَنْ بِكرَةِ أَبيها بِخُيَلاءٍ وغُرورٍ تُريدُ سحْقَ محمَّدٍ ودعوتِهِ . وعلمْنا أَنَّ الرّسولَ ﷺ قَدْ قرَّرَ الحربَ ، وأَعْلَمَ أصحابَهُ ، فرضُوا بذلكَ . . ووعَدْتُكُمْ أَنْ أدلَّكُم على موعِدِ ومكانِ ونتيجةِ هٰذهِ الحربِ بعْدَ أَنْ عرفْنا أسبابَها . . ولكنْ أَرْجُو منكم القراءَةَ كما عَهِدْتُكُمْ عَنْ وَعْيٍ تامٍّ .

ها هُوذا رسولُ اللهِ قد نزَلَ قريباً مِنْ ماءِ بَدْرٍ في مكانٍ مشهورٍ بيْنَ المدينةِ ومكَّةَ ، وها هُوذا جيْشُ المشركينَ قدْ أَصْبحَ قريباً مِنْ جنوبِ هٰذا المكانِ ، وسوفَ يتابعُ كُلٌّ مِنَ الفريقَيْنِ مسيرَهُ قليلاً ، حيْثُ سيتمُّ اللِّقاءُ في ساحةِ المعركةِ التّاريخيّةِ .

مَداخِلُ الشَّيْطانِ

لقَدْ كانَ بيْنَ المسلمينَ وبَيْنَ ماءِ بدرٍ مكانٌ صَعْبُ التّجاوزِ ، تَسيخُ فيهِ الأقدامُ . . وظمِئَ المسْلِمونَ وأصابَهُم الجهْدُ ، وأَصْبَحُوا في أَشَدِّ

الحاجةِ لماءِ بدْرٍ أَوْ أَيِّ ماءٍ ، وبدَأَ الشَّيْطانُ يتدخَّلُ ليزعزِعَ النُّفوسَ ، ويصوِّرَ للمسلمينَ أَنَّ الحربَ خاسرةٌ لقِلَّتِهم وقلَّةِ عَتادِهِمْ أَمامَ الجيْشِ القُرشيِّ الجرّارِ ، وَأَنَّ عطَشَ المقاتلينَ سيَجْعلُهُم في ضيقٍ وكربٍ بعدَ المسيرِ الشَّاقِّ والمتعِبِ ، وبدأَتْ تعلُو على أكثرِ الوجوهِ علاماتُ القُنوطِ واليأْسِ ، وكأَنَّ أَصْحابَها توقَّعوا نتيجةً مخزيةً ، وجلْبَ الشَّرِّ على أنفسِهِم ، ناسِينَ ما حَكاهُ رسولُ اللهِ ﷺ لهُمْ وللمسلمينَ أَجْمعينَ مِنْ بشائرِ النَّصْرِ واستبْشارِهِ بهِ . . وَأَنَّ اللهَ بهِمْ لرؤوفٌ رحيمٌ .

نَجْدَةُ السَّماءِ

وأَظُنُّكُم يا أحبَّائي تتصوَّرُونَ كَمْ للماءِ في الصَّحْراءِ مِنْ أَثرٍ كَبيرٍ ، فهُوَ مادَّةُ الحياةِ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يكونَ أَداةً للنَّصْرِ ، والجيْشُ الذي يفقدُ الماءَ في الصَّحراءِ يَفقِدُ أَعْصابَهُ قبْلَ أَنْ يفقدَ حياتَهُ ، ويدْخُلُ أفرادُهُ المعركَةَ بنفوسٍ قَلِقَةٍ مُزَعْزَعَةٍ مهزومَةٍ مِنْ داخِلِها . واللهُ يَعْلَمُ ما حلَّ بعبادِهِ الصّالحينَ ، وهُوَ الرَّؤوفُ الكريمُ ، ففتَحَ عليهِم بابَ السَّماءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وصَحَتِ القلُوبُ الظّامِئَةُ على نَجْدَةِ السَّماءِ ، فَشَرِبُوا ، واغتَسَلوا ، وتَطَهَّروا ، وملؤوا أَوعيَتَهُم ، وسقَوا الإبلَ والدّوابَّ ، وتلَبَّدَ الرَّمْلُ تحْتَ أقدامِهِم في ذلكَ المكانِ الذي كانَتْ تَسيخُ فيهِ الأقدامُ ، فَسَهُلَ السَّيْرُ ، وارْتاحَ المسلمونَ مِنَ التَّعبِ ، وأَرْسَلَ اللهُ علىٰ عُيونِهِم مَوْجَةً مِنَ النُّعاسِ

فناموا ، ثُمَّ نَهَضُوا بعْدَ فترةٍ آمنينَ بعْدَ خَوفٍ ، مطمئنّينَ بعْدَ قلقٍ ، ثابتينَ بَعْد خَورٍ . .

انْقِسامُ قُرَيْشٍ

وأمَّا جُنْدُ قريشٍ ، فَقَدْ زيَّنَ لهمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ وقالَ : ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ ، أيْ : معينٌ . . فتابعوا سيْرَهُمْ مُغْتَرِّينَ بقوَّتِهم ، وجاءَهُم الخبرُ بأنَّ أبا سُفيانَ قَدْ نَجا حقّاً بقافلتِهِ وأنّهُ الآنَ في طريقِهِ إلىٰ مكَّةَ قَدْ سَلِمَ بأمْوالِ قريْشٍ ، وعندَها رَغِبَ كَثيرٌ مِنَ الجيْشِ في الرُّجوعِ دونَ مقاتَلَةِ محمَّدٍ ، لاقْتِناعِهِم بأنَّ الحقَّ مَعَ محمَّدٍ وصحبِهِ ، وأنَّ الذي نَجَّىٰ المسلمينَ منْهُم في مكَّةَ قبْلَ الهجرَةِ سوْفَ ينجيهم إذا ما حَدَثَ قتالٌ. لكنَّ أبا جهلٍ ركبَ رأسَهُ ، وصَعُبَ عليه الرّجوعُ ، وقالَ : (واللهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى نرِدَ وادِيَ بَدْرٍ ، فنقيمَ ثلاثةَ أيّامٍ ، نَنْحَرُ فِيها الجزُورَ ، ونُطْعِمُ الطَّعامَ ، ونَسْقي الخَمْرَ ، وتعْزِفُ لنا القِيانُ ، وتسمَعُ العربُ بِنا وبِمَسِيرِنا وجَمْعِنا ، فلا يَزالون يهابوننا أبداً) . ثمَّ جعلَ يُحرِّضُ النَّاسَ على المسيرِ . . وَهُوَ أدْرىٰ مِنْ غيره برعايةِ اللهِ لرسولهِ ﷺ . .

إِشارَةُ الحُبابِ

القافِلَةُ قَدْ نَجَتْ ، ولمْ يكُنِ الفريقان بحاجةٍ إلى قتالٍ بعْدَ ذلكَ ، ولكنَّ اللهَ قَدْ جمَعَهُما على غَيْرِ مَوْعِدٍ ، ودَبَّرَ بَيْنَهما أسبابَ اللِّقاءِ المتفاوِتِ

في العَدَدِ والعُدَّةِ ، وللهِ حِكْمَةٌ يريدُها ليضَعَ حدّاً لِعُتوِّ الظَّالمينَ وبغْيِهِمْ ، واللهُ غالبٌ على أمْرِهِ . ويقْتَرِبُ الحُبابُ بْنُ المنذِرِ ليَعْرِضَ خِبْرَتَهُ ومَشورَتَهُ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، ويقولَ : يا رسولَ اللهِ ، الأفضَلُ أنْ تَنْهَضَ ونسيرَ حتَّى نَأْتِيَ ماءَ بَدْرٍ الذي يَقْرُبُ مِنْ مَكَّةَ (أَيْ إلى الجنوب مِنَ المكانِ) ، فأَنا أعْرِفُ غَزارَةَ ذاكَ الجانِبِ ، وعِنْدَما نَصِلُ وننْزِلُ هُناكَ ، نَهْدِمُ بقيَّةَ الآبارِ ، ونَبني حَوْضاً نملؤُهُ بالماءِ لنشرَبَ ، ولا يشْرَبُ المشركونَ ، وسُرَّ رسولُ اللهِ بهذا الخبرِ ، وسارَ لينفِّذَ ما أشارَ به الحُبابُ ، وهُوَ يقُولُ لَهُ : (لقَدْ أشَرْتَ بالرَّأْيِ) . ووصَلَ الجمْعُ المؤمنُ ، وهُدِّمتْ بقيَّةُ الآبارِ ، وبُنِيَ الحَوْضُ .

الصَّبْرُ يا قَوْمُ

وكانَ ﷺ أوْثَقَ النَّاسِ إيماناً بنصْرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فكلَّما صَلَّى بِالنَّاسِ ذَكَّرَهُمْ بِالصَّبْرِ ، وأَنْ يَثِقُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَحِمايَةِ اللهِ لَهُمْ . .

. . وقامَ الرَّسولُ يسوِّي الصُّفوفَ ، ويتفقَّدُ الرِّجالَ ، ويهيِّئُ الأَصْحابَ نَفْسِيّاً لِلْقِتالِ ، فَخَطَبَ فيهِمْ قائِلاً : (أَمَّا بَعْدُ ، فإنَّني أَحُثُّكُمْ علىٰ ما حَثَّكُمُ اللهُ عَلَيْهِ ، وأَنْهاكُمْ عَمَّا نَهاكُمْ عَنْهُ ، فإنَّ اللهَ عظيمٌ شأْنُهُ ، يَأْمُرُ بالْخَيْرِ ، ويحبُّ الصِّدْقَ ، ويُعْطي الخَيْرَ أَهْلَهُ علىٰ منازِلِهِمْ عِنْدَهُ ، وإنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ بمنزِلٍ مِنْ مَنازِلِ الحَقِّ ، وإنَّ الصَّبْرَ في

مَواطِنِ البَأْسِ مِمَّا يُفرِّجُ اللهُ بِهِ الهَمَّ ، وَيُنجِّي بِـهِ مِنَ الغَمِّ ، وتُـدْرَكُ بِهِ النَّجاةُ في الآخِرَةِ . . وإنَّما أنـا وأنْتُم بـاللهِ الحيِّ القَيُّومِ ، إليْـهِ أَلْجَأْنـا ظُهُورَنا ، وبِـهِ اعْتَصَمْنا ، وعَلَيْـهِ تَوَكَّلْنـا ، وَإليهِ المصيرُ ، يغفرُ اللهُ لي ولِلْمُسْلِمينَ ، اللَّهمَّ فَنَصْرَكَ الذي وعَدْتَني) .

أَطِيعوا أَبا الْوَلِيْدِ

وأصبَـحَ المُسْلمونَ عَلى أُهْبَـةٍ رائِعَـةٍ ، ومنظرٍ شبيهٍ بمنظرِ الأُسُـوْدِ المُسْتَعِدَّةِ للهجومِ الكاسِحِ . . وعَلِمَ المُشركونَ بذلكَ . فدَبَّ الخَوْفُ في صفُوفِ أَشرافِهِمْ مِنْ جديدٍ ، وتَعاظَمتْ في أَعيُنِهمْ هيبَةُ المؤمنينَ ، وقامَ أَبـو الوليـدِ عُتْبَةُ بْـنُ رَبيعة ، كبيرُ قُرَيْشٍ وَسيِّدُها ، فقـالَ : (يا قَـوْمِ أطيعوني ، ولا تقاتِلُوا هٰذا الرَّجُلَ وأَصحابَهُ ، ويا قومِ إنَّكُمْ لَنْ تَخْلُصوا إلىٰ قَتْلِهِـم حَتَّـى يُصيبـوا منكُـم عددَهُـم ، ولا آمَـنُ أَنْ تكـونَ الغَلَبَـةُ عليكُمْ ، يا قَوْمِ ، إنْ يَكُ محمَّدٌ كاذِبـاً كَفاكُموه غيرُكُم ، وإنْ يَكُ صادِقاً كُنتُمْ أَسعَدَ النّاسِ بِهِ ، يا قَـوْمِ لا تَرُدُّوا نَصِيحتي ، ولا تُسَفِّهُوا رَأْيي) ، ولَمْ يسمع أَبو جهلٍ كلامَ أَبي الْوليدِ بَلْ قَالَ مُسْتَسْخِفاً : (لقَدْ خافَ أبو الوليدِ على ابْنِـهِ الذي أَسْلَمَ مَعَ مُحمَّـدٍ أَنْ يَمُوتَ اليَوْمَ . . لا لَنْ نَـرْجِعَ حَتَّى نقاتِـلَ محمَّداً وأَتْباعَهُ ونبيدَهُـم ، ونَضَعَ حَدّاً لدَعْـوتِهم وَخَطرِهم عَلَينا) .

أَخْرِجْ أَكِفَّاءَنا

وانطلقَتْ نُقْطَـةُ الشَّرِّ والبدايةِ مِـنَ المشركينَ ، فخَرَجَ عُتْبَـةُ بَعْدَ أَنْ أغاظَهُ كلامُ أبي جهلٍ ، واندفعَ مِنَ الصَّفِّ مَعَ أَخيهِ شيبةَ وابْنِهِ الوليدِ ، ودَعا إلى المبارزَةِ قائِلاً : (يا محمَّـدُ ، أَخْرِجْ لَنـا أَكِفَّاءَنا) ، فـأَخرجَ لهمُ الرَّسـولُ ﷺ ثلاثَةً مِنْ أصحـابِهِ الأشِدَّاءِ بَـلْ ومِنْ أَقاربِهِ ليكُـونَ قدوَةً للأُسَرِ المسلمةِ الباقيةِ ، إنَّهمْ : (حَمْزَةُ عَـمُّ رسولِ اللهِ ، وعليٌّ وعُبَيْدَةُ ابنا عَمِّيهِ أَبي طالبِ والحارِثِ) . وتبارَزَ الثَّلاثَةُ مَعَ الثَّـلاثَةِ ، ولمْ يَلْبَثْ أَنْ قتَلَ حمزةُ شيبَةَ ، وقتَلَ عليٌّ الوليدَ ، أما عتبةُ وعبيدَةُ فقد ضربَ كُلُّ واحِدٍ منهُما الآخَرَ ضربَـةً مؤلمةً ، فوقَعـا على الأرْضِ ، وكَرَّ حمزةُ وعليٌّ بسَيْفَيْهما على عُتْبَةَ ، وأَجْهَزا عليْهِ ، وقتلاهُ ، وحَملا عبيدَةَ إلى رَسولِ اللهِ ، وقَدْ نَزَفَ الدَّمُ مِـنْ ساقِـهِ المقْطوعةِ ، وبَعْدَ هذهِ البدايةِ المرَّةِ ، هجَـمَ المشركون مُغْتاظينَ على صُفوفِ المسلمينَ بُغْيَةَ سَحْقِهِمْ .

وَحَمِيَ الْوَطِيسُ

ويأْمُـرُ رسولُ اللهِ ﷺ أَصْحابَهُ أَنْ يكسِّروا هجماتِ المشركينَ بـالنِّبالِ دُونَ أَنْ يتحرَّكوا مِنْ أَماكنِهم ، ولَمَّا أَوْشكَ الصَّفَّانِ أَنْ يتلاحَما أَمَرَ القائِدُ الحكيمُ أَصحابَهُ أَنْ يَهْجموا هَجْمةَ رجلٍ واحِدٍ ، ونَاداهُمْ : والذي نفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ ، لا يُقاتِلُهُم اليَوْمَ رَجُلٌ فيُقتَلُ صابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ ،

إلا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّـةَ ! !) . وحَمِيَ الـوطيـسُ ، وهجـمَ المسلمـونَ على المشركينَ بقلوبٍ مِلْـؤُها الإيمانُ بالحقِّ وحُبِّ الجنَّـةِ ، والطَّمعُ في النَّصْرِ وثوابِ اللهِ تبـاركَ وتعالىٰ ، هَـدَفُهُمْ رُؤُوسُ الكُفـرِ والكُفَّارِ ، يتصيَّـدونَ الطَّواغيتَ الكبارَ وسْطَ الجموعِ ، وهُمْ يتصايحُونَ تصايُحَ الأُسُودِ : (يا مَنْصُورُ ، أَمِتْ أَمِتْ) أَيْ : يا رَبَّنا لا تُبْـقِ مِنَ الباغِينَ الطُّغاةِ واحِداً . . وما أَعْظَمَها مِنْ مَلْحَمَةٍ ومعـركةٍ ! سَتَفْصِلُ بإذنِ اللهِ ، وتُفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطِلِ تَفْريقاً واضِحاً يَراه الجميعُ . .

هَبَّتْ رِياحُ الجَنَّةِ

وهبَّتْ على المؤمنينَ رِيـاحُ الجنَّةِ التي تُحِبُّهـم وتُخَيِّمُ عليهم ، فهـانَتْ عليهم الحَيـاةُ ، وجَعَلَتْهم يَـرَوْنَ الشَّهادةَ مَطْمَحاً لَذِيذاً ، فـاسْتَعجلوا الموتَ غيْرَ خائِفِين ، ورَمىٰ أَحَدُهُمْ وهُوَ عُمَيْرُ بنُ الحمامِ تَمَراتٍ كانَتْ في يدِهِ ، وهُوَ يقولُ : (أَفَما بَيْني وبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الجنَّـةَ إلاَّ هَذِهِ التَّمراتُ ؟ إنَّها لحياةٌ طويلةٌ إنْ حَيِيتُ حَتَّى آكُلَها . .) واندَفَعَ كـالسَّيلِ ، وأَسْمَعَ صَيْحَتَهُ للمسلمينَ مِنْ حَوْلِهِ ، وهُوَ يقولُ مُرْتجِزاً أَحلىٰ أَشعارِ الرَّجَزِ :

رَكْضـاً إلى اللهِ بغَيْرِ زادِ
إلا التُّقـى وعَمَـلَ المعـادِ
والصَّبرَ في اللهِ علىٰ الجِهـادِ

وكُـلُّ زادٍ عُـرْضَـةُ النَّفَـادِ
غَيْرَ التُّقـىٰ والبِرِّ والـرَّشـادِ

فأَلْهَبَ القُلُوبَ حُبّاً في الشَّهادَةِ . . والجنَّةِ . . والمغفرةِ .

جُنْدٌ مِنَ السَّماءِ

ويَشْعُرُ المسلمـونَ شعوراً غريباً ، إنَّ يَـدَ المقاتِلِ مِنْهُـم لتعادِلُ عشرَةَ أَيْدٍ بعشرَةِ سُيـوفٍ فما السِّرُّ ؟ الرؤوسُ تتدحْـرَجُ أمامهـم ، أينما ضرَبُوا سُيُوفَهم أَصابَـتْ ، وأنَّى رموا رَميتَهُم نالُوا مُرادَهم ، إنَّـه جوٌّ رهيبٌ ملأَ قلوبَ المشركِينَ رُعْباً بقَدرِ ما ملأَ قُلـوبَ المؤمنِينَ قُوَّةً وثباتاً ، ماذا جَرَىٰ حتَّى ازدادَتِ الحماسـةُ ، وارْتَفعَتِ الجراَةُ ، وتضاعفَتِ القـوَّةُ النفسيَّةُ ؟ مَنِ الذي يُقَاتِلُ مَـعَ المسلمينَ يا ربَّ المسلمينَ ؟ إنَّ رؤوسَ الكُفْرِ التي كانَ يَصْعُبُ الاقترابُ مِنْهـا لتتناثرُ الآنَ كالحصىٰ ، تتقـاذَفُها الأقدامُ ، وتَدُوسُهـا النِّعالُ!! يا لَقُدْرتِـكَ يا ربِّ ! ! . إنَّكَ ولا شكَّ قَـدْ أمددْتَ جُنْدَكَ في الأَرْضِ بجُنْـدٍ مِنَ السَّماءِ ، وجعلْتَ التَّكبيرَ والتَّهليـلَ يَعْلُو مِنْ أَلْسنةِ المؤمنينَ دُونَ خَوْفٍ ولا وَجَلٍ . .

تَحْرِيضٌ وَدُمُوعٌ

الرَّسـولُ يتابعُ المعـركَةَ ، وقلْبُهُ متعلِّقٌ بـاللهِ عَزَّ وجلَّ ، تـارةً ينزِلُ إلى وسْطِ المَعْمعَـةِ ليقوِّيَ القُلوبَ ، ويحثُّ على القتالِ ، ويحرِّضُ الصَّحابَةَ

الكِرامَ ، وتارةً يرفَعُ يديْهِ إلى السَّماءِ ، يدْعو ، ويستغيثُ : (اللهمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذهِ العِصابَةُ لا تُعبدُ بَعْدَها في الأَرْضِ ، اللَّهمَّ نَصْرَكَ الذي وَعَدْتني ، اللَّهمَّ أَرْعِبْ قُلُوبَهُمْ ، وَزَلْزِلْ أَقْدامَهُمْ) . . ولا ننسىٰ يا أحبتي أنَّهُ دعا ودعا كثيراً حتَّى سقَطَ رداؤُهُ عَنْ منكبيهِ ، فجعَلَ أَبو بكرٍ يُسوِّي الرِّداءَ ، ويقولُ للرَّسولِ ﷺ مُشْفِقاً عَلَيهِ : (يا نبيَّ اللهِ أَشْفِقْ على نَفْسِكَ ، فإنَّ اللهَ مُنْجزٌ لَكَ ما وَعَدَكَ) . .

إنَّهُ المرَبِّي الكبيرُ الذي يُربِّي على التَّوكُّلِ الحقيقيِّ مَعَ العَمَلِ والثَّباتِ . . ومَعَ الدُّموعِ والتَّحريضِ ، ومَعَ الدُّعاءِ والتَّثبيتِ ، إنَّهُ لا يشكُّ بأنَّهُ مَنْصُورٌ مِنَ اللهِ ، لكنَّهُ يُعلِّمُنا أنَّ المؤمنَ دوماً يستغيثُ باللهِ وحدَهُ .

أَبْشِرُوا يا مُسلمين

وَما هيَ إلا دقائِقُ حتَّى أخذَ الرَّسولُ يُنادي مستبشراً : [أَبْشِرْ يا أَبا بكرٍ . . أَتاكَ نَصْرُ اللهِ ، هَذا جبريلُ آخذٌ بِعنانِ فرسِهِ يَقودُهُ على ثَنايا النَّقعِ] أَيْ : على غُبارِ المعركةِ ، ويَفرح الصِّدِّيقُ لأنَّ الهمَّ قَدْ زالَ عَنْ رَسولِ اللهِ ، وعادَ إليْهِ اطمئنانُهُ واستِبْشارُهُ ، وسارَ مَعَ الرَّسولِ يشدُّ العزائِمَ ، ويردِّدُ بُشْرىٰ الرَّسولِ قائِلاً : (شُدُّوا . . سَيُهْزَمُ الجَمْعُ)

فحمَلَ المسلمونَ عَلَيْهِم حَمْلَةً صادقةً على مرأىً مِنْ جُنْدِ السَّماءِ ، وزرَعوا النَّصْرَ أمامَ أعينِهم ، فعَددُ القتلىٰ مِنَ المشركينَ قَدِ ارْتَفَعَ ، وعددُ

الأَسْرى قَدِ ازدادَ ، وجموعُ الشِّرْكِ تتصدَّعُ وتَنْهارُ قُواها أَمامَ ثباتِ المسلمينَ ورَباطة جأْشِهِم.. أَبشروا يا مُسلمونَ . . وَهَنيئاً لمحمَّدٍ ﷺ ، ولْيَفْرَحْ أَتْباعُهُ على نتيجةِ معركةٍ حاسمةٍ فاصلةٍ .

وَانْتَهَتِ المَعْرَكَةُ

ولَيْسَ أَمامَ مَنْ بقيَ مِنَ المشركينَ إلا الهربُ والفِرارُ بَعْدَ أَنْ ماتَ أَشرافُهم ، وأُسِرَ أَسْيادُهُمْ ، وملأَ الرُّعبُ قلوبَهُم ، فأَخذوا يُلْقونَ أَثْقالهم، ويولُّونَ وُجُوهَهُم تجاهَ مَكَّةَ هاربينَ ، ليَنْجُوا بأنفسِهم مِنْ مَوْتٍ مخيفٍ . . وانْقَشَعَ الغبارُ ، وانْجَلَتِ المعركَةُ وانتهتْ ، وأَخَذَ بعضُهُم يُحْصي النَّتائجَ بعدَ هَذا النصرِ العظيمِ . . سبعونَ قتيلاً مِنَ المشركينَ ، وسبْعُونَ أَسيراً . . !! وغَنائِمُ لا تُحْصىٰ مِنَ الزَّادِ والمتاعِ والعتادِ الحربيِّ! . .

وأَمَّا مَنْ فازَ بالشَّهادةِ مِنَ المؤمنينَ فعَدَدُهُم قليلٌ . . أَرْبعَةَ عشَرَ شَهيداً . . كَانَ لهُمْ أَثرٌ كبيرٌ ولا شكَّ في المعركةِ نَحْوَ النَّصرِ ، فَهُمُ الذين شارَكوا في قَتْلِ أَكْثرِ أَسْيادِ الكُفْرِ والطَّواغيتِ مِنْ قُرَيْشٍ . . ثُمَّ استُشْهِدُوا . . الحمدُ للهِ . . ودوماً الحمدُ للهِ . . ورضيَ اللهُ عَنْ كلِّ الأبْطالِ مِنَ الشُّهداءِ والمنتصرينَ . .

✻ ✻ ✻ ✻ ✻ ✻

قصص
السيرة النبوية
٣٥

دروس من بدر

أَرْقامٌ لِلْحِفْظِ

في يـومٍ واحدٍ بـدأَتْ غزوةُ بَدرٍ وانتهـتْ ، فشَرارَتُها قَدِ اشتعلتْ في صَباحِ اليومِ السَّابعِ عَشَرَ مِنْ رمضانَ مِـنَ السَّنة الثَّانيةِ للهجـرةِ ، وانتهتْ في عصرِ ذلكَ اليومِ . علينْا يا أحبَّتي أَنْ نَحفَـظَ بعْضَ الأرقَامِ الهامَّة في إحصَائيَّات وقعةِ بدرٍ الكبرى .

١ – التّـاريخُ : السـابع عشر من / رمضـان / مـن السنـة الثانيـة للهِجْرَةِ . .

٢ – عـددُ المسلمينَ (٣١٠) مقـاتلينَ ، فيهمْ سبعـون مُهـاجـراً و (٢٤٠) أنصارياً بقيادةِ الرَّسُول محمد ﷺ .

٣ – عددُ الكافرينَ ألف مقاتلٍ بقيادة أبي جهل الذي لقي حَتْفَهُ في بدايةِ المعركةِ . .

٤ – قَتْلى الكافرينَ سبعون قتيلاً .

٥ – أَسْرىٰ الكافرينَ سبعون أسيراً .

٦ – شهداءُ المسلمينَ أربعةَ عَشَرَ شَهيداً .

النتيجةُ : نصرٌ عظيمٌ للمسلمينَ ، وهزيمةٌ نكْراءُ لقريشٍ الكافرةِ .

دَفْنُ الشهداءِ

ومـا أَنِ انتهتِ المعـركَةُ حَتَّـى أَمَـرَ رسولُ اللهِ أَصْحـابَهُ الأحبَّـاءَ ، أَنْ يَتعاونوا في دَفْنِ الشُّهداءِ مِنَ المؤمنينَ ، وأَنْ يُوارُوا القَتْلَىٰ مِنَ المشْركينَ في بئرٍ مهجـورةٍ ، لا ماءَ فيها ، فنفَّـذ الصَّحابـةُ الكرامُ هٰذا ، وهُـم يبكُون شهداءَهُـمْ بِدمعَة حُـزْنٍ على فِراقِهِـمْ ، ودمْعَةِ فَرَحٍ على استشهـادِهِم ودخُولِهمُ الجنَّـةَ خالدِينَ فيهـا . ويقتربُ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ مكـانِ دفْنِ القتْلَىٰ مِنَ المشركينَ ، ويقولُ بصوتِه مُشيراً إلى البئْرِ : [هَلْ وجـدْتُم ما وعَـدَكمْ ربُّكُـمْ حَقَّاً ؟ فإنِّي وجدْتُ مـا وعَدَني ربِّي حَقَّـاً] ، فقالَ لَـهُ أصحابُهُ : يا رسولَ اللهِ أَتُكلِّمُ قَوْمـاً مَوْتىٰ ؟ فقال لَهُمْ : [لقَدْ علِمُوا أَنَّ ما وَعَدَهُمْ ربُّهم حقٌّ ، وما أنتم بأسمَعَ منهم] . ليؤكِّدَ أنَّهم يَسْمَعُونَهُ، ثمَّ بعثَ الرّسولُ اثنينِ مِنْ أَصْحابِـهِ وهُما : (زيدُ بْنُ حارِثَةَ وعَبْدُاللهِ بنُ رواحَةَ) إلى المدينةِ ، ليبشِّرا أَهْلَها الباقينَ فيها بالنَّصْرِ الذي جاءَهم مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالىٰ .

عِتابُ المسلمينَ

وكانَتِ الغنائمُ التي غنمَهـا المسلمونَ كثيرةً ، فاختلفَ المسلمونَ في الأحقِّيةِ بهٰذِهِ الغنـائمِ دونَ أَنْ يَسْأَلـوا رسُولَ اللهِ ﷺ على ذٰلـكَ ، ونَسُوا بـأَنَّ نظامَ الجاهليَّـةِ قد ولّىٰ ، وأَنَّ الإسـلامَ إنَّما يُشَرِّعُ نظامـاً مستقلاً بـهِ حَتَّىٰ في أُمُورِ الحربِ والغنائِمِ . لقدِ ادَّعىٰ المقاتِلُونَ أَنَّهم أَحقُّ بالغنائِمِ،

وادَّعى مَـنْ جَمَعَها أَنَّهم أَحَـقُّ بها ، وادَّعى مَـنْ كانَ يحرسُ الـرّسولَ أَنَّ غيرَهُمْ لَيْس أَحَقَّ بِها منْهُم ، واحتكموا أَخيراً إلى رسـولِ اللهِ ، بعْدَ أَنْ كانَ يَحْسُنُ بهمْ فِعْلُ ذلكَ مِنْ قبلِ الادِّعاءِ والاختلافِ فيما بَيْنهم ، فأَمَر رسولُ اللهِ النَّاسَ أَنْ يـردُّوا كُلَّ ما في أَيْديهِمْ مِنَ الغنـائِمِ ، ويجْمعوها في مكانٍ واحـدٍ ، حَتَّى يقضيَ اللهُ فيها بقضـائِه . ونَزَلَ العِتـابُ مِنَ السَّماءِ بِأَنَّ المؤمنَ لا يليقُ بِهِ هٰذا المستَـوى مِنَ الخصامِ ، والأَهَمُّ أَنْ يَزْدادَ إيماناً بنَصْرِ اللهِ الذي حصَلَ الآنَ .

تَقْسِيمُ الغَنَائِمِ

والجميلُ أَنَّ الرسولَ قَدْ قَسَّمَ الغنائمَ أخيراً بطريقةٍ رضيَ فيها الجميعُ وانتهىٰ خصـامُهم ، فلقَـدْ نالَ كـلُّ فارسٍ مِقْداراً يقنعهُ مَعَ فرسِـهِ ، وجُعلتْ حِصَّـةُ الشُّهداءِ إلى وَرَثتِهِم ليتدارَكوا أَمرَ عيالاتِهِمْ ، وَوُزِّعَ بعضُها على الذينَ أَرْسَلَهم رسولُ اللهِ مكلَّفينَ بأعمالٍ عن أعمالِ القِتالَ. وعلى الذينَ حجزَهُمْ عَنِ القتالِ عذرٌ قاهرٌ قبلَهُ منهم رسولُ اللهِ ﷺ . . وتعجَّبَ بعضُهـم أَثْناءَ توزيـعِ الغنائمِ ، فقـالُوا : يا رسـولَ اللهِ أَتُعْطي القـويَّ فينا مِثْلَ الضَّعيـفِ ؟ فردَّ عليهـمُ الرّسولُ بقـانـونِ التَّكافُـلِ الاجتماعيِّ : (وهَلْ تُنْصَرُونَ إلا بضُعَفائِكُمْ ؟) لقدْ نبَّهَهم رسولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ أَمْرَ قوةٍ وضعـفٍ فحسبُ ، إنَّما هُوَ قَبْلَ ذلكَ تضامنٌ وتعاونٌ وائتلافُ قلوبٍ .. عنـدَها اقتنـعَ الجميعُ ، وازدادَ إيمانُهم حقّاً وصدْقاً . .

استِعْراضُ الأَسْرىٰ

وبعدَها قامَ الرّسولُ ﷺ باستعراضِ الأَسْرى مِنَ المشركينَ في الطَّريقِ إلى المدينَةِ ، فأَمَرَ بقَتْلِ اثنَيْنِ منهُمْ وهُما (النَّضرُ بْنُ الحارثِ وعُقْبَةُ بْنُ أَبي معيطٍ) وهُما مِنْ رؤساءِ الكُفْرِ الذينَ آذَوا رسولَ اللهِ كثيراً في مكَّةَ ، وعَذَّبوا أَصْحابَهُ . . والحقيقةُ أَنْ أَكثَرَ الأَسْرىٰ يستحقُّونَ القَتْل ، لأَنَّهم أَعْلنُوا الحربَ ضِدَّ رسولِ اللهِ وأَتْباعِهِ ، لكنَّ صاحبَ القَلْبِ الرَّحيم استشارَ أَصْحابَهُ ، فقالَ أَبُو بكرٍ : يا رسولَ اللهِ . . استَبْقِهِمْ لعلَّ الله أَنْ يَتُوبَ عليهِمْ . وقالَ عمرُ : يا رسولَ الله . . أخرجُوكَ ، وكَذَّبوكَ ، فَاضْرِبْ أَعناقَهم . ورضيَ الرّسولُ بالفِداءِ ، واستبْقاهُمْ ، فعاتَبَ اللهُ رسولَهُ على أَنَّهُ فَضَّلَ الفِداءَ على قَتلِ الأَسْرى ، فبَكىٰ الرّسولُ ومعه أَبو بكرٍ وتَمَنَّى لَوْ أَخَذَ برأْيِ عُمَرَ . وافْتَدىٰ الأَسْرىٰ أَنْفُسَهم بمالٍ أَوْ بتعليمِ الواحدِ منهمْ عشرَةً مِنْ صِبْيانِ المسلمينَ الكتابَةَ ، وأُعْفِيَ الفقراءُ مِنَ المالِ ، وعادوا إلى مَكَّةَ . .

سُؤالٌ هامٌّ ؟

وقَدْ يسأَلُني بعضُكُمْ : وماذا عَنْ أَبي جَهْلٍ ؟ والجوابُ يا أَحبّتي أَنَّ رأَسَ الكُفْرِ وقائدَ الجيشِ المشركِ أَبو جهلٍ قدْ كانَ مِنْ أَوّلِ المقْتولين في معركَةِ بدرٍ ، وقَدْ تعاونَ في قتْلِهِ بَطلان صغيرانِ مؤمنانِ مثلكُمْ ، وقدْ أَطْفأ غرورَهُ سكّينٌ صغيرةٌ تحْملها أَنامِلُ البطلين وهما معاذٌ ومعوّذٌ ، ثُمَّ

وقَعَ رأْسُ الجهالةِ أَرْضاً ، ومَرَّ بهِ عَبْدُاللهِ بنُ مَسعودٍ ، ذلكَ الفدائيُّ الشّابُّ الذي قَرَأَ على المشركينَ سُورَةَ الرحمَنِ في مكَّةَ دُونَ خوفٍ ، ورَأَىٰ أَبا جهلٍ مسطَّحاً على ظَهْرِهِ ينْزفُ دَماً ، وتذكَّرَ يَوْمَ سورةِ الرحمنِ ، حيْثُ أَنَّ أَبا جهلٍ قَدْ شرَمَ أُذُنَ عَبْدِ اللهِ بَعْدَ قراءَتِها . والآنَ يمدُّ عَبْدُ اللهِ يدَهُ بخنْجَرِه ، ويقْطَعُ عُنُقَ أَبي جَهلٍ قائلاً : الحمدُللهِ الذي أَخزاكَ يا عَدُوَّ اللهِ ، ويحملُ الرأْسَ إلى رسولِ اللهِ الذي فرِحَ وحمدَ اللهَ ، وأَشارَ إلى رأْسِ أَبي جهلٍ مُبْتَسِماً فالأُذُنُ بالأُذُنِ والرَّأْسُ زيادَةٌ ، ثمَّ قالَ : (هٰذا كانَ فرعونَ هذِهِ الأُمَّةِ) .

لماذا حَدَثَ ذلكَ ؟

والأَهَمُّ مِنْ مَوْت أَبي جَهْلٍ هُوَ : (لماذا انهزمَ أبو جهلٍ ، ولماذا هرَبَ الجيشُ الكافرُ تاركاً جثّةَ قائدِهِ ؟) ستقولونَ : لأَنَّهم خرَجُوا مِنْ مَكَّةَ ، ثُمَّ وصَلوا إلى بدْرٍ مُفكّكينَ لا تربطهُمْ قيادةٌ واحدَةٌ ، ولا يجمعهُمْ رأْيٌ واحدٌ ، وظهر التَّفكُّكُ مرّتينِ اثنتينِ : بعدَ أَنْ علمُوا بنجاحِ القافلةِ ، وبعْدَ أَنْ رأَوا المسلمينَ مُسْتَهينينَ بالموتِ . وهَكَذا دَخَلوا المعركةَ مُضْطربينَ ، بنفوسٍ مشحونةٍ بالحقدِ فيما بيْنهم ، أَمَّا المسلمونَ فقَد انْتَصروا لأَنَّهُمْ تحْتَ قيادةٍ حكيمةٍ رحيمةٍ محبَّبةٍ إلى القلوبِ ، لا فرْضَ لرأْيٍ بالعنفِ والاستكبارِ كما فَعَلَ أَبو جهلٍ ، ومِمَّا ساعدَ على النصرِ والثَّباتِ والجراَةِ ما قامَ بهِ الرّسولُ مِنْ تَخْطيطٍ للمعركةِ ومُشاورةِ

لأصحابِهِ ، كما أَسْهَمَ في ذلكَ طاعَةُ الصَّحابةِ لَهُ ، وعلى الرّغمِ مِنْ قلَّةِ العددِ ، إلا أَنَّ القلّةَ اعتمدتْ على أنَّ النّصرَ مِنْ عندِ اللهِ ، واسْتَبْشَرتْ بعونِهِ مِنَ الملائِكَةِ . .

أَحْوالُ النَّاسِ

لقدْ كانَتْ غَزْوةُ بدرٍ عميقَةَ الأثرِ في كُلِّ النُّفوسِ :

١ - فالمسلمونَ في المدينةِ قَدْ أَصْبحوا لا يُبالون بقُوَّةِ أَعدائِهم التي يتبجَّحونَ بها . ٢ - والمسلمونَ في مكَّةَ أيقَنُوا أَنَّ يومَ الخلاصِ لَمْ يَعُدْ بَعيداً ، فَثَبَتُوا على إيمانِهم . ٣ - والرّسولُ ﷺ ، أَصْبحَ على حذرٍ مِن انتقامِ أَعْدائِهِ مِنْ حَولِه . . ٤ - وخافَ بَعْضُ المشركينَ في المدينةِ ، فأَظْهَرُوا الإسْلامَ وأَضْمَروا الكُفْرَ ، وكَثُرَ عَدَدُهُم ، وقَدْ عرفَهُم الرّسولُ ، وأَشْعَرَهُمْ أَنَّ نِفاقَهُمْ لا يَرُوجُ أمامَ فِطنَتِهِ ووَحْيِ اللهِ . ٥ - وأَمَّا مُشْركو مكَّةَ فقَدْ عَرَفُوا أينَ مكانُهم الآنَ في جزيرَةِ العَرَبِ . ٦ - وحَزِنَ اليهودُ مِن انتصارِ المسلمينَ ، وخافُوا مِنْ أَنْ تَقْوى شوكَةُ الرّسولِ أَكْثَرَ ، فَغَلَى حسدُهُمْ وحِقْدُهُم ، وأَخَذُوا يعملُونَ في طَريقٍ شيطانيَّةٍ جديدةٍ ، وكأَنَّهُمْ يحْفِرون قبورَهُم بأَيْديهمْ .

مُجاهرةٌ بالعداوَةِ

لقدْ كَرِهَ هؤلاءِ اليهودُ رُؤْيَةَ الأمنِ يَسْري في المدينةِ ، وأَحَبُّوا أَنْ يُثْبِتوا حقْدَهم وغيْظَهم ، فَقَلَبوا علاقَتَهم مَعَ المسلمينَ إلى عداءٍ ظاهرٍ ،

وتطوَّرَ ذلكَ ، واسْتحكمَ بِهم حبُّهم للمنافِعِ الدنيويَّةِ العاجلَةِ التي تَجْلبُ لَهُمُ المكانَةَ والزَّعامَةَ ، وأَخَذُوا بعْدَ غَزْوَةِ بدْرٍ يكيدونَ للإسلامِ ، ويأْتمرونَ بِهِ ، ويعملونَ للقضاءِ عليهِ بكُلِّ ما لَدَيْهم مِنْ وسائِلَ ، وما يستطيعونَ مِنْ مكرٍ وخداعٍ . وأَوَّلُ مَنْ جاهَرَ بالعداوَةِ منهُمْ (بَنُو قَيْنقاع) ، وهُمْ أَشْجَعُ اليهودِ وأَقْرَبُهم إلى المسلمينَ مسْكَناً ، ومِنْ بَينهم (كَعْبُ بْنُ الأَشْرفِ) الذي اشْتدَّتْ عداوتُهُ ، وتطاوَلَ على المسلمينَ ، يَهْجُو بشعْرِهِ رسولَ اللهِ ، ويحرِّضُ عَلَى قتْلِهِ ، ويُظْهِرُ الولاءَ لقريشٍ لتأْخُذَ بثأْرِها ، وتَسْترِدَّ هيبتَها التي فقدَتْها في المعْركَةِ . . إنهم لأَعْداءٌ حقّاً ، فماذا سيفْعَلُ بهم رسولُ اللهِ ﷺ يا تُرى ؟

نَقْضٌ وحَرْبٌ

لَقَدْ نَقضُوا العهْدَ مَعَ الرّسولِ والمسلمينَ ، وزادَ عَلَى ذلكَ أَنْ أَشْعَلوا نارَ الفِتنَةِ والحربِ فيما بينَهم وبينَ المجتمعِ المسلمِ ، إذ اعتدَوا على امرأةٍ مسلمةٍ تَشْتري في سوقِ بَني قَيْنقاع ، فَنَصَحَ لَهمُ الرّسولُ ﷺ بالعدولِ عَن العِداءِ والحربِ ، فرفَضوا ، وإنَّ الخائنينَ لا أَمانَ لَهُمْ ، وقَدْ يشكِّلون خَطراً على جيرانِهم المسلمينَ ، ويكونونَ عامِلاً في إشعالِ نارِ البَغْضاءِ مَعَ قريْشٍ مِنْ جديدٍ . . لذلكَ أَنْذَرَهُمْ رسولُ اللهِ بالحربِ ، فاعْتصَموا بحصُونِهم ، فحاصَرهم خَمْسةَ عَشَرَ يَوْماً مَعَ أَصحابِهِ ، ولَمْ يستطِعْ أحدٌ أَنْ يُقدِّمَ لهمُ المعونَةَ إلى داخِلِ حصونِهم ، فأَدركَهُم الرّعْبُ ، وسأَلوا

رسولَ اللهِ أَنْ يُخْلِيَ سبيلهم ليَخرجوا منَ المدينة ، تارِكينَ السِّلاحَ والمالَ ، فقبلَ الرّسولُ ذلكَ ، وأَمْهَلَهُم ثلاثَةَ أَيّامٍ ، فَرَحلوا إلى (أَذْرِعات) في الشّامِ وهيَ مدينة درعا اليوم ، وغَنِمَ المسلمونَ أَمْوالَهم . .

مَقْتَلُ ابْنِ الأَشْرفِ

أَمّا كعبُ بْنُ الأشرفِ فلنْ يتركهُ الرّسولُ يفلتُ دونَ أَنْ يعطيَهُ العِقابَ اللازمَ لَهُ ، فقدْ غَدَرَ بالمسلمينَ ، وأَظْهَرَ عداءَهُ السّافر لَهُمْ ، فَهُوَ في حالةِ حربٍ إذاً مَعَ اللهِ ورسولِه ، ونقضٍ لميثاقِ السَّلامِ المعقودِ مَعَ الرّسولِ والمسلمينَ ، فالذي يفكّر في تحريضِ النّاسِ على محمّدٍ ، ويطالبُ بقتْلِ محمّدٍ ، لَنْ يتركَهُ محمّدٌ ﷺ يعيشُ كخطرٍ بارزٍ في المدينة . لقَدْ أَرسلَ إليْهِ الرّسولُ مَنْ يقتلُهُ بعْدَ أَنْ ضاقَ صدرُهُ بِهِ ، ورَغِبَ في الخلاصِ مِنْ شرِّهِ ، وقتلَهُ أَحدُ الصّحابةِ مِنَ الأنْصارِ واسْمُهُ (محمّدُ بن مسلمَةَ) ، وساعَدَهُ في ذلكَ (عبّادُ بْنُ بِشْرٍ ، والحارِثُ بْنُ أَوْسٍ ، وأَبْو عيسى بْنُ جَبْرٍ ، وسِلْكانُ بْنُ سَلامَةَ المعروفُ بأبي نائلةَ ، وهُوَ أَخو كَعْبِ بنِ الأشرفِ مِنَ الرَّضاعَةِ) . وهكَذا انتهَتْ بقتْلِهِ ورحيلِ قومِهِ غَزْوَةُ بني قَيْنقاع في مُنْتَصفِ شوّالَ من سَنَةِ بدرٍ .

تَبْرِيرُ الحَرْبِ

وإِنَّهُ ما مِنْ مُنْصِفٍ إلا ويَضعَ اللَّوْمَ على اليهودِ وعلى كعْبٍ ، فرسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ وادعَهُم حينَ قَدِمَ مُهاجراً إلى المدينةِ ، وعاهَدَهُم على أَنْ

يُسالموهُ ، ويكُونوا مَعَهُ يداً واحدةً ضِدَّ مَنْ يُداهِمُ يَثْرِبَ أَوْ يحاربُ أَهْلَها ، ولقَدْ كانَ هٰذا العهدُ ضَماناً كافياً ليعيشَ السَّلامُ في مجتمعِ السَّلامِ ، واليهودُ يعرِفُون أَنّهم إنْ نَقَضُوا العهْدَ ففي ذلكَ ضَررٌ عليهمْ وعلىٰ أَنْفسِهم.

إنَّ الذينَ يحتالُونَ لقتْلِ رسولِ اللهِ يَسْتَحِقّونَ كُلَّ فَتْكٍ وكُلَّ قتْلٍ ، لأَنَّهمْ يَظْلِمونَ أَنْفسَهم ، ويُخْرِجونَها إلى دائرة الأعداءِ غيرِ المُسالمينَ ، وعلىٰ الأَخصِّ كَعْب بْن الأشرفِ الذي نَقَضَ العَهْدَ ، وظاهَرَ الأعداءَ ، وأَظْهَرَ العداءَ ، وآذى المسلمينَ ، فاغتيالُه لم يكنْ ظُلْماً لَهُ وإنْ قامَ قَتْلُهُ علىٰ الاغْتيالِ ، فهُوَ الذي بَدَأَ الغَدْرَ على نَفْسِهِ ، وما كانَ المؤمنونَ ليغدِروا بأحدٍ ، أو يقتلوا بَريئاً .

كَلِمَةُ الإِسْلامِ

وكلمةُ الإِسلام يا أَحبّتي لا تحملُ في طيّاتِها أوامرَ غدْرٍ أو اغْتيالٍ ، ولا تُريدُ أَنْ تشبَّ الحربُ بَيْنَ أُممٍ ودولٍ ، ولكنَّهُ الحقُّ يحتاجُ إلى حِمايةٍ . وإنَّ الاستعدادَ للقوةِ يُرهِبُ العدوَّ ، فإنْ أَرادَ الكافرُ عداءً وحَرْباً عادَيْناهُ سواءٌ أكانَ مِنَ المشركينَ أَمْ مِن اليهودِ . وأَدْرَكَ الجميعُ أَنَّ الرّسولَ ﷺ لَمْ يَبْدأ الحربَ مَعَ قريْشٍ ، بَلْ لَمْ يَخْرجْ مِنَ المدينةِ على نيّةِ القتالِ ، وإنّما كانَ القتالُ أَمْراً لا بُدَّ منهُ بَعْدَ أَنْ ركبَ أبو جهلٍ رأسَهُ . . وارتكبَ حماقةً بعدمِ رجوعِهِ إلى مَكّةَ . وعَلِمَ الجميعُ كذلكَ أَنَّ رسولَ

اللهِ لَمْ ينْقضِ العَهدَ مَعَ اليهودِ إلا بعْدَ أَنْ نَقَضُوهُ على أَنْفسِهم ، لذلكَ لا مُبرِّرَ لأَحدٍ أنْ يَفْهَمَ ماجرىٰ في بَدْرٍ وبعدها فهماً خاطِئاً . وتاريخُنا يَشْهَدُ للمسلمينَ بالوفاءِ والكرامةِ .. وَهٰذا هُوَ دينُ الإسلامِ : أُخوَّةٌ وسلامٌ للجميعِ إلا مَنْ أَبىٰ واستكبرَ ولَمْ يَرْضَ سوىٰ العَداءِ والحَربِ .

صُورَةٌ عَنْ مَكَّةَ

وتَمرّ سَنَةٌ عَلىٰ مَكَّةَ . . كانَتْ سَنَةَ شُؤمٍ وذُهولٍ وفُقدانِ وَعْيٍ ، أَهْلُها يظنُّون ويتَحاورونَ كالمَجانينِ ، والأشرافُ قَدْ وَقَعوا في هذَيانٍ ، ولا عجَبَ، فهَـذا أبُو لهبٍ عَـمُّ الرّسولِ يَعرفُ ابنَ أخيهِ جيِّداً ، ويعلَمُ صِدْقَ رسالتِهِ ونبُوتِهِ ، يَسْتغْربُ اليومَ نَصْرَ اللهِ للمُسْلمينَ ، ولَمْ يطقْ احتمالَ الخبرِ ، فمرِضَ وماتَ بعدَ سبعةِ أيامٍ . وباحَتْ قريشٌ على قَتْلاها نَحوَ شَهْرٍ ، وأَضْمرَتْ في نَفْسِها ثأراً ، وحاولَتْ بقيادةِ أبي سُفْيانَ أَنْ تُجرِّبَ مُحاولَةً فاشِلَةً بعد شَهْرينِ ونِصْفٍ مِنْ غزوةِ بدْرٍ ، وأَبُو سفيانَ يُقْسِمُ اليمينَ بالثَّأرِ، ليستعيدَ مكانَةَ قريشٍ بَيْنَ العربِ ، فيفْشلُ ، ويلْحَقُ الرّسولُ ﷺ بِهِ وبالمهاجرينَ ، فيهربُونَ ، ويلْقُون ماحملوهُ مِنَ السُّوَيْقِ ليغنَمَهُ المُسْلمونَ غنيمةً باردةً . وغَدا رجوعُ المشركينَ على هٰذا النحْوِ مِنَ الفرارِ شرّاً مِنَ هزيمتِهِم في غزوةِ السُّويقِ هٰذهِ ، لذلكَ باتوا يُعِدُّونَ لغزوةٍ أكبرَ تمحو خِزْيَهُمْ .

قِصَصُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٣٦



ثورة الانتقام

حُزْنُ قُرَيْشٍ

عرفْنا يا أحبَّتي أَنَّ اللهَ قَدْ نَصرَ عبادَهُ المؤمنينَ في معركةٍ فاصلةٍ بينَ الحقِّ والباطلِ ، وأَنَّ الذينَ انهزموا لمْ يكُونوا يُقَدِّرُون قطُّ هذهِ النّهايَةَ ، ولذلكَ فقريشٌ المهزومَةُ ستَحْزنُ ، بَلْ حزنَتْ حقّاً ، ولَمْ يَدْرِ بخُلْدِها أَنَّ مُحمّداً مَعَ قِلّةٍ مِنْ أَصْحابهِ سوْفَ يحطّمُ كبرياءَها وعِنادَها . ومِن نتائجِ هذا الحزْنِ الشّديدِ أنَّ بعضَ الأشْرافِ قدْ أصيبَ بالذّهولِ والهَذَيانِ لمقتلِ مُحبّيه وأهلِهِ في المعركةِ ، وإنْ فتّشنا عَنْ أبي لهبٍ في مكّةَ ، فهوَ كما ذكرْتُ في الحلقةِ الماضيةِ قدْ مرِضَ مَرَضاً شديداً ، وطالَ مرضُهُ سبعةَ أيّامٍ ، ولمْ يتحمَّلْ سماعَ خبرِ الهزيمةِ المشؤومِ بالنسبةِ لهُ ولعظماءِ مكّةَ ، ومِنْ ثَمَّ ماتَ بعْدَ فرْطِ حزْنِه ومرَضِه . والآنَ دعْنا نبحثُ في طرقِ مكّةَ ، وأمامَ بيوتاتِها سمعْنا البُكاءَ والنّحيبَ والعويلَ ، ورأيْنا الأعيُنَ تطْفَحُ بالدُّموعِ ، والقُلوبَ يغمرُها الغيظُ على محمّدٍ ﷺ وصحبِهِ الكرامِ .

تَغْطِيَةُ المَوْقِفِ

وأبو سُفيانَ الذي اغْتاظ جدّاً لانتصارِ محمّدٍ على الرّغمِ مِنْ نجاةِ القافلةِ التجاريّةِ . هذا السيّدُ القرشيُّ الكبيرُ حاولَ أنْ يتزعّمَ مكّةَ بعْدَ مقْتلِ أشْرافِها كأبي جهلٍ وعُتبَةَ ، لذلكَ أحبَّ في أوّلِ الأمرِ أنْ يغطّيَ

الموقفَ المنتشِرَ صِيتُهُ لدى العربِ كُلِّهِم ، بغزوةٍ فاشلةٍ اسمُها (غزوَةُ السُّوَيقِ) ، حيثُ خرجَ معَ ثُلّةٍ منَ المشركينَ إلى مكانٍ يُسمّى (العُرَيْض) على بُعْدِ ثلاثةِ أميالٍ مِنَ المدينةِ ، فقتَلَ رَجُلاً منَ الأنْصارِ وأجيراً لَهُ ، وحرَّقَ بعضَ البيوتاتِ ، ومِنْ ثَمَّ ولّى هارِباً خائِفاً يظنُّ أنَّ قَسَمَهُ بالانتقامِ قَدْ وُفّيَ ونُفِّذَ ، ولحِقَ رسولُ اللهِ ﷺ بهِ وبأعْوانِه ، فأخَذَ أبو سفيانَ يتخفّفُ مِنْ أحمالِهِ الثّقيلةِ كُلِّها ، ولا سيّما ما يحمِلُونَهُ مِنْ مادّةِ (السُّوَيقِ) ، ممّا جعلَ المسلمينَ يَغْنَمونَ كُلَّ ما تخفّفَ مِنْهُ ، وسُمّيَتِ الغزوةُ بغزوةِ السُّويقِ ، وكانَ هربُ أبي سفيانَ نقمةً عليه ، بَلْ شرّاً مِنْ هزيمةٍ .

تَحْوِيلُ التّجارَةِ

وهذهِ النّقْمةُ قَدْ جاءَتْ مِنْ أنّ الرّسولَ ﷺ قد قطعَ الطّريقَ التّجاريَّ على مكّةَ بالتّأكيدِ ، وبتصميمٍ أكثرَ مِنْ ذي قبلُ ، لذلكَ لنْ يستفيدَ أبو سفيانَ إذا قامَ بعملٍ كهذا في غزوةِ السُّويْقِ ، وعليْهِ أنْ يمُدَّ يدَ الصُّلحِ ، أو يُفَتّشَ عنْ طريقٍ تجاريّةٍ أُخرى ، جديدةٍ ومأمونةٍ . وفعلاً يذْهبُ تاجرُهُم صفوانُ بنُ أميّةَ على رأسِ قافلةٍ باتّجاهِ العراقِ ، والبضاعةُ تُقدّرُ بمئةِ ألفِ دِرْهمٍ ، ويسيرُ ظانّاً أنَّ الأمْرَ لنْ يصلَ خبرُهُ إلى محمّدٍ ، وفي الطّريقِ تفاجئُهم زيدُ بنُ حارثةَ في مئةِ راكبٍ ، بعثهمْ معهُ رسولُ اللهِ ﷺ ليعْترضوا طريقَ القافلةِ ، وعنْدَ المفاجأةِ دبَّ الرُّعبُ في قلبِ

رجالِ القافلةِ ، ففرُّوا تاركينَ الجِمالَ والبِضاعةَ كلَّها غنيمةً باردةً ثمينةً وقيِّمةً بلا عَناءٍ للمسلمينَ . وجُنَّ جُنونُ قُرَيْشٍ ، فَلاَ عَيْشَ لها دونَ التجارةِ ، ولا تجارةَ طالما بقي محمَّدٌ وصحبُهُ ودعوتُهم .

مُناوَشاتٌ مُفاجِئَةٌ

وأخذتْ قريشٌ لذلكَ تُخصِّصُ كلَّ مواردِها لتجهيزِ حملةٍ قاصمةٍ ضِدَّ المدينةِ ، وفي هذهِ الأثناءِ حدثَتْ بعضُ المناوشاتِ بيْنَ المسلمينَ ، وبيْنَ بعضِ القبائلِ القريبَةِ منَ المدينةِ . وغايَةُ الرّسولِ ﷺ من هذهِ المناوشاتِ أنْ يُرْهِبَ الأعْداءَ مِنْ هؤلاءِ البدْوِ ، يفاجئُ جُموعَهم ، ويبدِّدُ شمْلَهم ويفرِّقُهم لما بدَرَ منهم مِنْ نيَّةٍ غادرةٍ . وأهمُّ هذهِ المناوشاتِ :

١ - غزوةُ غَطَفانَ (في مناطقِ نجدٍ) في السَّنةِ الثالثةِ للهجرةِ .

٢ - غزوةُ بني سُلَيم (في مناطقِ بحْرانَ) في السَّنَةِ الثّالثَةِ للهجرةِ أيضاً . وقدْ غَنِمَ المسلمونَ فيها بعضَ الغنائمِ الهامَّةِ التي جعَلَتْهم على مُستوىً اقتصاديٍّ جيِّدٍ ، زِيادة على موقِفِهم البطوليِّ وقوَّتِهِمْ واستعدادِهِمْ، واكتسَبُوا فيها الخبرةَ في القِتالِ وفنونِ الحرْبِ وأماكِنِ القبائِلِ ومَمراتِ الطُّرق .

دِعايَةٌ وتَعْبِئَةٌ

وحزِنَ أبو سفيانَ بعدَ هزيمةِ (السُّوَيْق) ، وأخَذَ يُحرِّضُ القبائِلَ كقبيلةِ غَطَفان وسُلَيم على الانتقامِ معَهُ مِنْ محمَّدٍ ، ويتنقلُ بيْنَ بيوتاتِ مكَّةَ ليبديَ رأيَهُ ، ويحثَّ عليْهِ ، غايَتُهُ الانتقامُ والثَّأرُ . . كلَّما وقفَ على نَفَرٍ مِنَ الرّجالِ صاحَ بهِمْ : (الثَّأرَ يا ناسُ ، والكرامَةَ الكرامَةَ يا رجالَ القبيلةِ ، إلى الانتقامِ يا أبْطالَ العَشيرةِ) .

وأصبحتْ نَفْسيَّاتُ المشركينَ في مكَّةَ ومَنْ حوْلَها مُعبَّأةً بالحِقْدِ والضَّغينةِ ضِدَّ الدَّعوةِ وأصْحابِها ، الجميعُ يتمنَّوْنَ لو سنَحَتِ الفُرصَةُ كيْ يقتُلُوا القائِدَ المسلمَ ﷺ ويفتِكُوا بالمهاجرينَ والأنصارِ . وسرعانَ ما وجدتْ قريشٌ إلى دعايَتِها مُسْتجيبينَ ، ونجحَ تحريضُها ، وانتشَرَتْ أقْوالُها الثّائرةُ ، وتَمَّتِ التَّعبئةُ التي سارَتْ سيْرَها المخطّطَ لها في مكَّةَ وما حوْلَها .

وَجيْشٌ وأَحْلافٌ

وتكوَّنَ الجيشُ الجرَّارُ أخيراً ، فقدْ ظلَّتْ قريشٌ عاماً كاملاً وهي تجمعُ الأنصارَ ، وتصْنعُ الهيبَةَ والاستعدادَ ، وخرجَتْ في جَيْشِها العظيمِ المؤلَّفِ منْ رِجالِها ورجالِ مَنْ والاها وحالَفَها مِنْ تِهامَةَ وكِنانَةَ والأحابيشِ ، وتوجَّهَ الجمعُ إلى المدينةِ في حَماسةٍ جاهليَّةٍ وغَيْظٍ شديدٍ ، ليضربَ الضَّرْبَةَ القاضِيةَ . وأبَتْ نساءُ قريشٍ إلا أنْ يكنَّ معَ الجيشِ

مِنْ أجلِ تحميسِهِ وإثارَةِ حميَّتِهِ عنْدَ الضَّرورةِ . وكانَ مِنْ أشهرِ الأعداءِ الآخرينَ الذينَ خرجَوا مَعَ قريْشٍ رجُلٌ اسمُهُ (أبو عامرٍ الرّاهب مِنْ أوْسِ المدينةِ ، لَمْ يؤمِنْ بالنبيِّ ظَنّاً منْهُ أنَّ النبوَّةَ ستكونُ مِنْ حظِّهِ ، وبعْدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةِ هربَ أبو عامرٍ منْها إلى مكَّةَ مُناصِراً قريْشاً ومحرِّضاً لها على قِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ وهُوَ يقُولُ لها : ما إنْ نَصِلَ إلى المدينةِ حتَّى أُحرِّضَ معي رجالَ الأوْسِ كُلَّهم ، وإذا قدِمْتُ عليهِمْ لَمْ يختلفْ مِنْهم اثنانِ . .

وَقُوَّةٌ وَجَوائِزُ

وسارَ الجيشُ في شوَّالَ مِنَ السَّنةِ الثَّالثةِ للهجرةِ ، بقيادةِ أبي سفيانَ وعلى لوائِهِ طلحَةُ بنُ أبي طلحَة ، وعلى ميمنتِهِ خالدُ بنُ الوليدِ ، وعلى ميْسَرَتِهِ عِكْرِمَةُ بنُ أبي جهلٍ ، وعلى المُشاةِ صفوانُ بنُ أُميَّةَ . . وعددُ الجميعِ ثلاثةُ آلافِ مُقاتلٍ في أكملِ استعدادٍ ، وأحسَنِ تعبئةٍ ، مِنْ بينهِمْ مئتا فارسٍ مدرَّبٍ على ظُهورِ الخيْلِ ، وسبعمئةٍ مِنَ المدرَّعينَ المحصَّنينَ بالدُّروعِ الواقيةِ فوْقَ عددٍ وفيرٍ مِنَ الرَّكائِبِ . . وكانَ مَعَ الجيشِ مَنْ أخرجَهُم حُبُّ المالِ وإغراءُ الجوائزِ ، كالعبْدِ (وحْشيّ) الذي يجيدُ الرِّمايةَ بالحرابِ ، حيْثُ أغْراه سيِّدُهُ (جُبيرُ بنُ مُطْعِم) بقتْلِ حمزَةَ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ ، فإنْ قتلَهُ فجائزتُهُ العِتْقُ مِنَ العبوديةِ ، وكذلكَ أغْرتْهُ هِندُ بنتُ عُتْبةَ ، ووعدَتْهُ إنْ قتَلَ حمزَةَ البطلَ بجائزةٍ ثمينةٍ

جدّاً ، وهذا يدلُّ على غيظِ المشركينَ مِنْ حمزَةَ في غزوةِ بدرٍ وما قبْلَها في مكَّةَ بعْدَ إسلامِهِ .

وخِطَّةٌ مَوْضُوعَةٌ

وخِطَّةُ قريشٍ في حَرْبِها المتوخَّاةِ كما يلي :

١ - تُفاجِئُ المسلمينَ في المدينةِ قبْلَ أنْ يَسْتعِدُّوا .

٢ - إذا كانُوا مستعدِّينَ لِلقائها ، فالأفضلُ هُوَ التَّخذيلُ والتَّفريقُ بيْنَ صُفوفِ المسلمينَ عِنْدَ اللِّقاءِ .

٣ - إذا فَشِلَتْ خِطَّةُ التَّخذيلِ والتَّفريقِ ، فلا مَناصَ مِنْ حلٍّ واحِدٍ ، وهُوَ الفتْكُ برسولِ اللهِ وأصحابِهِ مِنَ المهاجرينَ .

ولذلكَ راحَتْ قريشٌ تكتُمُ أمرَها عَنِ المسلمينَ ، وتسيرُ سرّاً حتَّى وصلَتْ إلى سفوحِ جبلِ أحدٍ على بُعدِ خمسةِ أميالٍ شمالَ المدينةِ .

هذِهِ هيَ خِطَّةُ قريْشٍ ، وكلُّها تحمِلُ في طيَّاتِها ضمائِرَ الشَّرِّ والغَدْرِ والخيانةِ ، والقلوبُ تَغْلي وتحقدُ للثَّأرِ لقتْلَى بدْرٍ .

فماذا ستكونُ النِّهايةُ يا تُرى ؟ وكيْفَ ستجري المعركةُ هذهِ المرَّةَ ؟ .

وَيَعْلَمُ الرَّسولُ

ولكنَّ بني هاشمٍ لَنْ يكتموا الخبَرَ عَنْ رسولِ اللهِ الذي نَصروهُ مِنْ قبْلُ في مكَّةَ كثيراً ، واحتمَلُوا معهُ صنوفَ العَذابِ والأذى مِنْ قُريْشٍ ،

وهُمُ اليَـوْمَ على أُهْبَةِ الاستِعدادِ ليوصلـوا الخبرَ للرَّسولِ الكريـمِ ، ومِنْ أَجْلِ هٰذا راحَ العبَّـاسُ عَمُّ رسولِ اللهِ يكتُبُ إلى الرَّسولِ أَنَّ قُـريْشاً قَدْ خرجَتْ تَبْغي الثَّـأْرَ لقَتْلاها والفَتْكَ بِكَ وبأَتبـاعِكَ في المدينةِ ، وبَعَثَ بالكتابِ مَعَ رجلٍ منْ بَني (غفارٍ) فـوَصَلَ بِهِ بعْدَ ثلاثِ ليالٍ ، وسَلَّم الرِّسالةَ للرسولِ ﷺ يُعْلِمُهُ . .

ورسولُ اللهِ لا يَقْرأُ ولا يَعْـرفُ القراءَةَ ، فقرأَهُ لهُ أُبيُّ بْـنُ كعْبٍ ، وفهِمَ بعدهـا ما يُرادُ بِـهِ على أَيْدي الكُفَّارِ والمشركينَ ، فلَمْ يَعْبأْ بنشْرِ الخبرِ ، بَلْ كتمَهُ رَيْثَما يرى الحَلَّ في نَفْسِهِ ، ثُمَّ يعرِضُهُ على أَصْحابِهِ .

وهَكَذا وقَعَ ما كانَتْ تَخْشاهُ قريْشٌ في خِطَّتِها .

وتتوعَّدُ قريْشٌ

واسْتَطاع أبـو سفيانَ أَنْ يتأكَّـدَ مِنْ أنَّ كِتمانَ الخبرِ لمْ ينْجَحْ ، لـذلكَ راحَ يتوعَّـدُ ، ويزْمجرُ غاضباً وهُـوَ يقولُ : (أحلفُ باللهِ أَنَّ بعْضَهـم قَدْ أَخْبرَ محمّداً بمسِيرنـا وزَحْفِنا واسْتِعـدادِنا وعَـدَدِنا ، فَـبذلكَ حـذَّروهُ ، وجعلوهُ مَعَ أَهْلِ المدينةِ في حصـونٍ محكمَةٍ ، ولا أَعتقدُ أَنَّنا سننْجَحُ في مَهَمَّتِنا على خيْرِ وجْـهٍ كما كانَتْ خِطَّتُنا) . فـوقَفَ لَهُ صفوانُ بْـنُ أميَّةَ مُجيباً : (إنْ لَمْ يخرجُوا إلينا في فَضاءِ الصَّحراءِ ، عمَدْنا إلى زروعِ النَّخيلِ فقطَعْناهُ ، وتركْنـاهـم ولا أَمْوالَ لهُمْ . . وإنْ أَصْحَـروا وخَـرَجوا لنـا في الصَّحراءِ ، فالنَّصرُ لَنا لأَنَّ عَدَدَنا أكْثرُ مِنْ عددِهِمْ ، وسلاحُنا أكْثرُ مِنْ

سِلاحِهم ، ولَنا خيْلٌ ولا خَيْلَ مَعَهُمْ ، ونَحنُ نقاتِلُ على ثأْرٍ لَنا عندَهُم ، ولا ثأْرَ لَهُم عِنْدَنا . .) ويا لسَفاهةِ الجوابِ والقولِ ، ويا للرأْيِ الخائِبِ ، وكأَنَّ صَفْوانَ نَسِيَ . . يوْمَ بدْرٍ ! .

أَشيروا عليَّ

إنَّ المسلمَ يـا أحبَّتي لا ييْأَسُ مِـنْ نَصرِ اللهِ ، ولكنَّ الكافِرَ ينظُرُ إلى الأُمـورِ بعيْنٍ صـائبـةٍ ، ومَـعَ أَنَّ المسلـمَ لا يعتريـهِ اليـأْسُ ، إلا أنَّ الرّسولَ ﷺ أحبَّ أَنْ يضَعَ للنَّصْرِ شُروطَهُ ، ثُمَّ يتوكَّلَ على اللهِ .

ها هُوَذا يعيدُ عليهم سُؤَاله قبْلَ بَدرٍ : (أَشيرُوا عليَّ) أيْ : ما رأْيُكُم ؟ والمشورَةُ مِنْ صِفاتِ القيادةِ الحكيمةِ والقائدِ الحكيمِ الذي يَسْتَحِقُّ كُلَّ تقديرٍ ، لأنَّـهُ بذلكَ يرْفَعُ مِـنْ نفسيّةِ شعبِهِ وجندِهِ قبْلَ القتالِ وفي كُلِّ أمْرٍ ، وقَدْ رَأَيْنا أَنَّ المشورَةَ قدْ أفادَتِ المسْلمينَ في معركةِ بَدْرٍ ، لذلكَ فلا تعـدمُ المشورَةُ فـائدَتَها على المجتمعِ ، وأوَّلُ ما نفّذَهُ الرسولُ مِنْ آراءِ القومِ هوَ أَنَّهُ بَعـثَ عيونَهُ (أَيْ بعْضَ رجالِهِ) ليَسْتَطْلِعـوا لَهُ الخبَرَ عَنْ قريشٍ ، ولمَّا عادُوا أَخْبروهُ بمنزلهم قُربَ أُحدٍ ، وقدَّروا لَهُ العَددَ والعتادَ ، وأَضـافوا أَنَّ بعـضَ خيولِ القـرشيينَ قَدْ وصلَـتْ إلى أطرافِ المدينـةِ تعبَثُ بالزَّرْعِ وتُنْذِرُ بالخَطَرِ .

البَقاءُ

وعنْدَما باتَ الخطَرُ جاثِماً علىٰ الأبـوابِ ، وغَدا الأَمْرُ لا هَـوادةَ فيهِ ، واستمَعَ الرّسولُ ﷺ إلى تتمّةِ آراءِ المسلمينَ ، فَقامَ الكِبارُ مِنهُمْ والخبراءُ في أمورِ القِتالِ ضِمْنَ المدينةِ ، وَقالُوا :

(يا رسولَ اللهِ . . إنّنا نُفَضِّلُ البَقاءَ في أَمـاكِنِنا لا نَبْرحُها ، فإنْ دَخَلَ القرشيُّونَ عَلَيْنا ، فنحنُ أَدْرىٰ بِمَدينتِنا ، ولَمْ يستطِعْ أَحَدٌ مِنَ الأعداءِ أَنْ يَدخُلَهـا ويُصيبَ مِنْها قَبْلَ الآنَ ، وسنَفْعَـلُ بالقرشيّينَ ما كُنّا نفعلُهُ بغيرِهِمْ مِنَ الأعداءِ ، نُقاتِلُهُم في المدينةِ ، وتَرْمِيهِم النِّساءُ والذَّراري بالحِجارةِ ، ونستَعْمِلُ أَسْيافَنا في الطُّرقِ ، فإنْ أقاموا أقاموا بِشَرِّ مَحْبَسٍ ، وإنْ رَجَعوا رَجَعوا خائبينَ مَغْلوبينَ ، لَنْ يَنالوا خَيْراً . .)

هٰذا هُوَ الرّأيُ الأوّلُ ، وَقَدْ قدّمَهُ المسِنُّونَ أُولو الخِبْرَةِ والتّجْرِبَةِ ، فماذا سَيكونُ رَأْيُ الشّبابِ ؟! .

الخُرُوجُ

لَقدْ قالَ الفِتْيانُ الأَحْداثُ : اخْـرُجْ بنا يا رسـولَ اللهِ إلى عَدوِّنا فإنّنا نرغَبُ في لقاءِ العَدُوِّ ، وكُلُّنا شوقٌ إلى الشّهادةِ ، وإنّنا لَنَخشىٰ يا رسولَ اللهِ ، أَنْ يَظُنَّ عدوُّنا أنّا كَرِهْنا الخروجَ إليهم جُبْناً عَنْ لِقائِهِم ، فيكونُ هٰذا جُرْأةً مِنْهُم عَلَيْنا ، وقَدْ كُنتَ يَوْمَ بَدْرٍ في ثلاثمئةٍ فأظفرَكَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فكيْفَ ونحنُ اليَوْمَ بَشَرٌ كَثيرٌ ،نتمنّىٰ النَّصْرَ علىٰ العَدُوِّ ، وقَدْ

ساقَهُ اللهُ إلَيْنا في ساحَتِنا ؟) . .

ووافَقَ بعْضُ الرِّجالِ مِنْ أَهْلِ السِّنِّ علىٰ هٰذهِ الفِكْرَةِ لأَنّها مِمَّنْ يحملونَ نيّةً حسَنةً ، وضمائِرَ خالِصَةً ، وليْسَ لأنَّ الخروجَ أفْضلُ ، فقالُوا: يـا رسـولَ اللهِ ، نَحْنُ بيْنَ أَحَدِ أمرينِ ، كلاهُما خيرٌ : إمّا أَنْ ننتصِرَ عليهِمْ، وإمّا أَنْ يرزقَنا اللهُ الشّهادةَ ، فإنْ خَرَجْنا أَبْعَدْنا فكرةَ جُبْنِنا عن لِقائِهِم ، ولا نُحِبُّ أنْ يرجِعَ القرشيُّونَ ويقولونَ : حاصَرْنا محمّداً وَصَحْبَهُ في بُيُوتاتِهِم..).

رَأْيُ مَنْ ؟

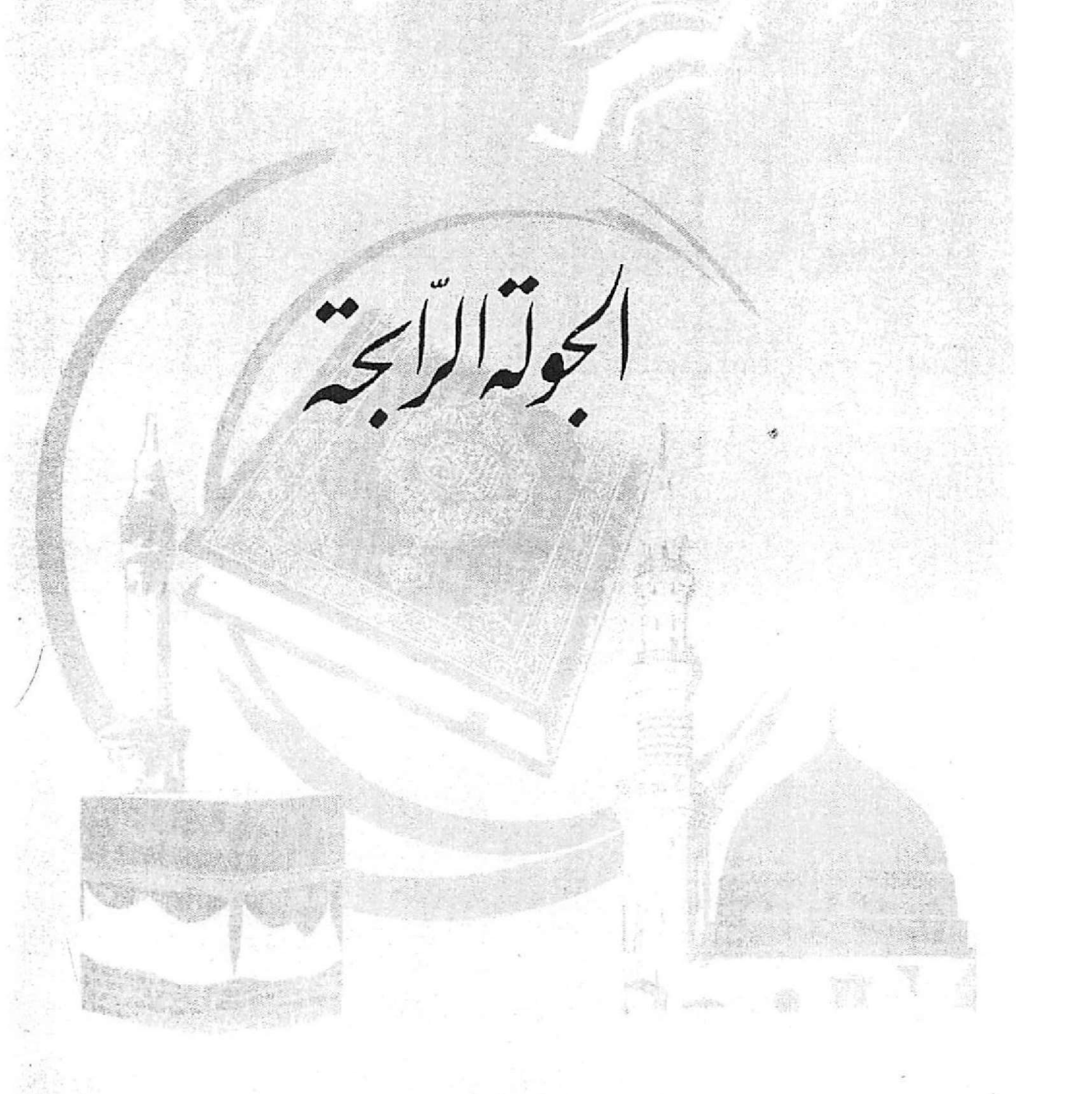
سَمِعَ الرّسولُ ﷺ رَأْيَ كُلِّ طرفٍ ، وأكّدَ كُلٌّ مِنْهُم على رأيِهِمْ ، وكلُّهم يَرْغَبُ النَّصيحةَ لرسولِ اللهِ وللمسلمينَ .

والنتيجةُ : هوَ أنَّ الرّسولَ سيَنْزِلُ علىٰ رَأْيِ فريقٍ واحِدٍ مِنْهُم ، ويُصَمِّمُ عليهِ ، وفي الحلقةِ القادمةِ إنْ شاءَ اللهُ سترىٰ القرارَ الأخيرَ ، إلى أيِّ جانبٍ سيكُونُ الإيجابُ ؟ وكيْفَ ستَجري المعركةُ الكُبرىٰ الثّانيةُ في تاريخِ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ ؟ .

تابِعُوا معي يا أحِبَّتي إذاً . . بعْدَ أنْ تَستريحوا قليلاً ، لكَيْ يكونَ إتقانُكُمْ أكْبَرَ ، وتَعلمونَ أنتم أنَّ الاستراحَةَ تساعدُ على متابعةِ القِراءةِ بِهمّةٍ ونشاطٍ ، ورسولُ اللهِ يحبُّ منّا أنْ نقرأَ سيرتَهُ وقِصّةَ غزواتِهِ بتمعُّنٍ وفَهْمٍ وإتقانٍ ، دونَ تَعَبٍ ولا إفراطٍ في القراءةِ ، ولكُمُ الشُّكرُ منهُ سَلَفاً قبْلَ الإتمامِ .

قِصَص
السِّيرة النَّبَوِيَّة
٣٧

الجولة الرّابحة



رأْيُ الأَصْحابِ

مَرْحباً بكُمْ يا أحبَّتي معَ جولةٍ رابحةٍ في هذِهِ الحلقةِ حَيْث سنُتابع معاً الحديثَ عَنْ (غزوةِ أُحُد) ثانيةِ غزواتِ الجهادِ في دَعْوتنا . لقدْ وصَلْنا في القولِ إلى أنَّ سيِّدَنا مُحمَّداً ﷺ قَدْ طلَب مِنْ أصحابِهِ أنْ يُشيروا عليهِ كما هيَ عادتُهُ معهُمْ في كُلِّ أمورِهِ الاجتماعيَّةِ والحياتيَّةِ والسياسيَّةِ ، وعرفْنا أنَّهم قَدْ أشارُوا عليهِ برأْيينِ مختلفَيْنِ بالنسبةِ للقَاءِ العدُوِّ ، ففريقُ أهْلِ السِّنِّ والخبرةِ طلبُوا مِنْ قائِدِهم البَقاءَ ومحاربةَ قريشٍ عنْدَما يَقدُم جيشُها إلى المدينةِ ، وطلَبَ فريقُ الشّبابِ والفتيانِ أَنْ يخرجَ بِهِمُ الرَّسولُ للقاءِ العدوِّ خارجَ المدينةِ . وكلا الرأْيين يحملُ مَعَ أصحابِهِ نيَّةَ الخيرِ والفلاحِ ، وكلُّ فريقٍ أَعْطىٰ مبرَراتِ رأْيِه لرسولِ اللهِ ﷺ مؤكِّداً عَلَيْهِ .

تَصْمِيمٌ على الخُرُوجِ

وبعدَ تفكيرٍ واستزادةِ مشورةٍ ، رأى رسولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الخروجَ هُوَ الرغْبَةُ الغَالبةُ عنْدَ أَصْحابه ، وأَنَّ كثْرةَ النَّاسِ تَدْعو إلَيْه ، على الرُّغمِ من أَنَّ الرسولَ قَدْ مالَتْ نفسُهُ إلى الرأْيِ الأَوَّل حَيْثُ رآهُ أَصْوبَ وأفضلَ وأَسهلَ علىٰ المسلمينَ وأشَدَّ علىٰ الكافرينَ ، لكنَّ حكمَتَهُ اقتضتْ أَنْ

يَنْزِلَ عَلىٰ رأْيِ الأكثريَّةِ في الخروجِ ، وتَمَّ التَّصميمُ علىٰ ذلكَ ، وها هُوَذا يصَلي بهمُ الجمعةَ ، ويَعِظُهُم ويأْمُرُهم بالجِدِّ والجهادِ ، ويخبرهُم بأَنَّ النَّصرَ لَهُم ما صَبَروا ، وأَخَذَ النَّاسُ يتأَهَّبونَ للقتالِ مَعَ أَنَّهم رَأَوا كراهيَةَ رسولِ اللهِ لأَمْرِ الخروجِ . وعرَفَ الشَّبابُ أَنَّهم اسْتكرهوا رسولَ اللهِ علىٰ الرأْيِ الثَّاني ، فقالُوا لَهُ مُعْتذرينَ : ما كانَ لَنا يا رسولَ اللهِ أَنْ نُخالِفَكَ ، فإنْ أَبيْتَ الخروجَ أَطَعْناك ، فاصْنَعْ ما بَدا لكَ ، فقالَ : [لا يَنْبغي لنبيٍّ إذا لبِسَ لأْمَتَهُ ـ أَيْ عُدَّةَ الْحربِ ـ أَنْ يَضَعَها حتَّى يحكُمَ اللهُ بينَهُ وبيْنَ أَعْدائِهِ].

اسْتِعراضُ الجَيْشِ

وعِنْدَها أَدْركَ الجميعُ أَنَّ الرَّسولَ قَدْ صَمَّمَ علىٰ الخُروجِ ، ولَنْ يَتَراجعَ عما كَرِهَهُ ، وَلا سيَّما بعدَ أنْ لَبِسَ لِباسَ الحرْبِ ، وأَعَدَّ العدَّةَ للقتالِ . وبَدأَ الرَّسولُ يرتِّبُ الجيشَ ، وينظِّمُ أَفرادَهُ ، فعقَدَ أَلويَةً ثلاثةً :

١ - لِواءُ الأَوْسِ ، ويرأَسُه حامِلُ اللِّواءِ (أُسَيد بْنُ حضيرٍ) .

٢ - لواء الخَزْرجِ ، ويرأَسُه حامِلُ اللّواءِ (الحبابُ بْنُ المنذِرِ) .

٣ - لواءُ المهاجرينَ ، ويرأَسُه حامِلُ اللِّواء (مُصْعبُ بْنُ عُمَيْر) .

ومِنْ ثَمَّ دَعا بفرسٍ لَهُ فرَكِبَها ، وخَرَجَ في مقدِّمةِ الجَيْشِ الذي بَلَغَ

تِعْدادُهُ (أَلْفَ) مقاتلٍ ، بينَ فارسٍ ومترجِّلٍ ومدرَّعٍ ، واستَعْرضَ الرَّسولُ ﷺ جَيْشَهُ بعْدَ أَنْ مَشىٰ بِهِ بعضَ الطَّرِيقِ ، وردَّ مَنِ اسْتصْغرَهُم مِنَ الجنْد، فبكىٰ بعضُهم مثْل (سَمُرَةَ بن جُنْدب ، ورافعِ بْنِ خديجٍ) اللَّذين أَثْبَتا بصراعٍ بريءٍ بَيْنَهما أَنَّهما على اسْتعدادٍ تامٍّ ، فابْتَسمَ لهما القائدُ وأخذَهما معَهُ.

الثُّلثُ المُنافِقُ

ويتابعُ الجيشُ مسيرَهُ ، ويتمكَّنُ الشَّيطانُ مِنَ الوسوسةِ للفئةِ المنافقةِ بزَعامةِ (عبدِاللهِ بْنِ أُبيّ) ، وتِعْدادُها (ثلاثمِئةٍ) مِنَ الرِّجالِ ، بِأَنْ يَرْجعُوا إلى المدينة ، ويَنْخذلوا عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، وناشَدَهم (عَبْدُاللهِ بْنُ عَمْرو) أَنْ لا يشقُّوا عَصا الجماعَةِ والطَّاعةِ ، وألا يخذلوا قومَهُم ونبيَّهم في حَضْرةِ العدُوِّ ، فقالوا لَهُ متهكِّمين : (لقدْ أَطاعَ رأْيَ الصِّغارِ الفتيانِ، وعصىٰ رأْيَ الكبارِ وأُولي الخبرةِ في القَوْمِ ، وإنَّنا لو نَعْلَمُ قتالاً سيَحْدثُ لاتَّبعْناكم) .

هَذا قولُهم ، وهذا فِعلُهم . وكلاهُما شنيعٌ دبَّروهُ فيما بيْنَهم ، وكادَ الانشقاقُ أَنْ يُحدِثَ خلخَلةً عظيمةً في تماسكِ الجيشِ لولا أَنْ عصَمَ اللهُ الباقينَ بإيمانِهِم ، فوحَّدوا الجماعَةَ بعدَ تخاذُلِ ابْنِ أُبيّ وفتنتِهِ المنافقة . وتابعَ الرَّسولُ ﷺ مسيرتَهُ مَعَ الثُّلثين الباقينَ ، ووصَلَ بهما إلى جبلِ

يحبُّ رؤيةَ المجاهدين ، إنَّهُ جَبلُ أُحُدٍ .

نَصائِحُ قيِّمَةٌ

وعْندَ الجبل ، نـزلَ الرَّسولُ في شِعبِ (قُمَّرَ) على جانِبِ وادي أُحدٍ وإلى جانبِهِ تلٌّ مشرفٌ يقالُ لَهُ : (جَبل عَينيْن) . وهُناكَ أخذَ يرتِّبُ ويصفُّ أَصْحابَهُ بما يناسِبُ المكانَ الجبليَّ والوادِي ، فجعلَ ظهُورَهم إلى الجبل يَحْتمونَ به مِنَ الخلف وجَعَلَ وجوهَهم إلى المدينةِ بحيثُ يستَقْبلون الوادي ويُشرفونَ عَليه منْ أعلاهُ ، وجعلَ خمسينَ مِنَ الرُّماةِ على جبلِ عَيْنين ، تحتَ إمارَةِ عَبدِ اللهِ بْنِ جُبير ، وأَمَرهم أنْ يَحْموا ظُهورَ المسلمينَ عِنْدَ القتالِ ، وألَّا يمكِّنوا العَدوَّ مِن احتلالِ هذا التَّلِّ ، وألا يَتْركوا هٰذا المكَانَ الذي وَضعَهم فيه الرسولُ حتَّى ولو انْتصرَ المسلمونَ ، وعَلَّمَهم أنْ يَرْموا خَيْلَ الأَعْداءِ كُلَّما أَقْبلتْ نَحوَ المسلمينَ ، وأَكَّدَ الوصيَّةَ والنَّصيحةَ بعدمِ مُغادرتِهم المكانَ . . وانْتهىٰ الرَّسولُ ﷺ مِنْ إعدادِ الجَيْشِ للمواجهةِ ، ومِنْ ثَمَّ خَطَبَ في الجُنُودِ يحثُّهم على الصَّبْرِ ، وألَّا يَبْدؤوا القتالَ حتَّى يأْذَنَ لَهُمْ .

أَخْفَقَ التَّخْذِيلُ

وظَهَرَ القرشيُّونَ في السَّهلِ المنْبسط تحتَ التلِّ ، وصارَ الجيْشَانِ وَجْهاً لِوجْهٍ ، والتقى الجمعانِ . وظَهرَ أبو سفيانَ ، وهُوَ ينفِّذُ الخطَّةَ في

مَرْحلتِها الثّانية (التَّخذيل) فقالَ : (يا مَعْشرَ الأَوْسِ والخزرَجِ خَلُّوا بيْنَنا وبيْنَ بَني عَمِّنا ، ونَنصرف عَنْكم) ، فلَم يردَّ عليهِ أحَدٌ ، ثُمَّ قامَ أبو عامرٍ الرّاهبُ الذي حالَفَ قُريشاً على الفَتْكِ بمحمَّدٍ ﷺ وصحبهِ، فقالَ : (إليَّ أيَّها الأَوْسُ ، إليَّ أيَّها الأَوْسُ ، يَدُكم في يَدي صَفّاً واحِداً) فَما كانَ جوابُ الأوسِ إلا اللَّعنَ والطَّردَ والرَّجمَ بالحجارةِ حتَّىٰ ولّىٰ وَهوُ خزيانُ ، يقولُ لقريشٍ : لَقَدْ أصابَ القومَ بَعدي شرٌّ) . .

وأَدركَ المشركونَ وأبو عامرٍ أَنَّ خِطَّةَ التَّخذيلِ قَدْ فَشِلَتْ ، وبذلك أخْفَقَتْ حتَّىٰ الآن مَرْحلتانِ مِنْ مَراحِلِ خطَّتِهم : (المفاجأة ، والتَّخذيلُ) . .

حركةٌ فاشلةٌ

وحاولتْ قريْشٌ تَطْويقَ المسلمينَ حيْثُ أَمرَ قائدُهُم أَنْ يتحرَّكَ عكرمةُ بنُ أَبي جهلٍ مَعَ مَيسرةِ الجيْشِ فيَلْتَفَّ بحَرَكَةٍ سَريعَةٍ حَولَ أَصحابِ محمَّدٍ، فتَحَرَّكَ لواءُ عِكْرمةَ يريدُ الدَّوَرانَ حَوْلَ عسكرِ المُسْلمينَ ، فلمْ يَسْتَطعْ ، فأعادَ القائدُ الأَمرَ إلى ميمَنةِ الجَيْشِ أَن تُحاولَ بدَوْرِها بعْدَ فَشَلِ عكرمةَ ، فتحرَّكَ خالدُ بنُ الوليدِ بالميْمنَةِ ، وحاولَ جهدَه أَنْ يُفْلِحَ ، فأمطَرَهُ الرُّماةُ مِنْ فوقِ التَّلِ وابلاً غزيراً مِنَ النِّبالِ والسِّهام ، فارتَدَّ مَعَ مَيمَنَتِهِ على أَعْقَابِهِمْ مُسْرعين . وحارَ المشركونَ . .

هَلْ سيَفْشلونَ أَيْضاً في آخِرِ خطَّتِهم ؟ إنَّ التفافَهُم لَمْ يُفْلحْ ، وكانَتْ حركَتُهم فاشلَةً في التَّطويقِ ، فماذا يَفْعلون ؟ وإنَّهمْ أَمامَ جيشٍ مسلمٍ يقفُ لهمْ بالمرصادِ مِنْ كُلِّ الجهاتِ ، على أَحْسنِ تحصينٍ ، وأفْضَلِ تشكيلٍ ، وأتَمِّ تَنْسيقٍ .

مُبارَزَةٌ رائعَةٌ

ولا بُدَّ إذاً مِنَ المبارزةِ فالهجومِ فالقِتالِ ! ! فلْيجرِّبوا الحلَّ الأخير ، هذا رجلٌ مِنْ صُفوفِ المشركينَ يخرجُ ويطلبُ المبارزَةَ ، فيبرُزُ لَهُ الزُّبير ابْنُ العَوَّامِ ابْنُ عمَّةِ رسولِ اللهِ ، ويبارِزُهُ ، فيقتُلُه ، فيُسَرُّ رسولُ الله ﷺ ويكبِّرُ المسلمونَ فرحينَ لبدايَةٍ رائعةٍ بعْدَ مبارَزَةٍ رائعةٍ ، وصاحُوا (اللهُ أكْبَر) ، ثُمَّ شَدُّوا على أعدائِهم ، وهُمْ يُنادُونَ (أَمِتْ . . أمِتْ) يطلُبون مِنَ اللهِ بِكلامِهم هذا أنْ يُميتَ الأعْداءَ والمشركينَ على أيْديهم . ها هوذا عليُّ بْنُ أبي طالبٍ يهجُمُ على حامِلِ لواءِ قريْشٍ (طَلْحَةَ بْنِ أبي طلحَةَ) . فيَقتُله بسهولةٍ ، فيأخُذُ اللِّواءَ أخوه عُثْمان فيهجُمُ عليه حَمْزةُ عَمُّ رسولِ الله فيقتُلُه ، فيأخُذُ اللّواء أخوهما أبو سعيدٍ فيرميه سَعْدُ بْنُ أبي وقَّاصٍ بسهْمٍ فيقتُلُه ، فتناوبَ اللِّواءَ بعْدَهُ أَرْبعَةٌ مِنْ أوْلادِ أبي طلحَةَ وكلُّهم يُقْتلونَ واحِداً بَعْدَ واحِدٍ ، ويسْقُطُ اللِّواءُ المُشْرِكُ على الأرْضِ لا يجِدُ مَنْ يحملُهُ .

حَمْلَةٌ صادِقَةٌ

وعندَها شَعر المسلمونَ بأنَّ المشركين قَدْ دَبَّ الذُّعْرُ والهَلَعُ في قلوبِهم، وانكَسرتْ شوكَتُهم ، وتشقَّقتْ صُفوفُهم متصدِّعةً ، فَلا مانِعَ الآنَ مِنْ كَسْبِ الجولَةِ وربْحِها ، لذلكَ حَمَلَ المسلمونَ عَلَيْهم حملَةً صادقةً ، وأَمْعنوا فيهمْ ضَرْباً بالسُّيوفِ وطَعْناً بالرِّماحِ ورَمْياً بالسِّهامِ ، فازْدادَ ذُعْر المشركينَ وخَوفُهم ، وولَّوا الأدْبارَ هاربين . إنَّ المسلمينَ يا أحبَّتي هُمُ الرّابحونَ الآنَ، بقيادَةِ رسولِهم العظيمِ محمَّدٍ ﷺ ، لا يخافونَ أحَداً إلا اللهَ ولا يَبْتغونَ إلا النَّصرَ أوِ الشَّهادةَ ، هانَتْ عليهمُ الحياةُ ، فهانَتْ للموتِ نُفوسُهم ، وأَقْدموا على اللَّحاقِ بالمشركين الهاربين ، ورسولُ اللهِ يُحرِّض أصْحابَهُ ، ويحثُّهم دوماً على الصَّبْر ، فَثبتوا وهُم يصيحونَ : الله أكْبر ـ الله أكبر ـ أمِتْ . . أمِتْ .

ذُعْرٌ وهَلَعٌ

واشتَدَّ الذُّعرُ والهَلَعُ في قلوبِ المشركينَ الهاربينَ ، وجعلَتْ نساؤهُم تصيحُ وتُوَلْوِلُ ، وأخَذْنَ يتَسابَقْنَ في الهربِ والفِرارِ مِنَ الأَسرِ .

وإنَّهُ لمنْظرٌ مُضْحكٌ حقّاً ، فالذِين كانُوا يُخطِّطونَ لجولاتِهم ومراحِلِ معْركتِهم يهرُبونَ الآنَ ، ثم ما بالُ الفُرسانِ والمدرَّعينَ ؟ أيَنْقصهم السِّلاحُ والعَتادُ ؟ بَلْ أيْنَ النِّساءُ اللَّواتي أتين مَعَ الجيشِ لإثارة الحميَّةِ ؟

وأَين أبو سفيانَ الذي أَقسم بآلهتِهِ أَنْ ينتقِمَ مِنْ محمَّدٍ ، ويثْأَرَ لقتْلىٰ بَدرٍ؟ جميعُهُم اليومَ قَدْ شاهَدُوا الجولَةَ الرَّابحَةَ ضِدَّهم ، ورَأَوا أَنَّ المسلمينَ ما زالوا علىٰ إيمانِهم وثَبَاتِهم ورَباطةِ جَأْشِهم وقيادَتِهم الحكيمَةِ ، فماذا سيَفْعلُ المشركونَ بَعْدَ هَذا الذي وَقَعَ بهِمْ ؟ وماذا سيَفْعلُ المؤمنون إثرَ جَوْلتِهم الرّابحةِ ؟ وهَلْ سيكُونُ هُناكَ ما لَمْ يتوقعْهُ الطَّرفانِ مِنْ مُفاجآتٍ ؟ .

إلىٰ الغَنائِمِ

ولما ابْتَعدَ المشركونَ عَنْ مُعَسكرِ المعركةِ ، أَخذَ المسلمونَ يَجْمعُونَ الغنائِمَ والأَسْلابَ ، ومَا أَكْثرها ! إبلٌ وركائبُ ودوابُّ وزادٌ ومتاعٌ وسلاحٌ بأنواعِهِ ، وتبدأُ عمليّةُ الجمْعِ باطمئنانٍ ، إذْ أنَّ الذينَ يقومونَ بهذهِ العمليَّةِ مطمئنونَ إلىٰ أنَّ ظهورَهم محميَّةٌ مِنَ الخلْفِ بسببِ وجودِ الرُّماةِ على التلِّ في الأعْلى . .

وعَلا التَّهليلُ والتكْبيرُ ، وظنَّ الرُّماةُ أنَّ المعركةَ قد انتهتْ ، واعْتقَدوا أخيراً أنَّ المشركينَ قَدِ انْهزَموا إلى غَيرِ رجعَةٍ ، وفكَّر بعْضُهم بالنُّزولِ إلىٰ ساحَةِ المعْركةِ ليجْمعَ الغنائمَ مع إخوانِهِ المسلمينَ ، ووسْوسَتْ لهمُ النُّفوسُ بعدمِ الفائدةِ مِنَ البقَاءِ على الجبَلِ ، وأنَّ الأفضلَ أنْ يتركوا المكَانَ العاليَ ، ويكرُّوا إلىٰ أَسْفل بعْدَ نهايةِ الجولةِ الرّابحةِ !

خَطِيئَةُ الرُّماةِ

وهَمَّ أَكْثرُ الرُّماةِ بالنُّزول ، فاسْتوقفَهم قائدُهُم عبدُ اللهِ بْنُ جُبَير قائلاً: لا أَيُّها الرُّماةُ ، لا تعْصوا أوامِرَ القائِدِ رسولِ اللهِ ، وَاذْكُرُوا وصيَّتَهُ لكُمْ بِعَدمِ تَرْكِ الجبَلِ ، إيّاكُمْ وعاقِبَةَ الخِلافِ والعِصْيانِ ، وابقَوا في أَماكنكم ، وإنَّ نصيحَةَ الرسولِ لكُمْ قبلَ الصّعودِ كانَتْ واضحةً إذْ طلبَ منكم ألا تُغادِرُوا المواضِعَ ، حتّى لَوْ رأَيتم ما رَأَيتم في إخْوانِكم في ساحَةِ المعركةِ ، وهُوَ أعْلَمُ لماذا أَمرَكم بهذا ، فَلا تَسْتَعجلوا النُّزولَ ، واثْبُتوا ماكِثينَ على هَذا التَّلِّ . وَذَهَبَ كلامُهُ هباءً . . لمْ يستجِبْ لَهُ إلا قلَّةٌ لايستطيعُ الصّمودَ معَها . وانْدفَعَ أَرْبعونَ مِنَ الرُّماةِ إلى السَّاحةِ هابِطينَ مِنَ الأَعلى ، تارِكين التَّلَّ لعَشَرةٍ لا أكثر . (وَقَدْ برّروا نُزولهم بأنَّ النَّصرَ قد حلَّ ، وانتهتِ المعركَةُ ، وإنما خافَ الرَّسولُ ﷺ عندَ نصيحتهِ لهُمْ مِنْ تأخُّر النَّصرِ أوْ عدمِهِ ، ولَمْ يحْدُثْ ما خافَ مِنْهُ فلا مانِعَ مِنَ النُّزولِ) .

التِفافٌ ناجحٌ

وماذا حدَثَ بنزولِهم ؟ لقدِ انْكشفَ الحصنُ المنيعُ ، وأَصْبحَ المسلمونَ بلا حمايةٍ مِنْ خلْفِهم . .

وصحيحٌ أَنَّ المُشركينَ يهربُونَ الآنَ ، ولكنَّ عَيْنَيْ خالدِ بْنِ الوليدِ

(وذلكَ قبلَ إسلامِهِ) كانَتْ إلى الـوراءِ نَحْوَ التَّلِّ .. يَرى ما حدَث بيْنَ الرُّماةِ، فاسْتغلَّ الفُرْصة ، وشاوَرَ عكرمَةَ بْنَ أبي جهلٍ في الالتفافِ حَوْلَ المسلمينَ والرُّجوعِ إلى المعـركةِ ، وسرْعانَ ما انقلبَ الاثنـانِ بما بَقي مِنْ جُنْدِهما في دَوْرةٍ واسعـةٍ بطريقٍ مَسْتورةٍ ، وتَسلَّـلا بالجنْدِ فـوقَ الجبَلِ ، واسْتطاعَ الملتفُّونَ أَنْ يزيحوا ما تَبقَّـىٰ مِنَ الرُّماةِ الخمسينَ ، وأَنْ يَقْتحِموا خطُوطَ المسلِمينَ مِنَ الخَلْفِ . لقَدْ نَجحَ التفـافُهم ، وأخذُوا أماكِنَهم ، ويا لعظيمِ الكارِثَةِ التي برزَتْ ملامحُها بعْدَ نَجاحِ خالدٍ وعكرمَةَ ! !

ماذا سَيَحْدُثُ ؟

سأُحدِّثُكـم في الصَّفحاتِ التَّاليةِ عَـنْ تفصيلِ الكارثةِ الَّـتي حَلَّتْ بالمسلمينَ ، مخصِّصـاً إيَّاها لتحليـلِ ومعرفةِ خطـأ الرُّماةِ وعـَواقبه علىٰ الطَّرفِ المُسْلمِ والكافرِ معاً . ولكنْ أَرْجُوكم أَنْ لا تتسرَّعوا في التوقُّعاتِ خشيَةَ أَنْ تخطِئـوا مَعَ خطَـأ الرُّمـاةِ ، فيصبحَ الخطـأ مُضاعفـاً ، وتَضيعَ الفائدةُ مِنَ القراءةِ . . حاوِلوا الآنَ يـا أحبَّائي أَنْ تَستَجْمعوا أهَمَّ ما مرَّ مَعَنا حتّىٰ نهايةِ هذِهِ الصَّفحةِ التي بَين أيـديكُم مِنْ معلوماتٍ ، وحتّىٰ تكُونوا على إدْراكٍ تـامٍّ يسَهلُ عليكمُ الرَّبْطَ بيْنَ حوادثِ معـركةِ أُحدٍ . هَلْ أَنْتـم موافِقونَ ؟ شُكراً لكُـم . . وأرْجو مِنَ اللهِ أَنْ يُبْعدَكُـم عَنْ أيِّ خطأ ، وأَنْ يُلْهمَكم طاعَةَ اللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ على الوَجْهِ الصَّحيح ، لكيْ تحقِّقُوا في شَخصِكم مَعْنى المسلمِ الحقِّ . .

قِصَصُ
السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ
٣٨



الخطيئة المؤلمة

عَلىٰ مَوْعِدٍ بَيْنَنا

لقَد وَعَدْتكم أَيُّها الأَحبَّةُ أَنْ ندرُسَ في هذه القصَّةِ موضوعَ الخطأ الكبيرِ الذي وقعَ في معركةِ أحدٍ بعدَ الجولةِ الأُولى الرابحةِ .

وطلبْتُ منكُمْ أَنْ لا تتسرَّعُوا في التوقُّعاتِ والنَّتائجِ بعْدَ هذا الخطأ ، لِئلا تُخطئوا مَعَ خَطأ الرُّماةِ ، فتضيعَ الفائدةُ مِنَ القراءةِ والمعرفةِ . . لقَدْ كانَتْ خطيئةُ الرُّماةِ خطيئةً مؤلمةً حقّاً ، فالتفافُ خالدٍ وعكرمةَ بقسمٍ كبيرٍ منَ الفرسانِ إلى الجبلِ قَدْ قلبَ المعركَةَ .

والمعركةُ قَدْ تألَّفَتْ مِنْ ثلاثِ جولاتٍ ، جولةٍ رابحةٍ تحدَّثْنا عَنْها ، وجولةٍ ثانيةٍ نتحدَّثُ عَنْها الآنَ ، وجولةٍ ثالثةٍ سنعْرِفُها بعد الانتهاءِ مِنْ هذِهِ الحلْقةِ ، في غيرِ مكانٍ جبلِ أُحُدٍ .

تعالَوا معي الآنَ إذاً ، لنعرفَ الجوْلَةَ الثَّانيَةَ . . لا لنَشْعرَ بالأَلَمِ ، بَلْ لنعرِفَ كَيْفَ نردُّ الأَلَمَ عَنْ نُفوسِنا قَبْلَ وُقوعِه .

زلْزالٌ عَجيبٌ

لقَدْ صاحَ خالِدٌ على الجبلِ : (يا للعُزَّىٰ ، يا لهُبَل) ، وهيَ دعوةُ المشركينَ إذا استنصروا بآلهتِهم وأصنامِهم ، وكأنَّها إشارةٌ لبقيَّةِ الجيْشِ القرشيِّ الهاربِ . . أَنْ عُودوا . . فقَدْ تمركَزْنا في الجبلِ الحصينِ ،

وأَصْبحنا نُشْرِفُ على ساحةِ المعركةِ كُلِّها وبيدنا الأَمْر قَدْ آلَ كُلُّه .

وسَمِعَ المشركونَ النِّداءَ ، فأَقْبلوا بعْد إدْبارِهم ، وأَخَذَ أحدُهم اللِّواءَ ورفعهُ ، وفُوجِئَ المسلمونَ بأَعْدائهم ، وقَدْ حاصَروهم ، وأوْجعوا فيهمْ قَتْلاً ذَريعاً ورَمْياً بالسِّهامِ . فاضْطرب أَمْرُهم ، وزُلْزِلُوا زِلْزالاً كَبيراً ، وجَعَلوا يقاوِمُون دونَ تنظيمٍ ، حتَّى إنَّ بعضَهم صارَ يُخطِئُ في رمْيِه ، وممَّا زادَ ذَلكَ سُوءاً : أَنَّ صارِخاً صَرَخَ في النَّاسِ : (لَقَدْ قُتِلَ محمَّدٌ) ، فدبَّ في صُفوفِ المسلمينَ رعْبٌ وخوفٌ وفشَلٌ ، لَمْ يَسْبِقْ له مثيلٌ ، فَما عادُوا يَدْرون ما يَفْعلون ؟

ثَباتُ القَليلِ

والحقيقَةُ أَنَّ محمَّداً ﷺ لمْ يُقتلْ ، ولمْ يَمُتْ ، ولَمْ يكُنِ الصراخُ إلا نَوْعاً مِنْ أَنْواعِ التَّخذيلِ الذي استعملَتْهُ قريْشٌ بإحكامٍ وسْطَ الغَمْغَمَةِ عندما فاجَؤُوا المسلمينَ بعَوْدَتِهم ورُجُوعِهم .

ومَهْما يكُنْ مِنْ أَمرٍ فالرَّسولُ قَدْ ظهرَ بَيْنَ المسلمينَ ، يدْعوهم ، ويَصيحُ بهمْ مؤكِّداً لهم أَنَّهُ حيٌّ لَمْ يُقتَلْ : (أَنا رسولُ اللهِ . . إليَّ عِبادَ اللهِ) ، فوجَدَ أَكْثَرَهم وقَدْ يَئِسوا بعْدَ تِلْكَ الصَّرخةِ الكافرَةِ منَ المُشْركين ، وكأَنَّهم يقُولون في أَنْفسِهم : (عَلامَ نقاتِلُ وَقَدْ قُتِلَ محمَّدٌ ؟) .

وقَليلٌ هُم الذينَ ثَبتوا معَ رسولِ اللهِ ، واسْتَجابوا لندائِه ، يُدافِعونَ عَنْه ، وإنَّهم لا يَزيدُ عددُهم عنِ العَشَرةِ ، واستطاعوا بما أُوتوا مِنْ قوَّةٍ

وإيمانٍ أَنْ يُوقِفوا الهزيمةَ التي حلَّتْ بالمسلمين إيقافاً رائعاً ، مَعَ أَنَّ الذي يَنظُر إلى جوِّ المعركةِ لَنْ يتوقَّعَ لهُم الصُّمودَ ! !

أَنصِتُوا واسْكُتُوا

ومحمَّدٌ القائدُ قَدْ ثَبَتَ مَعَ العَشَرةِ في وجْهِ العدوِّ ، ورمىٰ بالنَّبلِ حَتَّى فنِيَ نبلُهُ ، وانكسَرتْ دائرةُ قوسِهِ وانقَطع وترُهُ ، ثُمَّ ظَلَّ يَرْمِي بالحجارةِ حتَّى وقَعَ إلى جنْبِهِ وهُوَ يرىٰ العَشَرةَ مِنْ حَولِهِ يصدُّونَ بإعجابٍ هَجماتِ العدُوِّ المحدِقِ بِهِ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ . . ومِنْ هؤلاءِ الصَّادقِينَ الصَّامِدِينَ (أبو بكرٍ وعمرُ وطَلْحةُ بْنُ عُبيدِالله ، والزُّبيْرُ بْنُ العوَّامِ ، وأبو دجانَةَ ، وسَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ) ، ووقفَتِ امرأةٌ على غيرِ توقُّعٍ لتُثْبِتَ مِنَ البطولةِ ما لَمْ يُثْبِتْهُ الفرسانُ ، إنَّها نَسِيبةُ بنتُ كعبٍ الأنصاريَّةُ التي جُرِحتْ ثلاثَةَ عشَرَ جرْحاً ، وما يَزالُ الرَّسولُ يَراها أنَّى التفَتَ . . ! !

وصاحَ بَعْضُ المسلمينَ على الكفَّارِ أجراً قائلين : إنَّ رسولَ اللهِ حَيٌّ لَمْ يمُتْ ، فأَشَارَ إليهِمْ رسولُ الله ﷺ أَنْ أَنصِتوا ، واسْكُتوا ريثَما تنقشعُ عنَّا هجماتُ المشركينَ التي كادَتْ أَنْ تودِيَ بحياةِ الجيشِ المسلمِ . .

تَمْثيلٌ بالشُّهَداءِ

ولمَّا لَمْ يتمكَّنِ المشركونَ مِنْ قَتْلِ رسولِ الله ﷺ أَقْنَعوا أَنْفُسَهُم ، وتَظَاهروا بأَنَّهم قَدْ ثَأَروا ، وانْتَقَموا لقَتْلاهم في بَدرٍ ، وليسَ لهُمْ أمامَ

ثباتِ العشرةِ حوْلَ الرَّسولِ حَلٌّ آخرُ يقنعُهُم ، فقَدْ رَأَوْا مِنَ القِلَّةِ عَجَباً . .

وأخذَتِ المعرَكَةُ تهدأُ ، وتَخمدُ حرارتُها ، وراحَ المشركونَ ينحازُون إلى معسكرِهم يدْفُنونَ قَتْلاهم ، وأَخَذَتْ نساؤهُمْ يمثِّلْنَ بالشُّهداءِ مِنَ المسلمينَ يجدعْنَ أُنوفَهم وآذانَهم ، وأَشَدُّ ما كانَ مِنْ ذلكَ ما قامَتْ بِهِ هِنْدُ بنْتُ عتبَةَ مَعَ جثَّةِ سيِّدِ الشُّهداءِ حمزةَ بْنِ عبدِ المطَّلبِ عمِّ رسولِ الله . . لقَدْ فَظَّعَتِ التَّمثيلَ بها بعْدَ أَنْ رَماهُ (وحشيٌّ) غدْراً مِنَ الخلْفِ.

ومَشىٰ أبو سفيانَ يَبحثُ عَنْ جثَّةِ محمدٍ فقالَ لَهُ ابْنُ الخطَّابِ : يا عدُوَّ اللهِ ، قَدْ أَبْقى اللهُ ما يسوؤُكَ ، فتأكَّدَ أبو سفيانَ بذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ما زالَ حَيّاً فاغْتاظَ أشدَّ الغيْظِ لذلكَ.

مُعالجَةُ الجِراحِ

وراحَ قائدُ المشْركِينَ يندِّدُ ، ويهدِّدُ بأنَّ معركةَ أُحُدٍ قَدْ أعطتِ النَّصرَ لقريْشٍ ، وأنَّ المسلمينَ لا محالَةَ سَيُهْلكونَ في معركةٍ قادمةٍ ، وصاحَ بأعْلىٰ صوتِهِ : (إنَّ موعدَكم بدْرٌ لِلْعَامِ القادِمِ) ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعُمَرَ : [قولوا لَهُ : بَيْننا وبيْنكم موعِدٌ] .

ثُمَّ التفتَ الصَّحابةُ إلى رسولِهم العظيمِ يعالجونَ جراحَهُ العديدَةَ في رأْسِه وَوَجْهِهِ وركْبَتِهِ ، وهُوَ يقولُ : (وَالذي نَفْسِي بِيدِهِ ، لئِنْ أرادوا

المدينَةَ لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثُمَّ لأُناجزنَّهم) ، أي : لأُقاتلنَّهم مِنْ جديدٍ، وجَعَلَ الصَّحابَةُ بعدَ ذلكَ يعالج بعضُهم جروحَ بعضٍ ، ويمْشُونَ مَعَ الرَّسولِ متفقِّدينَ مَنْ سَقَطَ على الأَرْضِ ، فَيُسعفون الجرحىٰ ، ويُحْصون الشُّهداءَ بعينٍ دامعةٍ وقلبٍ باكٍ ، ويبلغُ عددُ الشُّهداءِ سَبْعينَ مِنْ أَعْظمِ الأبطالِ ، ويحزنُ لهم رسولُ اللهِ كثيراً . .

نَظْرَةُ وَداع

ويقفُ الرَّسولُ ﷺ قبلَ أَنْ يُصلِّيَ على شهداءِ أُحدٍ قليلاً ، إنَّهم أربعةٌ من المهاجرين ، والبقيَّةُ مِنْ خيرةِ الأَبْطالِ الأَنْصارِ ، وكلُّهم أجمعونَ مِنْ خيرةِ الشُّجعانِ وعلى رأْسهم حَمْزَةُ سيِّدُ الشُّهداءِ ومُصعبُ بْنُ عميرٍ حاملُ اللواءِ .

وينظرُ الرَّسولُ الواقفُ إلى جثَّةِ عمِّهِ الذي قُتِلَ غدْراً مِنَ الخلْفِ لضَعْفِ قريشٍ عَنْ ملاقاتِهِ وجْهاً لوجْهٍ ، ويودِّعُهُ بدموعٍ تغمرُ عينيهِ قائلاً : ما وقَفْتُ موقفاً أغيظَ إليَّ . . مِنْ هذا الموقفِ ، ثُمَّ يلتفتُ إلى جثَّةِ مصعبِ بْنِ عميرٍ ويقولُ : لقد رأيْتُكَ بمكَّةَ ، وما بها أحدٌ أرقُّ حِلَّةً منكَ ، ولا أحسنُ لمَّةً منكَ ، ثمَّ أنتَ أشعثُ الرَّأسِ في بُردةٍ . وأخيراً أمرَ الرَّسولُ بدفْنهم في أماكنِ اسْتشهادهم وبثيابهم ودِمائِهم دُونَ أنْ يُغسَّلوا . وقالَ : (إنَّهُ ما مِنْ جريحٍ يُجرَحُ في اللهِ إلاَّ ويبْعثُه اللهُ يومَ القيامةِ يدْمىٰ جُرْحه ، اللوْنُ لوْنُ الدَّمِ ، والرِّيحُ ريحُ المسكِ) .

صُوَرٌ رائعَةٌ

ومكَثَ الجميعُ ممَّنْ بقيَ حيّاً حولَ رسولِ اللهِ يستجمِعُونَ معَهُ تلْكَ الصُّورَ الرائعةَ التي بذَلَها الشُّهداءُ رحمهُم الله . ولقَدْ كانَ الإيمانُ يحْكي لنَا أَخْلدَ لَوْحاتِ الشَّجاعةِ ، كُلُّها تعبِّرُ بصوتٍ واحدٍ : (نَحْنُ فداؤُكَ يا رسولَ اللهِ) .

يواجهُ أحدُهُم المئَةَ مِنَ الكُفَّارِ ، فيظنُّ النَّاظرُ إليه أنَّهُ سوْفَ يموتُ لا محالةَ لشدَّةِ ضرباتِ السُّيُوفِ على جسده . وما هيَ إلاَّ دقيقةٌ حتَّىٰ يبرزَ وسَيْفُه ما زالَ يقْطر دَماً مِنْ جثَّةِ كافرٍ وأكثرَ ، ويتحدَّثُ لنا بطَلٌ فيقولُ : لقَدْ أُصيبَ حولَ رسولِ اللهِ يومَ أُحُدٍ نحْوُ ثلاثين صحابيّاً ، كُلُّهم يجيءُ حتَّىٰ يتقدَّمَ بيْنَ يدَيْهِ ، ثُمَّ يقولُ : وَجْهي لوَجْهك الفِداءُ ، ونَفْسي لنَفْسِك الفداءُ ، وعليْكَ سلامُ اللهِ قبْلَ أنْ أموتَ فداءً لكَ . . والأَرْوع مِنْ كُلِّ هَذا بطولَةُ رسولِ اللهِ الذي قتَلَ بيَدِهِ عدداً كبيراً مِنْ صناديد قريْشٍ حاولوا قتْلَهُ، فَفَشلوا .

العَوْدَةُ إلىٰ المدينَةِ

ولمَّا فرغَ الرَّسولُ مِنْ وَداعِ الشُّهداءِ ودَفْنِهم ، ركِبَ فرسَهُ وتوجَّهَ نحوَ المدينَةِ والمسلمونَ مِنْ حولِهِ أكْثرهم يتحاملون على أنفسهم مِنْ شدَّةِ الجروحِ والتَّعبِ . وساروا يحرسُونَ مع ذلكَ رسولَ اللهِ خوْفاً مِنْ رَدَّةِ قريْشٍ بعْدَ أنْ تأكَّدَ قائدُ المشركين مِنْ نجاةِ الرَّسولِ ﷺ

التوجُّـهُ الآنَ نَحْو المدينةِ ، وفي المدينـةِ ماذا ينتَظِرُنـا ؟ . النِّساءُ على الأَبوابِ يَبْكينَ الشُّهداءَ ، ويَنْظـرْنَ مع كُلِّ هَذا رسـولَ اللهِ لتراهُ عُيونُهنَّ سَالماً وعَائداً إلى المدينةِ .

الانتظارُ لَـنْ يطولَ ، وسيعْلَـمُ الجميـعُ أَنَّ الإِشاعَـةَ الكافرَةَ كـاذبَةٌ ، فلقَدْ عـاشَ رسولُ اللهِ ﷺ ولم يمتْ ، وثَبَتَ حـولَهُ نَفَرٌ يحمونَـهُ ، وقَلَبوا الهزيمَةَ إلى إقناعِ المشركينَ بأَنَّ يَـدَ الشِّركِ لا تَمْتدُّ إلى رسُولِ اللهِ بقَتْلٍ أو دمارٍ ، على الرُّغمِ مِنِ انهزامِ المنافقينَ قبْلَ بَـدْءِ المعركةِ ، وعصْيانِ الرُّماةِ وسْطَ المعركةِ .

لا مُصِيبَةَ بَعْدَكَ

ووصلَ الرَّسـولُ ﷺ أَخيراً إلى المدينةِ ، فوجدَ النِّسـاءَ على مَشارِفِها ، وقَدْ جَلَسْنَ وَسْطَ هـالةٍ مِنَ الدُّموعِ والبُكاءِ الشَّـديدِ ، فلمَّا رأَيْنَه مُقْبلاً نَسِينَ ما هُنَّ فِيهِ مِنَ الحزْنِ ، وأَسْرعْنَ إليه يتأَكَّدْنَ من سلامَتِهِ ، وهُنَّ لا يصدِّقن أعيُنَهنَّ ، إنَّهُ واللهِ لرسولُ اللهِ حَقّاً .

إنَّه رسولُ اللهِ سَالماً مِنَ القَتْلِ ، وأقبلَتْ نحـوَهُ أُمُّ عامرٍ تقولُ لَهُ : كُلُّ مصيبةٍ بعـدَكَ هيِّنةٌ ، وتبِعَتْها أُمُّ سعـد بن معـاذٍ (وقد استشهدَ ولـدُها عَمْرو) تقولُ لَهُ وهي تتأَمَّله : لقَدِ اطْمأننتُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، أما إذ رأَيْتُكَ سالماً فقدْ هانَتْ مُصيبتي في مقْتَلِ ابْني ، فعزَّاها رسولُ اللهِ ﷺ قائلاً : (يا أُمَّ سعْدٍ ، أَبْشِري وبَشِّري أَهْليهم أَنَّ قتْلاهم ترَافَقوا في الجنَّةِ

جميعاً) قـالَتْ : رَضِينا بـرسولِ اللهِ ، ومَنْ يَبْكـي عليهم بَعْدَ هـذا ؟ ثُمَّ قالـتْ : أُدْعُ يا رسـولَ اللهِ لمَنْ خلَّفوا وراءَهـم ، فقال : (اللهـمَّ أَذْهِبْ حُزْنَ قُلوبِهِم ، واجْبر مُصِيبتَهم) .

عِبْرَةٌ مِنْ أُحُدٍ

وسَمَحَ الرسولُ ﷺ لهنَّ في البكـاءِ على الشُّهداءِ ، فـذَرْفُ الدُّموعِ ينفِّسُ عَنِ القلْبِ ، ويفرِّجُ مِنْ لَـوْعَةِ الحزْنِ ، ولكنَّهُ نَهاهُنَّ عَنِ التَّمثيلِ بالوَجْهِ أو الشَّعر ، والنِّياحةِ الجاهليَّةِ ، وتَمْزيقِ الثِّيابِ ، واللَّطْمِ .

ومِنْ نظراتِهِ إلى القَوْمِ مِنْ حَوْلِهِ يعرفُ الرَّائي ما تريدُ عَيْنا رسُولِ اللهِ أَنْ تتكَلَّماه عَنْ أُحدٍ ، وَعَنِ الدَّرسِ العظيمِ الذي تلقَّاهُ المسلمونَ .

كان دَرْساً ضَروريّاً على الرُّغْمِ مِنْ قَساوتِهِ ، ولا بُدَّ أَنْ يحدُثَ مَعَ المرءِ مِثْلُ هَذا فليسَتِ الحياةُ سَعادةً دائمةً ، وطالما أنَّ المسْلمينَ حَديثُو عهدٍ بالقتالِ مِنْ أَجل مبْدأ ، فقدْ كانَـتِ الهزيمةُ أوَّلَ هزيمةٍ تصـدِمُهم بعْدَ أَحْلى نصر في بدْرٍ وهُمْ قِلَّـةٌ ، وعَرفُوا أنَّ النَّصرَ الحقيقيَّ مِـنَ اللهِ لا يأْتي إلاَّ إذا أَخَذَ المسلمون بأَسْباب هَذا النَّصْر ، وأَنَّ الهزيمةَ لا تكُونُ إلاَّ على مَنْ يأْخذ بأسبابِ الهزيمَةِ ، وهَذا ما كَانَ حقّاً .

رَجْعَةٌ إلى النَّصائحِ

فرسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ نصحَ لهُم ، وكرَّر نصائِحَهُ :

١ - يَنْصحُ لهم رسـولُ اللهِ بالتَّعـاونِ وعدمِ التَّفـرقةِ ، فيتخلَّفُ عنْهُ

المنافقون في ثُلثِ الجيْش ، فأكملَ الجيشُ مسيرَهُ بعْدَ فتنةٍ كادَتْ أن تحدثَ، ولكنَّ الله سَلَّم .

٢ – ونصحَ لهم رسولُ اللهِ أَنْ يلازِمَ الرّماةُ أماكِنَهم ، فَعصىٰ أكْثَرُ الرُّماةِ رسولَ اللهِ لَمَّا رأَوا جَمْعَ الغنائِم فأفْسدوا خِطَّةَ رسولِ اللهِ بعدَمِ طاعتِهم لَهُ ، والطَّاعَةُ أساسُ النِّظامِ ، والنِّظامُ أساسٌ للخطَّةِ ولا نجاحَ دونَ خِطَّةٍ.

٣ – وبعْدَ أنْ شاعتِ الأقاويلُ عَنْ قتلِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ظهرتْ ظاهرةُ التَّفرقةِ والانقسامِ للمرَّةِ الثَّالثةِ مَعَ أنَّ الرّسولَ قَدْ دَعاهُم إلى نَفْسِه ، ونَبَّههم إلى أنَّه حيٌّ لَمْ يُقْتل . وأدْرَكَ الجميعُ أنَّ سُنَّةَ النَّصْرِ لا تتغيَّر ، وسنَّةَ الهزيمةِ لا تَتبدَّل.

تجْرِبةٌ قاسِيةٌ

لَقدْ كانَتِ الزَّلاتُ الثَّلاثُ صورةً عَنِ الضَّعفِ البشريِّ الذي مَرَّ بالمؤمنينَ في ساعاتٍ حرجةٍ . ولَقدْ حكىٰ القرآنُ لنا قِصَّةَ أُحدٍ بكاملِها في سِتينَ آيةٍ ، يقولُ الله تعالى في واحدةٍ منْها : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو

فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ . حقّاً لقَدْ أوْشكتِ الهزيمَةُ أنْ تكونَ ساحقةً لولا رعايةُ الله وحفْظُه ، ولَوْلا صُورُ البطولةِ التي رأيْنا فيها صِدْقَ الإيمانِ عِنْدَ حمزةَ وسعدٍ ومُصعب وغيرهم منْ أبْطالِ الأنصارِ والمهاجرينَ . لَقَدْ كانَتْ تجربَةً ، ولكنَّها قَاسيةٌ، دفع المسلمونَ ثَمنَها غالياً لمَعْرفتها عملياً ، والحمدُ لله على كُلِّ حالٍ .

تَعزيةٌ وشِفاءٌ

وكُلُّهم عرفَ صمودَ الرّسولِ ﷺ وثباتَهُ . ومِنْ طيبِ نَفْسِه أنَّه لَمْ يعنِّفْ أَحَداً ، ولم يَلُمْ أَحَداً على تقصيرِه ، بَلْ جعَلَ يواسِيهم ، ويخفِّفُ مِنْ جُرُوحِهم ، ويشدُّ مِنْ عَزائمهم ، ويقولُ لَهم : [لَنْ ينَالُوا مِنَّا مِثْلَها] . ومَدحَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على عَفْوه ، فقالَ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ . ثمَّ بيَّنَ اللهُ للجميعِ أنَّ الهزيمَةَ لم تكُنْ شرّاً يُرادُ بهم ، بَلْ مجالاً لِتمحيصِ المؤمنِ المخلِصِ وكشفِ النِّقابِ عَنِ المنافِقين المخادعين ، وفرصَةً صالحةً هيَّأها اللهُ للمؤمنينَ ليتَّخذَ مِنهُم شهداءَ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ . . ﴾ .

قِصَصُ

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٣٩

موجات جارحة

لَمْ يَتوقَّفِ القِتَالُ

لَمْ ينتَهِ القتالُ يا أحبَّتي بعْد الجولةِ الثَّانيةِ مِنْ جوْلاتِ غزوةِ أُحدٍ ، وقَدْ عرفْتُم حتَّى الآنَ أنَّ المسلمينَ قدِ انْتَصروا في الجوْلةِ الأُولىٰ ، وكادُوا أنْ ينهزِموا الهزيمةَ السَّاحِقةَ بعْدَها ، لولا أنْ مَنَّ اللهُ عليهِمْ بفضْلِهِ ، فثَبتَ منْهُم القليلُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ثباتاً حوَّلَ الهزيمةَ إلى صمُودٍ بُطوليّ فريدٍ . والذينَ استُشْهِدوا في هاتينِ الجولتيْنِ قَدْ حدَّثَنا اللهُ عنْهُم بأنَّهم يودُّون لو لَمْ يتوقَّفِ القتالُ فيعُودُوا إلى الدُّنْيا ، ليستَشْهدوا مِنْ جديدٍ ، لِما وجدُوهُ مِنْ طيبِ الحياةِ عنْدَ اللهِ بعْدَ الشَّهادَةِ ، يقول ربُّنا عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

أراجيفُ كافِرةٌ

لقَدْ كانَ مِنَ الأَصْوبِ ألا يتوقَّفَ القتالُ أيُّها الأعِزَّاءُ ولا سيَّما بعدَ الذي حصَلَ إثْرَ العودةِ إلى المدينةِ ، فهاهُم أولاءِ المنافقونَ واليهودُ

يشْمَتونَ بالدَّاخلين إلى المدينةِ مِنَ الجرحَى والمصابِين ، بدلاً مِنْ أَنْ يُواسُوهم ويخففوا مُصابَهم ، وفَرِحوا ممَّا أصابَ الرَّسولَ والمؤمنينَ ، فجعلُوا يُعْلِنونَ شماتَتهم ويُجاهرونَ بها ، ويُطْلقونَ أَلْسنَتهم في النَّيْلِ مِنَ الدَّعوةِ ، ونبوَّةِ الرَّسولِ ﷺ ، قائلينَ : (لو كانَ نبيّاً ما هَزمَهُ الأَعْداءُ) .

وأَكثروا مِنْ هـذِه الأقاويلِ والأَراجيفِ الكافِرةِ الكاذبةِ ، حتَّىٰ فارتِ المدينةُ علىٰ جُروحِها ، وأَوْشكَ أَنْ تَعُمَّها فتنةٌ ، وخافَ الرَّسولُ مِنْ أَنْ تُؤثّرَ هذِهِ الأراجيفُ في النُّفوسِ أكثرَ مِنْ هَذا الذي وَصَلَ النَّاسُ إليْهِ ، كما خشِيَ مِنْ أَنْ تَطْمعَ قريشٌ في الكَرَّةِ علىٰ المدينَةِ ، وهُمْ على هـذِهِ الحالِ ، عنْدَها فكَّرَ واسْتَشارَ صحْبَهُ أُولي الرأي . .

لا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ

وكَانَتْ نتيجةُ التَّفكيرِ والشُّورى أَنْ رأىٰ الرَّسولُ ﷺ مَعَهم ضرورةَ صُنْعِ عملٍ سريعٍ يزيلُ آثارَ الأراجيفِ والوَهنِ مِنَ القلوبِ . إنَّهُ لا بُدَّ مِنْ تحرُّكٍ بطوليٍّ يُعيدُ إلى المسلمينَ ثِقتَهم بأَنْفسِهم ، أَجَلْ لا بُدَّ من ذلكَ خشيَةَ أَنْ تُفقَدَ الهيبَةُ إلى نهايَتِها . وحتْماً ، سَيَرضىٰ المؤمنونَ بما يريدُهُ الرَّسولُ منهم ، إنَّهُ قَدْ عَزمَ وصمَّمَ على أَنْ يخرجَ بهمْ في إثْرِ قريشٍ ، يتْبَعُ الجيشَ المشركَ على الرُّغمِ مِمَّا أصابَ المسلمينَ مِنَ الضَّعفِ والجُروحِ ، وما كانَ بهِم مِنَ الإعْياءِ والجهْدِ ، وغايةُ الرَّسولِ مِنْ وَراءِ هَذا أَنْ يكْلُمَ الجرْحَ الذي حَدَثَ مِنْ أَراجيفِ المنافِقين واليهودِ ،

فيَقْطع بذلكَ الطَّريقَ على المرجِفينَ ، ولا يَدَعَ فرصَةً لهُمْ ، ومِنْ جهةٍ ثانيةٍ أَنْ يُشْعر قريْشاً ومَنْ وَالاها بأَنَّ المسلمينَ لَمْ يضعفُوا حتَّىٰ النهايةِ ، وأَنَّهم لا تَزال بهم قُوَّة يرهبُونَ بها عدُوَّ اللهِ وعدوَّهم .

حَمْراءُ الأَسَدِ

وفي يومِ الأحدِ السَّادسِ عَشَرَ مِنْ شَوَّال ، نادىٰ منادِي الجهادِ بالمؤمنينَ الذينَ حَضَروا المعركَةَ بالأَمْسِ ، فَلَمْ يتردَّدْ أَحَدٌ ، وَسرْعانَ ما تَسارعوا ، لم يتخلَّفْ جريحٌ ولا صحيحٌ ، الكلُّ نَسيَ الجرحَ والدَّواءَ ، وأَسْرعَ للِّحاقِ برسُولِ اللهِ ﷺ . ومَشىٰ الجميعُ حتَّىٰ عَسكروا في مكانٍ اسْمُهُ (حمراءُ الأَسَدِ) علىٰ بُعْدِ ثمانيةِ أَمْيالٍ : (الاثْنيْنُ والثَّلاثاءُ والأربعَاءُ) ، أَمَرَ فيها الرَّسولُ أَصْحابَهُ أَنْ يجْمَعوا مِنَ الحطبِ كثيراً ، فيوقدوه لَيْلاً ، فكانَتِ النِّيرانُ تُرىٰ مِنَ البُعدِ البعيدِ ، وقد ملأَتِ الأَرْجاءَ بأَضْوائِها ، وخدعتِ العدُوَّ الذي ظَنَّ أَنَّ جُموعاً غفيرةً مِنَ المسلمينَ تزيدُ عن أُلوفٍ مؤلَّفةٍ تُلاحقُهم . وكانَ هـذا الظَّنُّ سَبباً لإمعانِ قريشٍ في السَّيرِ نَحْوَ مكَّةَ خائفةً مِنَ المنظرِ ، تحسبُ ما لا حقيقةَ لَهُ مِنْ كثرةِ عددِ المسلمينَ . .

غَزواتٌ مُفاجِئَةٌ

وأَخذَ رُؤساءُ قريشٍ يتلاوَمُون قائلينَ : [لَمْ نَصْنعْ شَيْئاً ، لَقَدْ أَصبْنا مِنَ المسلمينَ ، وأَصابوا منَّا] ، ولَمْ نستطِعِ القَضاءَ عَلَيْهم ، ومِمَّا زادَ

خوفَهم أنَّ قبيلَـةَ خزاعَةَ المسالمَةَ للنَّبيِّ ، قَدْ أَسْهمَتْ إسْهاماً كريماً في تخذيلِ قريشٍ ، وإبْعادِهـا عنِ الصُّمودِ لما رَأَتْهُ في حَمراءِ الأسدِ ، واطمأَنَّ الرَّسولُ ﷺ بعـدَ ذهاب قريشٍ نَحوَ مكَّةَ ، وعادَ إلىٰ المدينةِ أَرْفعَ رَأْساً وأَعزَّ جانِباً ، وبعدَ أيَّامٍ أرسَلَ مائةً وخمسينَ مِنْ أَصْحابِه ، وعلىٰ رأسِهم أَبُو سلمـةَ لِقتالِ بَني أسدٍ (القبيلـةِ التي فكَّرتْ وحاولَـتْ الإغارةَ على المدينةِ ، ونـوتْ شرّاً ضِدَّ الرَّسولِ) فعـادَ أبو سلمةَ ، وقَد شتَّـتَ شمْلَ القبيلـةِ ، وغَنِـمَ منْها الإبِـلَ والأنعـامَ ، ووصَـلَ مَعَ أصحَـابـه لَمْ يُجرحْ أحَدُهم جُرحاً ، وكذلكَ فعلَ الرَّسولُ بهذيلٍ فبعثَ إلىٰ قبيلَتِها مَنْ يقتلُ رئيسَها (خالدَ بْنَ سفيانَ) لغَدْرِه بالمسلمينَ ونيَّته العدْوانيَّة . .

شُهَداءُ الرَّجيعِ

إلاَّ أَنَّ أمراً لم يَكُنْ في حسـابِ رسـولِ اللهِ ﷺ ، فقبيلـةُ هذيـلٍ قَـدْ صَعُبَ عليها مقْتَلُ سيِّـدِها خالدٍ ، فأرسَلوا للمدينةِ مَـنْ يزعُمُونَ رغبةَ القومِ في الإسْـلامِ وأَنَّهم يريـدونَ أَنْ يُرسِـلَ إليهم الـرَّسُولُ رجـالاً مِنْ أصحابِهِ يعلِّمونَهم الـدِّينَ والقرآنَ ، فأَرْسَلَ النَّبيُّ معَهُـمْ ستَّةً مِنْ خِيرةِ أَصْحابِه ، فلمَّا كـانُـوا عنْدَ بئْـرٍ يُقَـالُ لَهَا : ماءُ الـرَّجيـعِ ، حَلَّ الغـدْرُ بالصَّحابـةِ المرْسَلينَ إلىٰ هذيلٍ ، وبانَ كَـذِبُ القومِ الذينَ لمْ يـرغَبوا في الإسْلامِ ، وإنَّما في الثَّأْرِ لمقْتَلِ شـيخِ قبيلةِ هذيلٍ ، ودافعَ المسلمونَ عَنْ أَنْفسِهم باسْتماتـةٍ وبطولةٍ ، حتّىٰ قُتِلوا إلا اثْنينِ منهُـم باعَهُما الغادِرونَ

إلى قريْشٍ واسْمُهما : (خُبَيب-وزَيْد) فاشْتَرىٰ الأوَّلَ (عقبةُ بْنُ الحارثِ) ليقتُلَه ثأراً لأبيهِ الحارثِ ، واشْتَرىٰ الثَّانيَ (صفْوانُ بْنُ أميَّةَ) ليقتُلَه ثأراً لأبيه أميَّـةَ بْنِ خلَفٍ ، وكانَ مقتلُهما حَـدَثاً عظيماً ارتجَّتْ لَهُ مَكَّـةُ . وتألَّمَ رسولُ اللهِ لمقتلِ شهداءِ الرَّجيعِ ومَكَّةَ ، فَهُم مِنْ خيرةِ القُرّاءِ . .

وَبِئْرُ معونَةَ

ولَمْ تكَـدْ نفْسُ رسـولِ اللهِ ﷺ ونفـوسُ أصحـابِه تهْدأُ قليـلاً مِـنْ أَلمِ حادثِ الـرَّجيعِ حتَّىٰ أَصَـابَهم حادثٌ أشَـدُّ وأَنْكىٰ ، (إنَّه حـادثُ بئرِ معَونَة) . وفي مكانِ هذهِ البئْرِ ، توقَّـفَ أربعونَ مِنْ صحابةِ رسولِ اللهِ ، ومِنْ خيـارِ المسلمينَ ، حيْثُ حـاصَرهم فرسانُ بني سُلَيمٍ ليقتُلـوهم غَـدْراً وخيانَـةً أَيْضاً ، ولمَّا يُؤَدّوا رسالَتهـم في الـوصُولِ إلى بَنـي عامـرٍ ليعلِّموهم الإسلامَ .

وبَعدَ حصارٍ وقتالٍ واستبسالٍ استشهدَ الصَّحابَةُ في بحرٍ مِنَ الدَّمِ ، ووصَلَ الخبرُ أَيْضاً إلى رسولِ الله ﷺ ، فحزِنَ علىٰ أَصْحابِهِ أَشَدَّ الحزْنِ ، ومكثَ نَحو شهرٍ يَدْعو على قتَلَةِ أصحابِهِ في بئرِ معونَةَ وفي الرَّجيعِ . .

إنَّهما حادِثـانِ وجُرحان بليغانِ ، ولمَّا تُشْـفَ بعْدُ جروحُ جولـةِ أُحدٍ . ونَزَلَ قولُ الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ . فسكنَتْ نَفْسُ الرَّسولِ ﷺ . .

وَغَدْرُ الْيَهُودِ

عددٌ غير قليلٍ إذاً قَدْ ماتَ أيضاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ في معونَةَ والرَّجيعِ ، وأصبحَ الرَّسولُ بعدَهُمْ حَذِراً أشَدَّ الحَذَرِ ، يَحسبُ الحسابَ لكلِّ طعنةٍ يمكنُ أَنْ تَأْتِيَ مِنَ الأعداءِ .. ثُمَّ أَفَلا يمكنُ أَنْ يغدرَ بِهِ اليهودُ؟ .

هذا صحيحٌ وممكنٌ ، فاليهودُ الذينَ غَدَروا بالرسولِ إثْرَ موقعةِ بدْرٍ أقرباءُ لليهودِ المتبقِّينَ في المدينةِ ، ولا نزالُ نَذْكُرُ بَني قَيْنقاعِ وفِعْلتَهم بعْدَ انتصارٍ عظيمٍ للمسلمينَ . وإنَّهم ليحقدونَ على الرَّسولِ ﷺ بعْدَ مقتلِ شاعِرِهم كعبِ بْنِ الأشرفِ ، وإجلائِهِمْ عَنِ المدينةِ . . ولا بُدَّ للرسولِ مِنْ أَنْ يَحتاطَ للأَمرِ ، ولا سيَّما بعْدَ جولةِ أُحُدٍ الثانيةِ ، وشماتةِ المنافقينَ وغَدْرِ القبائلِ ، وإنَّ الجُرْحَ لمَّا يَندمِلْ ، ولمَّا يلتئمْ بعْدُ . . والتاريخُ يشهدُ على اليهودِ مِنْ قَبْلُ في أَشْنعِ جرائمِهمْ وأعظمِ عُدْوانِهم على أنبياءِ اللهِ . . وعلى أصحابِ الحقِّ معاً .

بَنو النَّضيرِ

وصَدَقَ توقُّعُ رسولِ اللهِ ﷺ . فها هُوَذا في نفرٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، فيهم أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ ، يأتُون بني النَّضيرِ في أمرِ معونةٍ فيما بينهم ، فقالَ الزُّعماءُ مِنْ بني النضيرِ : (سنعينك يا محمَّدُ على ما أحببتَ)، ثُمَّ خَلا بعضُهم إلى بعضٍ ، فقالوا : مَنْ رجُلٌ يعلُو هذا البيتَ ، فيُلقي على

محمَّدٍ صخرَةً فيُريحنا منْهُ ؟ فانتدب لذلكَ أحدُهم وهُوَ يقولُ : أنا لذلكَ ، فَصعدَ ليُلْقيَ عليْهِ صخرةً كما قالُوا واتفقوا ، والرَّسولُ الآنَ مستنِدٌ إلى جدارِ ذلكَ البيْتِ ، فنزَلَ جبريلُ مِنَ السَّماءِ يخبرُ الرَّسولَ بما ينْويهِ بنُو النَّضيرِ بقيادةِ زُعمائِهم ، فخيانةُ الزُّعماءِ والأتباعِ واحدةٌ . وأصبحَ الرسولُ على علمٍ بنيَّةِ الغَدْرِ فقامَ مِنْ فَوْرِهِ ، وعادَ مِنْ حَيْثُ أتَىٰ ، وقَدْ أدركَ ما يهمُّ بِهِ الزُّعماءُ باسْمِ القبيلةِ كُلِّها ، فَطابَعَ الجريمةِ إذاً لمْ يأْخُذْ سِمَةً فرديَّةً ، إنَّما كانَ ذلكَ ينبُعُ مِنْ حقدِ بني النَّضيرِ على المؤمنينَ ونَبيِّهمْ .

تفكيرٌ في الأمْرِ

وفكَّرَ الرَّسولُ ﷺ في الأَمْرِ مَعَ أصحابِهِ ، بعْدَ أنْ أعلمَهم ، وحمدَ اللهَ أنْ أنجاهُ مِنَ القَتْلِ ، ونزَلَ القَوْلُ مِنَ اللهِ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

إنَّ بقاءَ بني النَّضيرِ في المدينةِ ، قَدْ بَدا خطراً على رسولِ اللهِ وعلى الدَّعْوةِ الإسلاميَّةِ ، فَلا بدَّ مِنْ إخْراجِهم وإجْلائهم ، إنَّه لا مَعْنى للانتقامِ مِنْ قبيلةٍ بأكْملِها لشخصِ رسولِ اللهِ فحسْبُ فالرَّسولُ أكرمُ مِنْ أنْ ينقمَ على الكثيرِ لوْلا أنْ بدتِ الخيانةُ والغدْرُ ضِدَّ ما يتمثَّلُ في شخْصِ الرَّسولِ ، ولما في قتْلِهِ مِنْ خطرٍ أكيدٍ على المسلمينَ بعْدَ الذي أصابَهم في أُحدٍ والرَّجيعِ ومعونَةَ . والصَّوابُ الآنَ أنْ يُنْذِرَهم الرَّسولُ

ويُخرجَهم بعْدَ الإنْذارِ إنْ رَفَضوا ، ولَوْ بـالقوَّةِ . إنَّهُ الحلُّ الوحيدُ ، وإنَّما لفرصَةٌ لكيْ يَسْترجع المسلمونَ بعْضَ قُوَّتِهم المفقودَةِ يوْمَ أُحدٍ ، فيرهَبُهم الأَعداءُ . .

إنْذارٌ وتَهْديدٌ

وهَذا ما حَدَثَ . . فقَدْ أرْسلَ إليهمُ الرَّسولُ أَحَد صَحابتِهِ ، وهُوَ (محمدُ بن مَسْلمة) في رسالةٍ تقولُ : (اخرُجوا مِنْ بَلَدي فلا تُساكنوني بها ، وقد همَمْتُم بما هممْتُم بِه مِنَ الغَدْرِ ، وقَدْ أَجَّلْتُكم عَشراً – أيْ عَشرةَ أيَّامٍ – فمنْ رُئيَ بعْدَ ذلكَ ضرِبَتْ عُنقُهُ) ، فمكثُوا على ذلكَ أَيَّاماً يتجهَّزون خائفينَ ، فأرْسلَ إليهمْ رَأْسُ النِّفاق عَبْدُ الله بْنُ أُبي أنْ لا تخْرجوا ، وسَوْفَ أُساعدُكم مَعَ بَني قُريظةَ ضِدَّ محمَّدٍ . فطمعَ بَنُو النَّضيرِ بهَذا ، وأرْسلوا جوابَهم إلى الرَّسولِ أنَّ اليهودَ لَنْ يخْرجوا فاصْنعْ ما بَدا لَكَ ، وهُنا لَمْ يَعُدْ أمامَ الرَّسولِ إلا الحربُ معَهم . وحمَلَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رايةَ الجيْشِ ، وقادَ رسولُ اللهِ جُنْدَهُ نَحْوَ بَني النَّضيرِ ، فلمَّا رَأوا رسولَ اللهِ مُقْبلاً نحوَهُم بجيْشِه ، قامُوا على حُصونِهم ومَعهم النَّبلُ والسِّهام والحجارةُ، وانْتظروا المدَدَ مِنْ بني قريظَةَ والمنافقين، ولكنْ هَيْهاتَ .

إلى خَيْبَرَ

ويَئِسوا أخيراً مِنَ النَّصرِ بعْدَ أنْ حاصَرهم رسولُ اللهِ ، وقطَعَ نخْلَهم ، فقَالوا : نخرُجُ مِنْ بلادِكَ ، فاشْتَرطَ عليهمْ أنْ يخْرجوا بأَنْفسِهم ، وما

تَحْمِلُه إبلُهم مِنْ أموالِهم ، وأَنْ يَتْركوا السِّلاحَ في مكانِهِ لا يَحْملونه ، واضْطرَ اليهودُ لتَنْفيذِ ذلكَ ومَشوا مَعَ نِسائِهم وصِبْيانِهم ، وحَمَلوا ستَّمائةِ بعيرٍ ، وساروا إلى خَيْبر في الشمالِ ، وهُناكَ أقام أكْثرُهم ، تاركينَ أَراضيهم وبُيُوتاتِهم في المدينةِ ، تحملُ اللَّعنَةَ عليهمْ ، وتَضعُ حدّاً لغَدْرِهم وخِيانتِهم .

وانْخذل بذلكَ مَنْ بقيَ في المدينةِ مِنَ اليهودِ وعرفَ ابْنُ أُبيّ أنَّ وعدَهُ لبَني النَّضير كانَ في غيْرِ أَوانِه ، ولو نفَّذَه لفشِلَ ، وخابَ فوْقَ خيْبتِه . وصَدقتِ الآيَةُ الكريمةُ التي نزَلتْ ضِدَّ الغادِرين حيْثُ أَرادوا أنْ يَقْتلوا رسولَ اللهِ ﷺ ليُطفئوا نُورَ اللهِ ونورَ الإسْلامِ حَسب زَعْمِهم ، ولكنَّ اللهَ يَأْبىٰ إلا أنْ يتمَّ نورَهُ ، ولو كرِه الكافرون .

غَنائمُ وافِرَةٌ

ودَخلَ الجيْشُ المسْلِمُ إلى أراضي بني النَّضيرِ الخاويةِ مِنَ السُّكانِ ، وجَمَعوا ما ترَكَهُ اليهودُ مِنْ أَمْوالٍ كثيرةٍ لا تُحصى ، وأسلحةٍ عديدةٍ ، زيادَةً على الدُّورِ والمساكنِ ، فأرْسلَ رسولُ اللهِ ﷺ وراءَ الأنصارِ ، ولمَّا اجْتمعوا حَمِدَ اللهَ وأَثْنىٰ عليْه ، وذَكَرَ جميلَهُمْ مَعَ المهاجرين زَمَنَ الهجْرةِ مِنْ ثلاثِ سنينَ وحتَّىٰ اليوْمِ . ثُمَّ قالَ : (إنْ أَحْببْتم قسمْتُ بينكُم وبَيْنَ المهاجرينَ ما أفاء اللهُ عليَّ مِنْ بني النضيرِ ، وإنْ أحْببْتم أعطيتهم، وخرجوا مِنْ دُورِكم) أي : وَسَّعوا عليكمْ ، وكانَ جوابُ الأنصارِ

جَميلاً، فهُمْ أصحـابُ الجميلِ دَوْماً ، نَصرُوا اللهَ ورسولَـه ، أَفَلا يَنْصرونَ المهاجرينَ ؟ لقَـدْ قالُوا : رَضِينا يا رسولَ اللهِ بما تُـريدُ ، فقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ لهُمْ : « اللّهمَّ ارْحَمِ الأَنْصارَ وأَبناءَ الأنصارِ » .

وهكذا تَمَّتِ الفرحةُ ، ووسَّعَ اللهُ علىٰ الأنصارِ والمهاجرينَ في المسْكنِ والأموالِ والسِّلاحِ والزَّرعِ . .

الْتِئامُ الْجُرُوحِ

وكـانَتْ غـزوةُ بنـي النَّضيرِ مَغْنَماً خَالِصـاً ، وقـوَّةً وهَيْـبَةً إلى جانِـبِ المسلمينَ، تَـمَّ بها التئـامُ الجروحِ كُلِّها ، ولِمَ لا يكـونُ ذلكَ وقَـدْ وَفَّقَ اللهُ المسلمينَ في أَنْ يخطوا الْخطوةَ الحازِمَةَ الموفَّقةَ ، وأَنْ يَضْربوا الضَّربَةَ التي أَصـابَت اليهـودَ والمنـافقينَ مَعـاً ، فانْكسرتْ بـذلـكَ شـوْكةُ الكُفْـرِ ، وامتلأتِ القلوبُ الكافرةُ بالرُّعبِ ، فالحمدُ للهِ .

ومَرَّتْ مـرحلةُ هدوءٍ علىٰ المدينـةِ ، واسْتَطاعَ الرَّسـولُ ﷺ خلالَها أَنْ يلتفِتَ إلى تـأْديبِ مَـنْ حَوْلَ المدينـةِ مِنَ القبـائِلِ الثَّائرةِ عليْـهِ . وهَذا التَّأْديبُ سنَلْتقي مَعَ حكايتِـهِ إنْ شَاءَ اللهُ في الصَّفحاتِ القادمةِ . . مِنْ هذِه السلسلةِ الطَّيِّبةِ . .

وشُكْراً لكم صَبْرَكم علىٰ قراءَتكـم وتفكيركم ، وهو أَدْعى إلى حُسْنِ فَهْمِكُمْ . .

تأديبُ العُصاة

خافَ الأَعْداءُ

لَقد كانَ غَدْر اليهودِ وَبالاً عليْهم ، هٰذا ما عَرفْناه تَماماً يا أَحبَّتي في القِصَّةِ السَّابقـةِ . . التي تحدَّثْتُ لكُمْ في صفحاتٍ منْها عَـنْ غزْوَةِ بني النَّضيرِ الحادثةِ في ربيعِ الأَوَّلِ مِنَ السَّنةِ الرابعةِ للهجْرة . لَمْ يَعُدْ بعدَها لأَحدٍ في المدينـةِ أَنْ يرفَعَ رأْسَـهُ جهارةً ليتحدَّىٰ رسولَ اللهِ والمسلمينَ ، فلقَـدْ كانَـتِ الغـزوةُ ضروريَّـةً في نهايةِ آثارِ معركةِ أُحدٍ ، وبها خطا المسلمونَ خُطوةً حازمَـةً موفَّقَـةً كانَـتْ ضربةً في الصَّميمِ ، أصابَتِ الأَعْـداءَ في المدينـةِ بيْنَ منـافقينَ ويهودٍ باقين ، فكسَرتْ شوكَتَهـم ، وامتلأَتْ قلوبُهم رُعْباً . وتصوَّروا الآنَ معي يا أعزائي وقَدْ هدأَتِ المدينةُ وأَصْبَحَ البابُ مَفْتوحاً للرَّسولِ ﷺ وأَتباعِهِ ليخْرُجوا في تأْديبِ مَنْ بَقيَ مِنَ القبـائلِ الثَّائرةِ عليهم مِـنْ أَعْرابِ الباديَـةِ حولَ المدينةِ . وتـأْديبٌ كَهذا سينْجحُ إلى حدٍ كبيرٍ في استرجاعِ الهيْبةِ كاملةً أمامَ العربِ .

ذاتُ الرِّقاعِ

وبَدأَ الرسولُ هٰذِهِ العمليَّةَ بغزوةِ ذاتِ الرِّقاعِ ، وقَدْ حدثَتْ كما يلي :

(في جُمادىٰ الأُولىٰ مِنَ السَّنَةِ الـرابعةِ للهجْرةِ عَلِمَ رسولُ اللهِ أَنَّ بَني

محارِبٍ وبَنـي ثعلَبَـةَ يَتهيَّـؤُون لحربِـهِ ، فَسـار إليهـم في سبعِمئـةٍ مِـنْ أَصْحابِـهِ، ولَقِيَ جَمْعاً عَظيماً منْهُم في مكـانٍ اسمُهُ (نَخْـلٌ) ؛ ولكِنْ لَمْ تحْدُثْ قِتالٌ ، ولَمْ يكُـنْ بينَهُـمْ حرْبٌ ، ويقـالُ : إنَّ شَجراً هُنـاك يسمَّىٰ (بذاتِ الرِّقاع) قَدْ أُخِذَ اسمُهُ لتُسمَّىٰ الغزوةُ باسْمِهِ . واضْطرَّ الصَّحابةُ رضْوانُ اللهِ عَلَيْهم إلىٰ حراسَةِ رسولِ اللهِ ﷺ حـراسَةً مشدَّدَةً خوْفاً عليْهِ مِنْ أَنْ يَصِلَ إليْهِ أَحدٌ مِنَ المشركينَ الأَعْداءِ .

كَما اضطُرَّ رسـولُ اللهِ ﷺ أَنْ يصلِّيَ بالنَّـاسِ صـلاةَ الخوْفِ ، وهـي صلاةٌ للحروبِ خاصَّةً ، إذا خافَ المسلمـونَ عدوَّهُم أَنْ يَغْدِرَ بِهم مِنَ الأَمامِ أَوْ مِنَ الخلْفِ أثناءَ أَداءِ فريضَةِ الصَّلاةِ .

صُورَةُ الإِخْلاصِ

وفي هَذِهِ الغزوةِ اسْتَطاعَ المسلمـونَ بقيادةِ رسولِهِم أَنْ يُعطوا المشركينَ مِنْ بَني ثَعْلبةَ ومحاربٍ دَرْسـاً بأَنَّ المدينةَ لَنْ يَسْهُلَ غزْوُهـا ، وأَنَّ الدِّفاعَ عَنْها سَيبْقىٰ مُسْتمرّاً ، لتبْقىٰ الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ سالمةً مِنْ كُلِّ مسٍّ ومِنْ كُلِّ أذىٰ.

وحَدَثَ أَنْ وقَفَ رجلٌ مِنَ الأَنصارِ مَعَ رجـلٍ مِنَ المهاجرين يحْرسانِ مدْخَلَ شِعْبٍ نَزَلَ بـهِ رسولُ اللهِ ، فأَتىٰ واحِدٌ مِنَ المشركينَ يريـدُ قَتْلَ الرسـولِ ﷺ ، ولَمَّا وَصَلَ وَجَدَ الأنصـاريَّ واقِفاً يُصلّي والمهاجِـرَ نائماً ، وعَلىٰ ما يبْدو أَنَّ دَوْرَ الحراسةِ كانَ مِنْ نصيبِ الأَنْصاريِّ ، فرمىٰ المشْرِكُ

سَهْماً أصابَ الحارِسَ ، ثُمَّ سَهْماً ثانياً ، وصَمَدَ الأَنْصاريُّ دُون أَنْ يُوقِظَ أَخاه المهاجِرَ ، وما هيَ إلاّ دقائقُ حتَّىٰ وَثَبَ المهاجِرُ قائماً ، فهرَبَ المشرِكُ خَوْفاً دُونَ أَنْ يَنالَ غايَتَهُ ، ولَنْ ينالَها مشركٌ غيرُهُ .

وَصُورَةُ الثِّقَةِ

وفي هذه الغَزْوةِ أيْضاً صادَفَ أَنْ جَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ في ظلِّ شَجَرةٍ يستريحُ قليلاً ، وعَلَّقَ سَيْفَهُ في فرعٍ منْ فُروعِها ، فتسلَّلَ إلى مكانِهِ رجُلٌ مِنَ الأَعداءِ ، فأَخَذَ سَيْفَ رسولِ اللهِ ، فانْتَبهَ رسولُ اللهِ فإذا الرَّجلُ قائمٌ ، وقد أَخَذَ السَّيفَ المعَلَّقَ ، واستَلَّهُ علىٰ رسولِ اللهِ قائلاً : مَنْ يَمْنَعُكَ منِّي ؟ فقالَ الرَّسولُ : (الله) . وهٰذا هُوَ الصَّحيحُ يا إخوتي ، فإنَّ اللهَ وَعَدَ رسولَهُ بأَنَّ العدوَّ لَنْ يصِلَ إلى عُنقِهِ أبداً ، أيْ لَنْ يتمكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وعندَما نطَقَ الرَّسولُ بكلمتِهِ : (الله) تحيَّرَ المشركُ ، سَقَطَ السَّيفُ مِنْ يَدِ المشرِكِ ، فأَخذَهُ رسولُ اللهِ ورفَعَهُ علىٰ رأسِ المعْتدي ، وقالَ : مَنْ يمنعُكَ منّي ؟ فأدْرَكَ المشرِكُ حقيقةَ الأَمْرِ ، وقالَ : كُنْ خيرَ آخذٍ لي ، فَعفا عَنْهُ ﷺ ، فأَسْلَم الرجلُ ، وجاءَ قومَهُ فَدعاهم إلى الإسلامِ قائلاً : جِئتكم منْ عِنْدِ خيرِ النَّاسِ .

بَدْرُ الآخِرَةُ

وللرَّسولِ ﷺ مَعَ أَبي سُفْيان مَوْعِدٌ ، فقَدْ قالَ أبو سفيانَ في نهايةِ جَوْلةِ أُحُدِ الثّانيةِ كما تذْكُرون : (مَوْعِدُنا العامُ القادِمُ في بَدْرٍ) ، فوافَقَ

علىٰ ذلكَ رسولُنا ﷺ قائلاً : (هُوَ بَيْننا وبَيْنكم موعِدٌ) .

وبعْدَ غزوةِ ذاتِ الرِّقاعِ بشَهْرَيْنِ ، خَرَجَ الرّسولُ في شَعبانَ إلى بدرٍ ، ومَعَهُ ألفٌ وخمسُمئةٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، ووَصلوا بَدْراً على مَوْعِدِهِم ، فَلَمْ يجدوا أثَراً لأَبي سفيانَ أو لقريشٍ أبداً ، لأنَّ أبا سفيانَ خَشِيَ مِنَ اللِّقاءِ فرجَعَ بقومِهِ مِنَ الطَّريقِ ، وهُوَ ينصَحُ لهم بعدَمِ القِتالِ مَعَ محمَّدٍ ، فرجَعُوا معَهُ مَخْذولينَ فارِّينَ مِنْ لقاءِ الخَصْمِ ، حَتَّىٰ سمَّاهُم أهلُ مكَّةَ (جيْشَ السُّوَيْقِ) يقولُونَ في تهكُّمٍ وسُخْرِيَةٍ : (إنَّما خرجْتُم تشْربونَ السُّوَيْقَ) . وانْتشرَتْ سمعَةُ الغزوةِ ، فانهارَ افتخارُ قريشٍ بنصْرِ أُحُدٍ ، وعادَ الرَّسولُ رابحاً مِنْ سُوقِ بدْرٍ ، مُسْتعيداً هَيْبَتَهُ بَيْنَ القبائلِ .

مرحلةُ هُدُوءٍ

وعادَ المسلمونَ مَعَ رسولِهم إلى المدينةِ أكثرَ اطمئناناً وأَمْناً ، فأقاموا بالمدينةِ ستَّةَ أشْهرٍ ينعمونَ بأيامِ هدوءٍ وسلامٍ ورخاءٍ .

والمسلمونَ قَدِ استحقُّوا هٰذا الأمنَ لمدّةٍ ليسَتْ بالقليلةِ شُهورُها ، واللهُ أنْعمَ عليهم بفضْلِهِ ، وأفاضَ عَلَيهم مِنْ كَرَمِهِ محبَّةً فيما بيْنَهم ، تزيدُ محبّتَهم الأُولىٰ ، وتُرسِّخُ دعائمَ الأُخوّةِ والقرابةِ الدّينيّةِ .

ومرحَلَةُ الهدوءِ يا أحبَّتي تَعْني أيضاً الاستعْدادَ ، فلا ينْبغي للمؤمنِ أَنْ يتهاونَ في الذّودِ عَنْ حِماهُ ، حَتّى ولَوْ لَمْ يتحرّكْ جيشٌ مُعادٍ ضدَّ

المسلمينَ ، وهٰذا ما فعلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأصْحابُه ، فعُيونُهم دائماً يقظةٌ في الحربِ ، وفي السِّلمِ ، في القِتالِ وفي الهُدوءِ .

وبعد شهورِ الهدوءِ هذِهِ ، أحبَّ رسولُ اللهِ أَنْ يستمرَّ في حملةِ التَّأديبِ ضِدَّ العُصاة الذينَ يوسوِسُ لهُمُ الشَّيطانُ فِعْلَ السُّوءِ ضدَّ المسلمينَ .

دَوْمَةُ الجَنْدَلِ

ففي ربيعِ الأوَّلِ مِنَ السَّنةِ الخامسةِ للهجرةِ وصَلَ إلى سَمْعِ رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّ جماعةً مِنَ الأعرابِ على حُدودِ الشَّامِ في منطقةٍ اسمُها (دومَةُ الجنْدلِ) يفْسِدونَ في الأرْضِ ويَقْطعونَ الطَّريقَ ، ويَسْلبونَ الأمْوالَ ظُلْماً وعُدْواناً ، وأنَّهم يريدونَ أنْ يدْنوا مِنَ المدينةِ ليغزُوها . فخرجَ الرَّسولُ في ألفٍ مِنْ أصحابِه ، متخفِّياً في غيرِ الطَّريقِ المألوفةِ ، ووصلَ المكانَ بَعْدَ خمسَ عشْرَةَ ليلةً ، وما أَنْ أحسَّ الأعرابُ هُناكَ بمقدمِهِ ووصولِهِ حتَّى أصابَهُمُ الرُّعبُ الشَّديدُ ، فتفرَّقوا في أنْحاءَ عديدةٍ تاركينَ السَّاحةَ لرسولِ اللهِ خاليةً مِنْ وجُودِهم ، غنيَّةً في الأمْوالِ والأنعامِ ، فأرسلَ الرَّسولُ وراءَهم عدَداً مِنْ أصْحابِهِ فرجَعوا إليهِ سالمينَ يأْسِرونَ رَجُلاً أَسْلَمَ مُقْتنِعاً بعْدَ أَسْرِهِ ، فعفَا عنْهُ الرَّسولُ ، وعادَ الرَّسولُ مَعَ أصحابِهِ ، وقَدْ أمِنَ جانِبَ الأعرابِ هؤلاءِ ، وأرْهَبَهُمْ ، وغَنِم وفيرَ أمْلاكِهم وأمْوالِهم .

بَنو المصْطَلِقِ

وما أَنِ استَقَرَّ الأمْرُ بالرَّسولِ ﷺ مِنْ جديدٍ حتَّى عَلِمَ في شعبانَ مِنَ السَّنةِ ذاتِها أَنَّ بَني المصْطَلِقِ برئاسةِ الحارثِ بْنِ أبي ضِرارٍ يتجمَّعونَ لحربِهِ فخرجَ إليهم في جمعٍ كثيرٍ ، ومعه زوجتُه عائشَةُ بنْتُ أبي بكرٍ ، وسارَ حتَّى وصلَ إلى ماءٍ لهم يُسمَّىٰ (المرَيْسِيع) ، وهناكَ التَقىٰ بالحارثِ ورجالِهِ ، واصطفَّ الفريقانِ للقتالِ فأمَرَ الرَّسولُ عُمرَ بْنَ الخطَّابِ أَنْ يُناديَ في القَوْمِ : (قولوا : لا إلهَ إلا اللهُ تَمْنَعوا بها أنفسَكم وأمْوالَكم) . فأَبَوا أَنْ يقولوها ، وتراشَقَ الجمْعانِ بالنَّبْلِ والسِّهامِ ، ثُمَّ حمَلَ الصَّحابةُ على الأعداءِ حملةً صادقةً وكأنَّهم رجلٌ واحدٌ فقتَلوا منهم عشَرةً ، وأسَروا كُلَّ مَنْ بقيَ أو حاولَ الهربَ على الرَّغمِ مِنْ كثرتِهم ، وغَنِم المسلمونَ مِنَ الإبلِ (ألفَيْن) ومِنَ الشَّاةِ (خمسةَ آلافٍ) .

وفكَّرَ الرَّسولُ في الأَسْرىٰ أنْ يعامِلَهم بالحُسْنىٰ ، فأعْتَقَ جويريَةَ بنتَ الحارثِ زعيمِهم ، وتزوَّجَها ، فأسْلَمَ أكثرُهم .

إثارَةُ الفِتْنَةِ

واغْتاظَ المنافِقونَ لانْتِصارِ المسلمينَ في هذِه الغزوةِ الموفَّقةِ ، فحاولوا كلَّ جُهدِهِمْ أن يُذْهِبوا فرْحَةَ الانْتصارِ وبَهْجَةَ الفرحةِ بما أثاروهُ مِنْ فتنةٍ بيْنَ المسلمينَ ، حيْثُ أنَّ رَجُلاً مِنَ الأنصارِ اختَلفَ مَعَ رَجُلٍ مِنَ المهاجرينَ (على ماءٍ) ، وأوْشكَ الطَّرفانِ أنْ يقْتَتِلا ، وصَرخَ الأوَّلَ :

(يا للأنْصارِ) ، وصرخَ الثّاني : (يا للمهاجرين) ، فاجْتَمعَ المهاجِرونَ والأَنْصارُ الذينَ فَرِحوا قبْلَ قليلٍ في انْتِصارِهِم ، وكادَتْ أَنْ تحدُثَ فتنةٌ يحِبُّها المنافقونَ ، لوْلا أَنْ خرجَ رسولُ اللهِ مُسْرِعاً وَهُوَ يَنْهاهُم ويُحذِّرُهُمْ مِنْ أُمُورِ الجاهليةِ قائِلاً :(دَعُوا هذِهِ الكلمةَ فإنّها مُنْتنة) أَيْ : إنَّ الذي يَنْسىٰ رابطةَ الأُخوّةِ في العَقيدةِ ويستَنْهِضُ عليْها رابطَةَ الأَرْضِ والقبيلةِ والدَّمِ والقوميَّةِ والعنصريَّةِ ، فإنَّهُ بذلكَ يَهْدِمُ رُكْناً عَظيماً مِنْ أَرْكانِ الإسلام ، وانْتهى الأَمْرُ عَلىٰ غيظٍ مِنَ المنافقينَ ، فقدْ فَشِلَتْ خِطَّتُهم . .

حَديثُ ابْنُ أُبَيّ

وراحَ زعيمُ النِّفاقِ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيّ يعنِّفُ الأَنْصارَ لأَنَّهم سكتوا عَنِ الفتْكِ بالمهاجِرينَ ، وصعُبَ عليْهِ أَنْ تَنْطفِئَ الشَّرارةُ قبْلَ أَنْ تُحْدِثَ حَريقاً شامِلاً ، وها هُوَذا يقِفُ بيْنَ المنافقينَ يقولُ : واللهِ ما رَأَيْتُ مَذَلَّةً كالْيَومِ ، قَدْ جاؤوا إلى بِلادِنا مِنْ مَكّةَ ، فأَطْعمناهُمْ وكَسَيْناهُم وأَسْكنّاهم، فما كانَ منْهُم إلا أَنِ انقلبوا عَلَيْنا ليأكُلونا ، وإنَّ مَثَلَ المهاجرين مَعَنا كَمَثَلِ كلبٍ أسمَنْتَهُ ليأكُلَكَ ، ونحنُ الذين سنُخْرِجُهُم، فعنْدَما سَنَرجعُ إلىٰ المدينةِ سَيَعْلمُ المهاجِرونَ مَنِ العزيزُ ؟ وَمَنِ الذّليلُ ؟ وسَيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ منْها الأَذَلَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلىٰ الأَنْصارِ مُغْتاظاً وهُوَ يقولُ : تقْتلون أَنْفُسَكُم مِنْ أَجْلِهم ، وَقَدْ فعلْتُمْ بِهِمْ ما

فَعلتُمْ مِنَ النِّعمِ ، أَما واللهِ لو أَمْسَكْتُم عَنْهم ما بأَيْديكم لتَحوَّلوا إلى بلادٍ غيرِ بلادِكُمْ ، فلا تُنْفقوا عليهم حتَّى ينفضُّوا ، أي : (افعلوا هذا مِنْ أجلِ أنْ يرحلواعنّا) .

ويَغْضَبُ الرَّسُولُ ﷺ

ومِمَّنْ سَمِعَ هَذا الكلامَ المنتِنَ مِن ابنِ أُبيّ غلامٌ صغيرٌ اسمُهُ (زيْدُ بْنُ الأَرْقم) ، وَعَتْ أذنُهُ ما سَمِعَهُ ، فحدَّثَ بِهِ الرَّسولَ ، وكانَ الرَّسولُ وقتذاكَ مَعَ نَفَرٍ مِنَ المهاجِرينَ والأنصار ، فتغيَّرَ وجْهُهُ ، وتحقَّقَ مِنَ الخبرِ عِدَّةَ مرّاتٍ ، ثُمَّ قالَ لعمرَ : (أَذِّنْ بالرَّحيلِ) ، وسارَ الجمعُ عائِداً نحوَ المدينةِ ، ويقتربُ أسيْدُ بْنُ حضيرٍ مِنَ الرَّسولِ يَسْأَلُهُ عَنْ سببِ الرَّحيلِ في مثْلِ هذِهِ السّاعةِ ؟ فقالَ لَهُ : أَوَ ما بَلَغَكَ ما قالَ صاحِبُكُم؟ (يَعْني عَبْدُاللهِ بْنُ أُبيّ) قالَ : وما قالَ ؟ قالَ الرَّسولُ ﷺ : زَعَمَ أَنَّه إنْ رجَعَ إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ منها الأَذَلَّ ، قالَ أسيْدٌ : فأَنْتَ يا رسولَ اللهِ تخرجُهُ منها إنْ شِئْتَ ، وهُوَ واللهِ الذَّليلُ ، وأَنْتَ العزيزُ ، يا رسولَ اللهِ ، ارفقْ بِهِ فواللهِ لَقَدْ أَتَيْتَ إليْنا مِنْ مكَّةَ في وقتٍ كانَ قومُهُ ينظمونَ لَهُ الخرزَ ليتوِّجُوهُ مَلِكاً علينا، فأَغْنانا اللهُ بِكَ عَنْهُ .

الولَدُ البارُّ

وشتّانَ ما بَيْنَ عبدِ الله بْنُ أُبيّ ، وما بيْنَ ولدٍ لَهُ اسْمُهُ عبدُاللهِ أَيْضاً ، فقَدْ جاءَ هذا الولدُ إلى رسولِ اللهِ يقولُ : يا رسولَ اللهِ لقَدْ بلَغَني ما قالَهُ

أَبي ، فَهلاَّ أَمَرتني أَحمِلْ إليكَ رأسَهُ ؟ فوَاللهِ ما عَلِمتِ الخزْرَجُ وَلداً أبرَّ بوالِدِهِ منِّي ، وإنِّي أَخشىٰ أَنْ تَأْمر بِهِ غَيري فيقتُلَهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (بَلْ نترفَّقُ بِهِ ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ما بقي مَعَنا) .

إنَّ رسولَ اللهِ لَيَحملُ حَقَّاً قَلْباً بارّاً بأَصْحابِهِ ، ولَوْ أَرادَ قتْلَ ابنَ أُبيّ لأَمرَ أيَّ رجلٍ منْ أَصْحابِهِ ، ولكنْ خَشِيَ الرَّسولُ يا أَحبَّتي أَنْ يُقالَ عَنْهُ: إنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَهُ ، وحسبَ حسابَ الفِتْنَةِ التي تَنْشأ مِنْ قَتلِ رئيسِ المنافقينَ . . ورسولُ اللهِ يعْلمُ أَنَّ ما فعلَهُ ابنُ أُبيّ لَيْسَ جَديداً، فَقَدْ عرفَ التَّاريخُ عبْدَاللهِ رَأْساً للنِّفاقِ وسَبباً في انْسِحابِ ثُلُثِ الجيشِ قَبْلَ غَزوَةِ أُحدٍ ومُعيناً لليهودِ في عِدائِهم قَبْلَ غَزْوة بَني النَّضِيرِ .

تَأْديبٌ رائِعٌ

وَجَعَلَ رئيسُ النِّفاقِ بعدَ ذلكَ إذا أحْدَثَ مُنْكَراً ، يَرىٰ مَنْ حَوْلَهُ يُعاتبونَهُ ، ويَأْخذونَهُ باللَّوْمِ والتَّعْنيفِ على فَعْلتِهِ للمُنكَرِ .

إنه تأديبٌ مِنَ القومِ أَنْفُسِهم ، لم يحْتجْ رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ دفاع عَنْ عِزَّتِهِ وعِزَّةِ المهاجرينَ والأَنْصارِ . ومَعَ أَنَّ زعيمَ النِّفاقِ قد حَلَفَ كَثيراً، وأَقْسَمَ إنَّه لَمْ يتكلَّمْ ذلكَ الكَلامِ ، إلا أَنَّ اللهَ أَصْدقُ منْهُ ، وسورةُ (المنافقون) في القرآنِ قَدْ نَزَلَتْ لِتُكَذِّبَ كلامَ المنافقِ ، وتروي تأديب قومِهِ لَهُ . ومَعَ ذلكَ لَمْ يَنْتهِ حِقْدُ عبدِاللهِ ، ووصَلَ بِهِ الأَمْرُ أَنْ دَنَّسَ

بكلامِهِ أطهَرَ البيوتِ في المدينةِ وأقدسَها وأعظمَها مكانةً في قلوبِ المسلمينَ ! بعْدَ أَنْ فَشِلَ بمحاوَلَتِهِ إثارَةَ العصبيَّةِ المُنتنةِ بيْنَ أَفرادِ المجتمعِ المُسْلمِ المتآخي على العقيدةِ الإسلاميَّةِ .

إلىٰ حديثِ الإفْكِ

وعليكُمْ يا أحبَّتي أَنْ لا تَسْتغرِبوا ما يَفْعلُهُ إنسانٌ حاقِدٌ منافِقٌ يَغْلي في صدْرِهِ الغيظُ ، فيكادُ يتقطَّعُ حِقْداً وحَسَداً . انْتقلوا معي الآنَ إلى حكايةِ (الإفكِ) . . في حَلْقَتِكُمُ القادمةِ لتعْرفوا شَيْئاً عَنِ الأُكْذوبةِ الخطيرةِ التي كادَتْ أَنْ تَخلقَ فتنةً كبيرةً في مجتمعٍ طاهرٍ نظيفٍ مُقدَّسٍ . اقرؤوا القصَّةَ أيُّها الأحبَّةُ الطَّاهرونَ ، وحافظوا على طهارَةِ قلوبِكُمْ مِنْ أَنْ يَصِلَ إليها مَسٌّ مِنَ النِّفاقِ والكذبِ . . والقصَّةُ الجديدةُ هي تتمَّةٌ لحوادثَ أَعْقَبَتْ غزْوةَ بني المصْطَلِقِ التي عرفتُمْ فيها انتصارَ رسولِ اللهِ ﷺ والمسلمينَ ، وإسلامَ القومِ الذين أسرَهُم رسولُ اللهِ وأَصْحابُه الأبطالُ . إلىٰ اللقاءِ الآنَ في حلقةٍ جديدةٍ والسَّلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ .

* * * * * *

قصص السيرة النبوية

٤١

حديث الإفك

الفِتْنَةُ غايَتُهم

عرَفْتُم يا أحبّتي أنَّ المنافقينَ في الحلقةِ الماضيةِ قَدْ فَرِحوا كثيراً عنْدَما اختلف صَحابيٌّ مِنَ الأَنْصارِ مَعَ صحابيٍّ آخَرَ منَ المهاجرينَ ، وعَلِمْنا أَنَّ رئيسَ النِّفاقِ عبْدَاللهِ بْنَ أُبيٍّ قَـدْ حاوَلَ أَنْ يُثيرَ الفِتْنَةَ ، ويُشْعِلَ النّارَ مِنْ هـذِهِ الشَّرارةِ التي حـدثَتْ ، لِذٰلـكَ راحَ ينتقلُ مِـنْ جمعٍ إلى آخَرَ ، يُذْكي فيهمُ اللَّهيبَ ، ويُقَوّي نارَ الحقْدِ والبغْضاءِ ، وحقّاً أيُّها الأحبَّةُ إنَّ الفتنةَ غايتُهم ، فأينما وَجَدوا لها باباً فَتَحوه ، وإنْ وجدُوهُ مَفْتوحاً دَخَلوهُ مُسْرعينَ فَرِحينَ . وسَنَرىٰ الآنَ فتنـةً كادَتْ أَنْ تُدَنِّسَ أَطْهـرَ البيوتِ في المدينةِ وأَقْـدسَها وأَعْظمَها مكـانةً في قلوبِ المسلمينَ بعـدَ أَنْ أَنْقذَ اللهُ عبـادهُ المؤمنينَ مِنْ فتنـةِ المُشاجَـرَةِ والعصبيـةِ العَمْياء إِثْـرَ غَزْوةِ بَنـي المصْطَلِق . وإنَّكُمْ مَـعَ المؤمنينَ الذينَ لا يُحبُّونَ الفِتْـنَةَ حتْماً ، وتكرَهونَ مَنْ يُضْمِرُ السُّوءَ والشَّرَّ ، ويُنافِقُ مَعَ الشَّيطانِ وأَتْباعِهِ .

أَمْرٌ بالرَّحيلِ

وتعلمونَ أَيُّها الأحبَّـةُ أَنَّ الرّسولَ ﷺ لا يُحبُّ فتنـةً كالتـي كادَتْ أَنْ تحدثَ بعْدَ المُشاجَرَةِ ، ولكي يجعلَ المسلمينَ يبتعدُونَ عَنْ تـذكُّرِ هذا الأمرِ ، فقَدْ أَمَـرَ الجيْشَ بالرّحيـلِ نحْوَ المدينةِ ، ولعَلَّ في هـذا تَنْبيهاً أَنَّ علىٰ المسلمِ أَنْ لا يتـوقَّفَ عنْـدَ أمورِ الفتنـةِ كثيراً ، ولا سيَّما وأَنَّ اللهَ قَدْ

أَنْقَذَ الموقفَ عَنْ طريقِ نصائحِ الرّسولِ الكَريمِ وأمرِهِ للجندِ مِنْ أصحابِهِ أَنْ يَبْتعدوا عَنِ الوَساوِسِ الشَّيطانيّةِ الضّارَّةِ . وقَدْ حَزِنَ المنافقونَ كثيراً لأنَّ الرّسولَ أمَرَ بالرَّحيلِ ، وأَدْرَكوا أَنَّ غايَتَهم في الفتنةِ لَمْ تَنْجَحْ ، وأَنَّ النّارَ التي أَرادوا أَنْ يُوَرُّوها قَدْ خَمدتْ ، وخَبتْ ، وانطفأتْ . وبدأَتْ عيونُ هؤلاء المنافقينَ تتطلَّعُ إلى فتنةٍ يُفْسِدونَ بها خِطَّةَ الرّسولِ في تَدْعيمِ المجتمعِ المسلمِ ، ويُكَرِّهونَه البقاءَ في المدينةِ المنوّرَةِ معَ أصحابِهِ المهاجرينَ ، فماذا سَيَفعلونَ يا تُرى وهُمْ في الطَّريقِ ؟ .

عائِشَةُ وَراءَ الجيْشِ

ويسيرُ الجَمْعُ متوجِّهينَ نحوَ يثْرِبَ ، وتَمَّ نِسْيانُ الأَمْرِ الذي حدثَ الرّحيلُ بسببِهِ ، وفي الطَّريقِ توقَّفَ الجيْشُ العائِدُ مُدَّةً مِنَ الوقتِ لقضاءِ الحاجاتِ ، فذهَبتْ زوجةُ الرّسولِ عائشةُ بِنْتُ أبي بكرٍ الصِّديقِ ، لقضاءِ حاجةٍ لَها ، فسقطَ عِقْدُها في الطَّريقِ ، فرَجَعَتْ إليهِ تُفَتِّشُ عنهُ ، وتَبْحثُ طويلاً علَّها تجِدُه ، وبَقِيَ هَوْدَجُها المخصَّصُ لرَحيلِها خالياً ، وأَبْطأَتْ عائشَةُ ، واستَلزم بحثُها عَنِ العِقْدِ وقْتاً غيرَ قليلٍ ، بيْنما كانَ الجيْشُ يتجهَّزُ ، ووُضِعَ هودَجُ عائشَةَ على الجملِ ، وسارَ الجيْشُ ، وأَفْرادُهُ يظنّونَ أَنَّ عائشَةَ داخِلَ الهودجِ المحمولِ ، وانْطَلَقوا مُسْرِعينَ مخلِّفينَ ابْنةَ الصِّديقِ وراءَهُم ، وعادَتْ عائشَةُ إلى مكانِ الرّكْبِ ، فلم تَجِدْ أثراً ، فجلستْ تَنتظرُ أنْ يعودَ أحدٌ لأَخْذِها حِينَ يفتقدونَها . . فهلْ

سيجدونَها بعْدَ أَنْ يتفقَّدوها ؟ وَمَنِ الذي سَيَرجِعُ إليها ؟ .

مُروءَةٌ في مَكانِها

ومِنْ عادةِ رسولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ واحِداً مِنَ الصَّحابةِ بالبحْثِ عن مَنْسِيّاتٍ في مكانِ الجيش حيْثُ كانَ مُسْتريحاً ، وبعدَ أَنْ سارَ الجيْشُ أمَرَ الرّسولُ (صفوانَ) — وهُوَ أحَدُ الصَّحابةِ الكرامِ — أَنْ يتأخَّرَ قليلاً عَنِ السَّيْرِ ، ثُمَّ يَلْحق بهِمْ ، وبَحَثَ صَفْوان عَنْ أَشياءَ قَدْ نسِيها أَفرادُ الجيْشِ سَهْواً ، وهُناكَ رأَى عائشَةَ فعرَفَها ، وقَدَّمَ لها جَمَلَهُ ، فَرَكِبَتْ ، وبقيَ هُوَ يمْشي ويقودُ البعيرَ (وعليهِ عائشةُ) فوصَلَ لذلك متأَخِّراً ، وحَمِدَ الرّسولُ ﷺ ربَّه على نجاة عائشَةَ ، وشَكَرَ لصَفْوانَ مروءَتَهُ وَعَمَلَهُ ومعروفَهُ الجميلَ الذي لَمْ يَكُنْ منهُ بُدٌّ . ومِنَ المُصادَفَةِ أَنَّ عبْدَاللهِ بْنَ أُبَيّ رأَى صَفْوانَ وعائشةَ ، ومعَ أنَّه تأكَّدَ مِنْ سببِ تأَخُّرِ عائشَةَ ومجيئِها مَعَ صَفْوانَ يقودُها على هذا النّحْوِ . . إلا أنَّه سرْعانَ ما بَدأَ الشَّيطانُ لُعْبةً جديدةً استَأْجَرَ لها عَبْدَاللهِ ، ووسْوسَ لهُ أَنْ لا يَدَعَ الفرصَةَ مِنْ يديهِ هذِهِ المرَّةَ وهوَ زعيمُ النِّفاقِ . .

والمُنافِقُ يَسْتَفْظِعُ المروءَةَ

وأَخَذَ عَبْدُاللهِ يُظْهِرُ نيَّةَ السُّوءِ ، ويهوِّلُ الأَمْرَ ، ويَسْتَفْظِعُ الحادثَ ، إنَّهُ لا يريدُ أَنْ يتصوَّرَ حَمْلَ عائشةَ على جملِ صَفْوانَ أنَّه مروءةٌ وأخلاقٌ

كريمةٌ ، وفي رَأْيِهِ أَنَّ عمَلَ صَفْوانَ مَشِينٌ وعارٌ . . ! !

وراحَ يجولُ ويتحدَّثُ بأُرْجوفةٍ كاذبةٍ ، وهُو يقولُ : (امرأةُ نبيِّكُمْ باتَتْ مَعَ رجلٍ ، حتَّى أصبحَتْ ، ثُمَّ جاءَ يَقُودُها) ، وجَعَلَ المنافقونَ يتكلَّمونَ معَهُ في شأْنِ عائشةَ وَصَفْوانَ ، ويتَّهِمُونَهما بالإِثْمِ وارتكابِ الفاحِشَةِ التي لا تَجُوزُ في الإِسْلامِ ولا في عُرْفِ الخلقِ الكريمِ . .
وانْتشرَ الخبرُ في المدينةِ كُلِّها ، وَضَجَّ النَّاسُ بالخبرِ ، والمؤمنونَ الصَّادقونَ يُدْرِكونَ أَنَّ عائشةَ وصَفْوانَ بريئانِ مِنْ تُهَمِ الفاحِشَةِ والمنافقينَ الكاذِبينَ ، ويا لصُعوبةِ الأَمْرِ ، ويا لعَسارةِ الخلاصِ مِنْ أَلْسِنةِ الأَفَّاكِينَ ! !

أُمُّ سَلَمَةَ قَبْلَها

لَقَدْ كَانَ الحادِثُ في ذاتِهِ أَمْراً عادِيّاً ، غيرَ جَديرٍ بأَنْ يُثيرَ شُبْهَةً أَوْ شَكّاً، ولَمْ يَزِدْ في وضعِهِ السويّ على أَنَّ سيدَةً فاتَها الرَّكْبُ دُونَ عِلمٍ ، فأَدْرَكَها تابعُ الركْبِ (صفوانُ) ، وقدَّمَ لها واجبَهُ الوحيدَ في ذلكَ الظَّرفِ، ومروءَتُهُ لَمْ تكُنْ غريبةً مِنْ رجلٍ كريمٍ ، وليسَ هٰذا بغريبٍ علىٰ أَصْحابِ المروءَةِ . وليس ببعيدٍ أَمْرِ زوجةِ الرَّسولِ (أُمِّ سَلَمَةَ) الصَّحابيةِ التي هاجرَتْ إلى المدينةِ قَبْلَ أَنْ تكُونَ زوجةً للرَّسول ﷺ ، وكان معَها وليدُها الطِّفلُ ، فلمَّا رَآها عُثمانُ بْنُ طَلْحَة (وكانَ آنذاكَ مُشْرِكاً) أَبَتْ عليهِ المروءةُ أَنْ يتركَها وحْدَها في الصَّحراءِ ، فاصْطَحَبَها

في رِحْلتِها حَتَّى أوْصلَها إلىٰ المدينةِ ، ثُمَّ عادَ . .

ولَمْ يتحدَّثْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ المدينةِ في شَأْنِ أُمِّ سلَمةَ وعُثْمانَ مَعَ أَنَّ عُثْمانَ كانَ مُشْرِكاً وعدُوّاً للمسلمينَ ، واصطحابُه لها يَسْتلزم أيّاماً عديدَةً حتَّى يصلَ بها إلى المدينةِ . .

الحقْدُ هُوَ السَّبَبُ

إذاً لماذا يَسْتصعبُ ابْنُ أُبيّ أَمْرَ المروءةِ والأَخْلاقِ الكريمةِ ؟ إنَّهُ لَمْ يتحدَّثْ بكلمةٍ واحدةٍ عَنْ رجلٍ مشركٍ كعثمانَ بْنِ طلحَةَ ، فكيفَ رَضيَ بالحديثِ عَنْ عائشَةَ الكريمةِ المسلمةِ زوْجةِ الرّسولِ ﷺ ؟ وسَليلةِ بيْتِ أبي بكرٍ صاحبِ النَّبيِّ ؟ وهُوَ بيْتٌ ما عُرِفَتْ لَهُ سقْطَةٌ في الجاهليَّةِ ، فكيفَ في عَصْرِ الإسلامِ ؟ ثُمَّ زِدْ على ذلكَ أَنَّ صَفْوانَ رجلٌ يُؤْمنُ باللهِ ورسولِهِ ، ويعتنقُ مبادئَ الإسلامِ التي تَنْهىٰ عَنِ الفحشاءِ والمنْكَرِ ، وقَدْ أَرسلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ لغرضٍ شريفٍ وهُوَ تفقُّدُ ما نَسِيَهُ الجنودُ بَعْدَ سَيْرِهِمْ ، فهوَ أَمينٌ إذاً ، ولا مجالَ للشَّكِّ في أَمانتِهِ ، فهَلْ يجوزُ أَنْ نقولَ عَنْهُ : خانَ اللهَ ورسولَهُ وزوْجَةَ رسولِهِ ؟ إنَّ هذا لغريبٌ في تفكيرِ عبْدِاللهِ بنِ أُبيّ ، ولا يُفَسِّرُ عملَهُ إلا الحقْدُ والحسَدُ والضَّغينةُ التي أَكلَتْ قلبَهُ ، وملأَتْهُ غَيْظاً على الإِسْلامِ ورسولِ المُسْلمينَ .

ومَعَ ذلكَ فلاَ غرابَةَ

ومَعَ أنَّنـا اسْتغرَبْنا تصرُّفَ عبْدِاللهِ ، ولكـنْ لا غرابَةَ حقّاً ، فما قـامَ بِهِ مِنَ الفتْنَةِ اليومَ جاءَ بَعْد عَوْدتِـهِ مَعَ الجيْشِ إلى المدينةِ ، وهُوَ مملوءٌ غَيْظاً مِن انْتِصار رسولِ اللهِ على بني المُصْطَلـقِ ، وفَشَلِ المنافقينَ في إذْكاء نارِ الفتْنَةِ بيْنَ المسلمينَ ، لذلـكَ اخْتلَقَ الفِرْيَةَ ونفسُهُ تَفُور مِنَ الغَيْظِ على رسولِ اللهِ ، وكلُّهُ أملٌ في أنْ يُوقِعَ بيْنَ النبيِّ وأقْربِ الأصدقاءِ إليْهِ (أبي بكرٍ الصِّـدِّيق)، أوْ يُقيمَ بيْنَ قَـومِهِ الخزرجِ وسـائرِ المسْلمينَ مِنْ أوْسٍ ومهاجرينَ شَبَكاً يَصْطادُ بِهِ عاطفتَهم وأُخوّتَهم .

ونسيَ عَبْدُاللهِ أنَّ فِرْيتَهُ على عائشـةَ لا تجوزُ حتّى ولوْ على امرأةٍ غيْرِها فما لَهُ يتَّهمُ عائشةَ أطْهرَ النّساءِ ؟ !

انْتِشارُ اللَّهَبِ

والرّسولُ ﷺ قـدْ صدَّقَ عائشةَ في طُهـرِها ، ولكنْ ماذا يَفعَـل أمامَ اللَّهبِ المنتشِرِ ضدَّ عِفَّةِ بيْتِهِ وطهارَةِ زَوْجَتِهِ ؟ .

والرّسـولُ يَعْلمُ أنَّ المنافقينَ كاذِبُـون ، ولكنْ ماذا يمكنُـه أمامَ الهرْجِ والمرْجِ والشَّكِ الذي كادَ أنْ يَعُمَّ المدينةَ كُلَّها ؟

إنَّ قلبَهُ لعطوفٌ ، وإنَّ رحمَتَهُ لمبسوطَةُ الجناحِ ، لكنَّ الحيرةَ لا يبدِّدُها إلا قرآنٌ مِـنَ السَّماءِ ، يَنْزِلُ بهِ الـوحيُ ليـدْحَضَ أقوالَ الإفْـكِ والإثْـمِ ،

وأباطيلِ الشَّيطانِ . وكادَ القومُ أنْ تَتَفشَّـىٰ الفتنةُ بينَهم ، حَيْثُ راحَ نفَرٌ منْهُم يعملونَ لنَشْرِ الخبرِ بكُلِّ ما أُوتوا مِنْ وُسْعٍ . .

عائشةُ تَبكـي ، ويَضْعفُ جِسْمُها ، وأبَواهـا صامتانِ لا يَدْريـانِ ما يقولانِهِ ؟ ورسولُ اللهِ صامتٌ لا يتكلَّمُ ينتظرُ الفَرَجَ مِنَ السَّماءِ ؟

ما بالُ رِجالٍ ؟ ؟

وطالَ الوَقْتُ ولمَّا ينزلْ جبريلُ بَعْدُ ؟ !

واسْتشـارَ النبيُّ بَعْضـاً مِـنْ أصْحابِـهِ ، فشَهـدوا لعـائشَةَ وَصَفـوانَ بالطَّهـارةِ والخيْرِ ، وأنَّ ما حَـدَثَ بينَهُما مروءةٌ وشهـامَةٌ ، لا يَمَسُّهُما في عِرْضٍ أوْ كـرامةٍ . هٰذا مـا شهِدَ بِهِ الصَّحابَةُ العاقِلونَ المؤمنـونَ حقّاً ، لكنَّ اللَّهَبَ بقيَ يَنْتَشِرُ . . فـخرجَ الرَّسـولُ غاضِباً ، وجمعَ النَّاسَ في المسجِدِ قائِلاً : (أيُّها النَّاسُ ، ما بالُ رجـالٍ يُؤذونَني في أهْلي ، ويقولونَ علَيْهِمْ غيرَ الحقِّ ؟ واللهِ ما علِمْـتُ منْهُمْ إلا خَيْراً ، وقدْ ذكروا رَجُـلاً ما علمْتُ منْهُ إلا خيْراً ، وما يَدْخل بَيْتاً مِنْ بُيُوتي إلا وَهُوَ معي . .) .

ثُمَّ ذَهَـبَ إلى عائشَةَ في مَنْـزِلِ أبيها ، فوَجـدَها تبْكي ، وبَعْـدَ حوارٍ قصيرٍ قالتِ الصِّدِّيقَةُ أمامَ مَـنْ كانَ حاضِراً : (واللهِ لا أتوبُ إلى اللهِ ممَّا ذكَرَ عنّي النَّاسُ ، واللهُ يَعْلم أنّي مِنْهُ لبريئَةٌ ، ولَيْسَ لِي إلا أنْ أقولَ : صَبْرٌ جميلٌ ، واللهُ المُسْتعانُ علىٰ ما تصِفونَ) .

بَراءَةٌ مِنَ السَّماءِ

وعندَها آنَ الأَوانُ لتتأكّدَ براءةُ عائشةَ وصحّةُ كلامِها وكلامِ رسولِ اللهِ وصَحابتِهِ العاقلينَ المؤمنينَ بكلامِ أَصْدقِ القائلينَ اللهِ ربِّ العالمين. وها هُوَذا جبريلُ ينزلُ، ويستبشرُ الرّسولُ وأبو بكرٍ وأُمُّ عائشةَ خيراً.

فالآياتُ التي تتنزَّلُ هي دَحْضٌ للفِرْيَةِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ ﴾ . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ .. ﴾

لَقَدْ سمّى القرآنُ عَمَلَ المنافقينَ إفْكاً، وجَعلَهم ممّنْ يحبُّون الشَّرَّ وانْتشارَ الفاحِشَةِ في المؤمنينَ، وإنَّ الأمْرَ لعظيمٌ عِنْدَ اللهِ، يستحقُّ أَنْ يَنزِلَ بسببِهِ قرآنٌ مِنَ السَّماءِ، واللهُ يعْلَمُ مِنْ قَبْلُ براءةَ عائشةَ وصفْوانَ، لكنَّ تأخيرَ نزولِ الآياتِ يحملُ مِنَ الحِكْمَةِ والخيرِ لرسولِ اللهِ ﷺ ودَرسٌ عظيمُ الأهميَّةِ للمسلمينَ..

واجِبُ المُسْلمين

وإنَّ اللهَ لا بُدَّ أنْ يؤاخِذَ ابنَ أُبيّ وجماعَتَهُ في أقوالِهم، وإنَّ حادثةَ الإفْكِ لم تكُنْ شرّاً، بَلْ فيها درسٌ عظيمٌ بالغُ الأهميةِ – هذا الدّرسُ يقولُ:

(على المؤمنِ أنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بأخيهِ، وأنْ لا يندفعَ وراءَ الأكاذيبِ، وأنْ لا يصدِّقَ كُلَّ ما يُقالُ، حتّى يُقيمَ قائِلُهُ الدَّليلَ والبُرهانَ على صِحَّةِ كلامِهِ، ولا مانِعَ أنْ يعفُوَ المسلمونَ عَنِ الذينَ كادَ الشَّيْطانُ أَنْ يَسْتوليَ على قلوبِهِم ويَفْتِنَهم، لأنَّ الذينَ أَحبُّوا الشَّيطانَ، واتَّبعوهُ، ونافقوا ضِدَّ الرّسولِ، قَدْ حاوَلُوا اسْتِجلابَ بعضِ المؤمنينَ إلى جانِبهم في حَديثِ الإفْكِ. وعلى المؤمنِ اليومَ أنْ يَفْهمَ قَداسَةَ الأعْراضِ وصِيانتها، فلا يَخُوضُ فيما يسمعُهُ أَوْ يُسيءُ إلى سُمْعَةِ المجتمعِ المسلمِ، خَشْيَةَ أنْ يتورَّطَ فيُصْبِحَ في صفِّ المنافقينَ الخبيثينَ ويُوقِعَ نَفْسَهُ في غَضبِ اللهِ وعقابِهِ).

أَرْبَعَةُ شُهَداءَ

لَقَدْ شدَّدَ القرآنُ يا أختي في سُورةٍ بأكْملِها اسْمُها (سورةُ النُّورِ) في أَمْرِ حادثةِ الافتراءِ على الأعْراضِ، وكلُّ هذا التَّشديدِ ليَحميَ المُجتمعَ المسلمَ مِنْ غيرها، وبذلكَ يَبْقى المجتمعُ منيراً، كلُّه نورٌ، ويفهم سورةَ النُّورِ. وفي هذا التَّشديدِ أيُّها المؤمنونَ الصِّغارُ الطَّاهرونَ، يأمرُ اللهُ كلَّ مَنْ يريدُ إثْباتَ جريمةِ فاحشةِ الزّنى ضدَّ أحدٍ، أنْ يجلبَ أربعةَ شُهداءَ معَهُ يشْهدونَ أنَّهم رأوْا معَهُ ما يتحدَّثُ بِهِ. ومَعَ أنَّ هذا صَعْبٌ في تَنْفيذِهِ، فإنَّ اللهَ يَراه ضرورياً لحفظِ وصيانةِ الأعْراضِ وكَراماتِ النّاسِ، فناحيةُ العِرْضِ ناحيةٌ حسَّاسةٌ، وشديدةُ التَّأثيرِ، وسرْعانَ ما تشيعُ

الأكْذُوبَةُ الصَّغيرةُ لتروجَ شائعةً كبيرةً . .

وإنَّ مِنْ طبيعةِ النَّـاسِ سُرعةَ التَّصديقِ للإشاعـاتِ عَنِ الأَعراضِ ، لأَنَّها أَشهىٰ الأحاديثِ على النُّفوسِ .

قاعِدَةٌ عامَّةٌ

وأَنْتُمْ يـا أحبَّتي بعْدَ أَنْ عـرفْتُم شَيْئاً عَـن القِصَّةِ وعَنِ الآيـاتِ التي نزلَتْ بِسَببِها ، أُحِـبُّ منكُمْ أَنْ نَتَّفِقَ على قاعدةٍ هامَّةٍ وعـامَّةٍ في حياتنا العمليَّةِ ، هذِهِ القاعدةُ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ ، وأَوَّلها يقولُ : (أنا لا أَشْتمُ أَحَداً وَلَوْ أَغـاظني وضايَقني ، لأَنَّ الكلمَةَ البذيئَـةَ تُؤدّي إلى الطَّعنِ في شَرفِ النَّـاسِ وكَـرامتِهـم . . والمؤمـنُ ليْسَ بطعَّـانٍ ، ولا لعَّـانٍ ، ولا فاحِشٍ، ولا بذيءٍ ، والابتعادُ عَنْ صفاتِ البَذاءةِ أَسْلَمُ وأفْضل لي) .

والقِسْم الثَّـاني يقولُ : (وأَنا لا أُصَـدِّقُ أَحَداً يتحدَّثُ عَـنْ أَعْراضِ النَّاسِ وطَهـارتِهم حتَّىٰ يكونَ قَـوْلُهُ مـؤكَّداً ، وإنِّي أَفْعلُ ذَلـكَ حَتَّى لا يَسْتَسيغَ سَمْعي كُلَّ كلمةٍ عَنْ الأَعْراضِ والكرامةِ البشريَّةِ . .) .

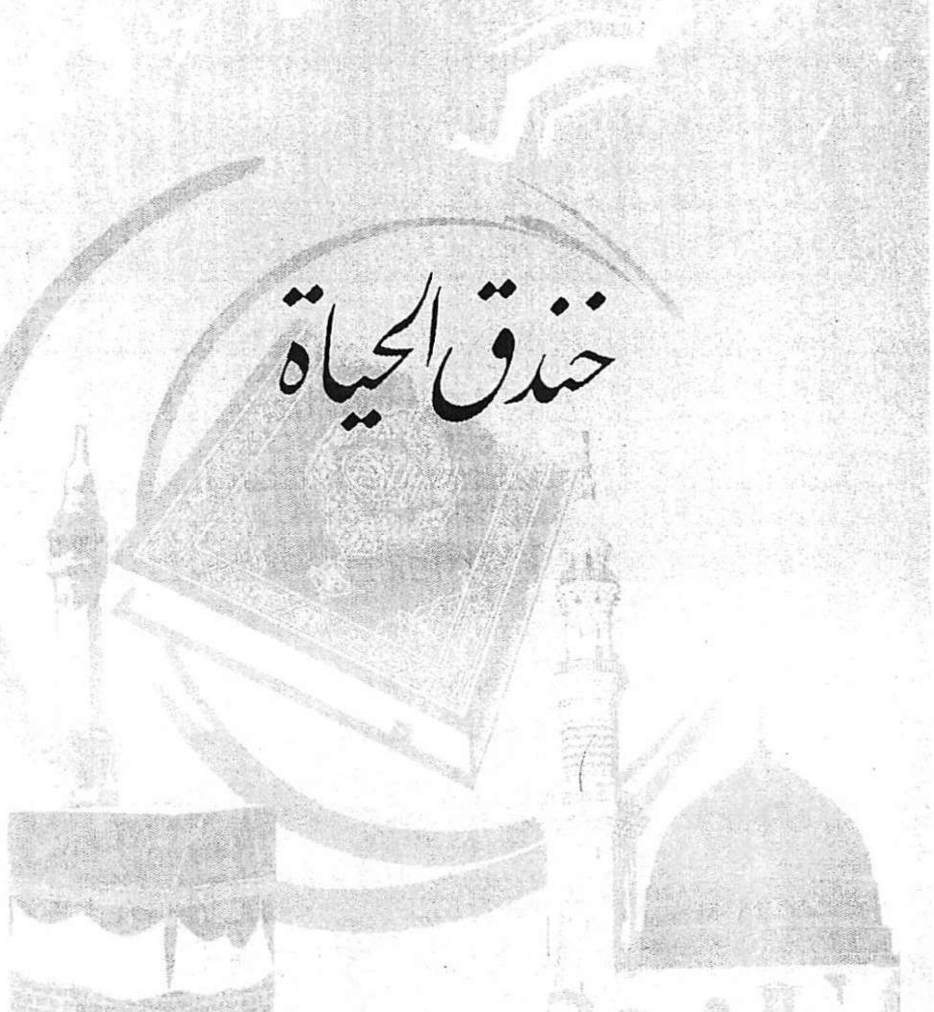
وشُكْراً لكُـمْ يا أعـزَّائي إنْ حَفِظْتُمْ هـذِهِ القاعـدَةَ لأَنَّها قاعـدةُ كُلِّ مؤمِـنٍ . . شُكْراً لذَوي القُلوبِ الطَّـاهرةِ ، والنُّفوسِ العفيفـةِ . . شُكراً وأَلْف شُكْر .

قِصَصُ

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٤٢

خندق الحياة



الحَسَدُ الحاقِدُ

والآنَ سأَبْدأُ مَعَكُمُ الحديثَ يا أحبَّتِي عَنْ غزوَةٍ جديدةٍ فاصلةٍ اسمُها : (غَزوةُ الخَنْدَقِ) ، وقِصَّةُ هٰذِهِ الغزوةِ جميلةٌ ، سَنَعْرِفُها على مراحِلَ مُتَعَدِّدةٍ، ولهٰذِه الغزوةِ علاقَةٌ باليهودِ ، ويجبُ أَنْ تتذكَّروا يا أحبَّتِي أَنَّ اليهودَ أعْداءٌ للهِ والرَّسولِ والمسلمينَ . وتَعْلمونَ أَنَّ بَني قُرَيْظَةَ هُمُ الذينَ بقوا مِنَ اليَهودِ في المدينةِ بعْدَ غزوةِ أُحُدٍ ، بَيْنَما طُرِدَ إلى خارِجِ المدينةِ أفرادُ بَني النَّضيرِ ومِنْ قَبْلِهِم قبيلةُ بَني قَيْنُقاع ، بسببِ نَقْضِهِمُ العهدَ مَعَ رسُولِ اللهِ، ومعاداتِه جهارةً . إذاً . . فأَكْثَرُ اليهودِ قَدْ جاهروا في حَسَدِهِم وحِقْدِهِم ، ومَدُّوا يَدَ السُّوءِ إلى المجتمعِ الجديدِ ، فتسَبَّبوا بظُلْمِ أَنْفسِهِم ، وتَرَكُوا المدينَةَ والأَراضي والبيوتَ ، ولَمْ يُفْلِحوا في النَّيْلِ مِنَ النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، ولا مِنْ صَحْبِهِ الكرامِ . .

حُبُّ الانْتِقامِ

ولَمْ يكُنْ خروجُ اليهودِ مِنَ المدينةِ هَيِّناً على نُفوسِهم ، ولا بالأَمرِ الذي تَنْتهي نتائجُهُ بعْدَ انتهائِهِ ، وإنَّ قُلوبَهم الآنَ لَتغْلي بالحقْدِ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وأَصْحابِهِ ، وكلُّ ما يفكِّرونَ فيهِ أَنْ يَنْتَقِمُوا مِنَ الذين أَخْرجوهُم ، وأَنْ يُمَكِّنُوا لهم ضَرْبةً قاصِمَةً يَسْتطيعون القَضاءَ بها عَلَيْهِم، أَوْ يَسْتطيعون على الأَقَلِّ أَنْ يُخْرِجوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرجوهم ،

فيرجعَ اليهودُ إلى يثربَ ، هٰذا هو ظَنُّهم ، ونَسوا أَنَّهم قَدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُم بأَيْديهم ، ولَمْ يَظلمْهُمُ اللهُ أَوْ رسولُهُ . ومِنْ أَجلِ هٰذا أَضْمروا فِكْرَةَ الانتقامِ وأحبُّوها ، وجَعَلوا يتلمَّسونَ الفُرصَةَ للقضاءِ على مُحَمَّدٍ وصحبِهِ، وعلىٰ هٰذِهِ الدَّعوةِ التي لَمْ تَظْهَرْ فيهِمْ ، وإنَّهم سَوْف يَنْتهزونَ كُلَّ مُناسبةٍ ، ويعرضُونَ فكْرَتَهم علىٰ كلِّ قبيلةٍ أو جماعةٍ تكْرَهُ مُحَمَّداً ورسالَتَهُ ، فكيفَ سيبدؤُونَ عَمَلَهُمْ ؟

إلىٰ قُرَيْشٍ

خرجَ زعيمٌ مِنْ زُعماءِ بَني النَّضيرِ المطرودينَ واسْمُهُ (حُيَيُّ بْنُ أَخْطب) بمَعونةٍ مِنْ أَبي رافعٍ أحدِ زُعماءِ يهودِ خَيْبَرَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَشرافِ قومِهِ اليهودِ إلى مكَّةَ بادئَ الأَمرِ . وفي مكَّةَ عَرَضَ حُيَيٌّ الأَمْرَ علىٰ قريْشٍ أَلدِّ أَعداءِ الرَّسولِ ﷺ ، علَّهُ يجدُ عِندَها مُتَنَفَّساً جَديداً للقَضاءِ علىٰ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ . . وسَمِعَ أشرافُ قُرَيْشٍ دعْوةَ اليهودِ إلى حربِ رسولِ اللهِ ، وردَّدَ حُيَيٌّ قولَهُ : (سنكُونُ مَعَكُمْ عَليْهِ حَتَّىٰ نَسْتأْصِلَهُ ونستأْصِلَ دعْوتَهُ وأَصْحابَهُ) .

ولكنَّ أَمْراً لَمْ يكُنْ في الحسْبانِ ، فقرَيْشٌ قَدْ وقعَتْ في شكٍّ أَخذَ يخامِرُها، لماذا يَدْعوها اليهودُ إلى حربِ مُحَمَّدٍ وهُمْ يعلمونَ أَنَّ دينَ مُحَمَّدٍ خَيْرٌ مِنْ دينِ اليهودِ والقرشيِّين مَعاً ؟ الأَنسَبُ أَنْ يَسْأَلوا اليهودَ عَنِ الأَدْيانِ الثَّلاثةِ: أَيُّها أَحْسَنُ ؟ وأَيُّها فيهِ الخيرُ ؟

شَهادَةٌ فاجِرَةٌ

وبَدا على وجُوهِ أَشرافِ قريْشٍ أنَّ مُحمَّداً لا يَسْتحِقُّ أنْ يُعْتدىٰ عليْهِ أَكْثَرَ ممَّا كانَ ، وأَنَّ قُرَيْشاً دَوْماً . . كانَتْ بادِئةً بالعدوانِ ، لذلكَ راحَ الأَشْرافُ يَسْألونَ مَنْ جاءَهُم مِنَ اليهودِ : (يا مَعْشر يهودٍ ، إنَّكُمْ أَهْلُ كتابٍ ، وتعلمُونَ بما أَصْبَحْنا نختلفُ فيهِ نحنُ ومُحَمَّدٌ ، فَهلْ دينُنا خيرٌ أَمْ دينُهُ ؟ . فلَمْ يَسَعِ اليهودُ وهُمْ في موقِفِ الإغراءِ لقريْشٍ إلا أَنْ يقولوا لَهُم : (بَلْ دِينُكم خيرٌ مِنْ دينِه ، وأَنتم أَوْلى بالحقِّ منْه) .

إنَّها لشَهادةٌ فاجرةٌ مَعَ عِلْمٍ كامِلٍ بالحقيقةِ ، ممَّا جعلَ الشَّيطانَ يَضْحكُ ويَبْتسمُ في وَجْهِ قريْشٍ ، يُغْريها بقَبولِ دعوةِ اليهودِ . وأَصابَ الغرورُ قريْشاً مِنْ جديدٍ ، وجَعلوا يتأَهَّبونَ لحرْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلى جانبِ مَنْ سَيُخرِجُهُمُ اليهودُ إلى ساحةِ الحربِ ، ونجحَ اليهودُ في إقناعِ قريشٍ، فإلىٰ أينَ سيمْتدُّ فجورُهم ؟

إلىٰ غطفانَ وسُلَيم

لَقَدْ أَتوا قَبائِلَ غَطَفانَ ، فَدَعَوهُم إلى حَربِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأَعْلَموهُمْ أَنَّ قريْشاً بايعَتْهم علىٰ ذلكَ ، ووعَدوا رجالَ غَطَفانَ أَنْ يُعْطوهُمْ ثِمارَ خيْبَرَ مِنَ النَّخيلِ سَنَةً ، إذا تَمَّ لهُمُ النَّصْرُ علىٰ محمَّدٍ . فاسْتَجابَتْ لهم غَطَفانُ بكلِّ قبائِلِها وأَفْرادِها ، ونَجحَ اليهودُ في جلْبِ عدوٍّ آخَرَ إلىٰ جانبِهِمْ يُساعدُهم في تَبْديدِ الدَّعوةِ الإسْلاميَّةِ وإفْناء

أَصْحابِها في المدينةِ .

وتابَعوا المسيرَ إلى قبائِلِ أَسَدٍ وسُلَيم ومَنْ تابَعَهم مِنْ قبائِلِ العربِ يَجمعونَهم ويؤَلِّبونَهم ، فاجْتمعَ عددٌ كبيرٌ ، يبلُغُ عَشَرةَ آلافِ مقاتِلٍ ، وجُعلتِ القيادَةُ لمكَّةَ وقريْشٍ بزَعامةِ أَبي سفيانَ ، وسارَ الجيْشُ بغَطْرَسَةٍ وكبرياءٍ وغرورٍ ، نحْوَ المدينةِ في شهرِ شوَّالٍ مِنَ السَّنةِ الخامسةِ للهجرةِ، فَهَلْ سيعْلَمُ الرَّسولُ ﷺ بالأَمْرِ ويستعدُّ لَهُ ؟ هذا ما سَنَراه . . فتابعوا القراءَةَ .

ماذا ترَوْنَ ؟

الأَمْرُ خطيرٌ يا رسولَ الله ! ! عَشَرةُ آلافِ مقاتِلٍ يَبْغونَ الفَتْكَ بِكَ وبأَصْحابِكَ وبدَعْوتِكَ ، أَمَا مِنْ أَحدٍ يصلُ إليكَ ليُعلِمَكَ الخبرَ ؟

وعَلِمَ الرَّسولُ أخيراً يا أَحبَّتي ، وهو الذي كانَ يتوقَّعُ هذا مِنَ اليهودِ بَعْدَ طردِ أَكْثرِهِم مِنَ المدينة .

ويجمَعُ الرَّسولُ ﷺ أصحابَهُ ، ففي الاجتماعِ مَعَهُم سيكونُ الخيْرُ إنْ شاءَ اللهُ ، وهذِهِ العادَةُ قدْ سَنَّها لَهُمُ الرَّسولُ قُبَيْلَ كُلِّ غزوةٍ كما رأَيْنا عِنْدَما قَرأْنا عَنْ غزوةِ بدرٍ الكُبرىٰ ، وغَزوةِ أُحدٍ . وقالَ لهمُ الرَّسولُ الخيْرَ ، وطلبَ مِنْهُمْ أَنْ يُشيروا عليْهِ ، فمَنْ كانَتْ لَدَيْهِ فِكْرةٌ ناجحةٌ فليُقدِّمْها مشكوراً علىٰ استخدامِهِ عقْلِه ، وتحدَّثَ كثيرونَ منهم، ولكنَّ

فِكْرَةً واحدةً هي التي أَعجَبَتِ الجميعَ ، وعلى رأْسِهم رسولُ اللهِ ﷺ . . فما هيَ ؟ .

فِكْرةُ الخَنْدَقِ

لقَدْ قالَ أحدُهُم وهو سَلْمانُ الفارسيُّ : (يا رسولَ اللهِ ، إنَّا كُنَّا بأَرضِ فارِسَ إذا خِفْنا العَدوَّ خَنْدقْنا عَلَينا . .) . أَيْ : إذا خافُوا مِنْ عدوِّهِم الهاجِمِ عَلَيْهِم قامُوا بحفْرِ خندقٍ حَوْلَ المدينةِ ، ليَحْموها مِنْ هَجَماتِ الأَعداءِ ، فَيرجِعَ الأَعداءُ خائِبِينَ .

هذِهِ هي فكْرةُ سَلْمانَ الفارسيِّ الذي وَجدَ أنَّ عشرةَ آلافِ مقاتِلٍ لا يستطيعُ دفْعَهُم وإبعادَهُمْ إلا خنْدَقٌ عميقٌ وطويلٌ وعريضٌ حَوْلَ المدينةِ المنوَّرةِ ، وأَبدىٰ الرَّسولُ ارْتياحهُ لِهذا الرَّأْيِ ، فَركِبَ ﷺ ، ومَعَهُ نَفَرٌ مِنَ المهاجرينَ والأَنْصارِ ، وارْتادَ مَوْضِعاً في شمالِ المدينةِ وراءَ جبلِ (سَلْعٍ) ، فجعلَ هُناكَ يُخطِّطُ المكانَ لحفرِ الخنْدقِ ، وكانَ الشَّمالُ هوَ النَّاحيةَ المكشوفةَ التي يستطيعُ العدوُّ الدُّخولَ منها ، أمَّا نواحيها الأُخرىٰ فكانَتْ حصينَةً شَرْقاً وغَرْباً بحواجزَ جُغْرافيةٍ ، ومِنَ الجنوبِ كانَ بَنو قُرَيظةَ علىٰ عَهْدٍ مع الرَّسولِ ﷺ .

جِدٌّ وعَمَلٌ

وطلبَ الرَّسولُ بعدَ التَّخطيطِ أَنْ يعمَلَ الصَّحابةُ في الحفرِ بجدٍّ ونشاطٍ وطاعةٍ ، ووعدَهُمُ النَّصرَ إنْ صبَروا ، وعَمِلوا ، فبادَرَ المسلمونَ

دُونَ تهاوِنٍ في العملِ ، واسْتَعانوا ببَني قريْظَةَ في إمْدادِهم بأَدواتِ الحفرِ كالفُؤوسِ ، وقَسَّمَ الرَّسولُ العملَ بيْنَ أصحابِهِ ، فكلُّ جماعةٍ منْهم تحفِرُ جانباً مِنَ الخنْدقِ .

وينظرُ الرَّسولُ ﷺ إلى الجميعِ وهُمْ ينشطُون في الحفْرِ ، حتَّى إنَّ أَبا بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عَنْهما كانا ينْقلانِ التُّرابَ في ثِيابِهما لضرورةِ العَجَلةِ .

إنَّهُ الجِدُّ . . والعملُ المخلِصُ والمصيبُ ، وأيُّ عَملٍ أَصْوبُ مِنْ طاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ وقدْ رأَوا أنَّ عِصْيانَهُ في غزوةِ أُحدٍ مِنْ قَبْلُ . . قَدْ جَلَبَ عليهمُ الوَيْلاتِ مِنَ الأَعداءِ ، والأَجْدرُ أنْ يأتمِروا بأَمرِهِ ، وهُمُ الذينَ بايَعوهُ على السَّمعِ والطَّاعةِ في العُسْرِ واليُسْرِ .

ومُشاركةٌ نبويَّةٌ

ولا تظنُّوا يا إخوتي أنَّ القائِدَ الحكيمَ لمْ يعملْ في الحفْرِ مَعَ أَصْحابِهِ . . فالرَّسولُ ﷺ قَدْ كانَ أَوَّلَهُمْ ، واجْتَهَدَ في العملِ ليُنشِّطَهُمْ ، فمرَّةً يضربُ بالمِعْوَلِ ، ومرَّةً بالمِسحاةِ يغْرِفُ بها التُّرابَ ، ومرَّةً يحملُ التُّرابَ في المِكْتَلِ ، وكانَ إذا أَخذَهُ النُّعاسُ فَنام مِنَ التَّعبِ ، يَسْتيقظُ بعدَ مدَّةٍ وجيزةٍ ، وهُوَ يقولُ : (أَلا أَفْزعْتُموني ؟) أَيْ : إنَّهُ يطلبُ منْهُم أنْ يُوقِظُوهُ ، حَتَّى يُتابعَ عملَهُ بأَنْشط ممَّا كانَ ، فيشفِقُ عليهِ الصَّحابةُ قائِلينَ : أَلا جلَسْتَ فَنكفيكَ العملَ يا رسولَ اللهِ ؟ فيأْبَىٰ إلا أنْ

يُشاركَهُمْ ، ويحمِلَ الفَأْسَ ليضرِبَ بِهِ ، وَهُوَ يَرْتجزُ لهُمْ بعْضَ الأراجيزِ الجميلةِ مثل :

(اللَّهمَّ إنَّ العيْشَ عَيْشُ الآخرهْ ، فاغْفر للأنصارِ والمهاجِرهْ) .

فَيَسْمَعهُ الصَّحابَةُ وهم يعملُونَ ، فيَرْتَجِزونَ مَعَهُ ، ويُشارِكونَهُ أناشيدَهُ الجميلَةَ الحلوَةَ .

شَهْرٌ شَديدٌ

ودَأَبَ الجميعُ مَعَ القائِدِ يعملونَ ، لا يُبْطِئُ عَنْهم إلا المنافقون ، الذين أَخذوا يتسلَّلونَ إلى بيوتِهم بغيْرِ إذْنِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ ، لا يحْذَرونَ بذلك أَنْ تُصيبهُمْ فِتنةٌ أوعذابٌ أليمٌ مِنَ الله . أمّا الصّادقونَ المخلِصونَ ، فَمَضوا على حالِهِم مِنَ الدّأبِ نحوَ شَهْرٍ في أيَّامٍ شديدةِ البردِ ، قليلةِ الطَّعامِ ، وهُمْ يدعونَ الله بشِعْرِ عبدالله بْنِ رَواحَةَ الذي كان يغنّي أُغنيةَ التَّشجيعِ والحثِّ على الصَّبرِ :

لاهُمَّ لولا أَنْتَ ما اهْتدَيْنا ... ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّينا
فأنزِلَنْ سكينَةً علَيْنا ... وثبِّتِ الأَقْدامَ إنْ لاقَيْنا
إنَّ الأَعادي قَدْ بَغوا علَينا ... وإنْ أَرادوا فتنةً أَبَيْنا

ودوّى شدْوُهُم . مما حبّبَ إليهمُ الاستمرارَ دُونَ خوفٍ مِنْ جوعٍ أَوْ بردٍ ، وإنَّ اللهَ يا أحبّتي ، لَنْ يتركَهُمْ يُعانونَ مِنَ الجوعِ وقِلّةِ الطَّعامِ أبداً.

مُعْجِزَةُ الطَّعامِ

فهذا رسولُ اللهِ ﷺ يَراهُمْ وقَدْ شَدُّوا الحجارَةَ على بُطُونِهم مِنْ شِدَّةِ الجوعِ ، فيقول : [هَلْ دللْتُم على رجلٍ يُطعِمُنا أكْلَةً ؟] ، فقالَ رجلٌ : نعمْ ، قالَ لهُ الرّسولُ : [فتقدَّمْ فدُلَّنا عليْهِ] ، فانْطَلقوا إلى بيْتِ الرَّجلِ ، فإذا هُو في الخنْدق ، فأرسلَتْ إليهِ امرأتُهُ أَنْ تَعالَ ، فجاءَ الرَّجُلُ يَسْعى ، وقامَ بذَبحِ جَدْيٍ يَمْلِكُهُ بينما كانَتْ زوجتُهُ تعجِنُ وتصْنَعُ الخُبْزَ ، وقدَّما بعْدَ قليلٍ قَصْعَةً شهيَّةً إلى رسولِ اللهِ ، فوضَعَ ﷺ إصْبَعَهُ فيها وقالَ : [بِسْمِ اللهِ، اللهمَّ بارِكْ فيها - اِطْعَموا] فأكَلَ مَنْ جاءَ مَعَهُ مِنَ الصَّحابةِ حتَّى رَجعوا عَنْها مِنَ الشّبعِ ! فذهبوا وأرسلوا عَشَرةً آخرينَ ليأكُلوا ، وهكذا عَشَرةٌ بعدَ عشرةٍ حتّى أكَلَ كلُّ مَنْ يحفِرُ الخنْدقَ ، والطَّعامُ ما يَزال كثيراً في القِدْرِ تعُجُّ به القَصْعةُ .

ثُمَّ أكَلَ رسولُ اللهِ ﷺ آخِرَ الأمْرِ ، ودَعا لأصْحابِ البيْتِ بالبركةِ جزاءً لَهُمْ ومكافأةً على صَنيعِهِمْ . .

وَبَشائِرُ الصَّخْرةِ

ثم مَشى الرّسولُ ﷺ إلى الخندقِ ، ووصَلَ إلى حيْثُ يحفِرُ سلمانُ الفارسيُّ ، وإذا صَخْرةٌ بيْنَ يديهِ صَعُبَ عليْهِ كسْرُها ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (دَعوني فأكونَ أوّلَ مَنْ ضَرَبَها) فقالَ : [بسْمِ اللهِ] ، ثُمَّ

ضَرَبَها، فوقعتْ فلقَـةٌ تُساوي ثُلثَها ، فقالَ : [اللهُ أَكْبَرُ ، قصـورُ الشّامِ وربِّ الكَعْبَةِ] ، ثُمَّ ضربَ أُخرىٰ فوقعتْ فلقةُ الثُّلثِ الثَّاني ، فقالَ : [اللهُ أكبرُ ، قصورُ فارِسَ وربِّ الكعبـةِ] ، ويذكِّرُنا هٰذا بِبُشراهُ لسُراقةَ ابْنِ مـالكٍ أيَّامَ الهجـرةِ هَلْ تذكُرُونَها ؟ . على كلِّ حالٍ ، مـا إنْ سمعَ المنافقون بُشْرىٰ رسولِ اللهِ بِفَتْحِ بلادِ الشَّامِ وفارِسَ حتَّىٰ قالُوا : (نَحْنُ نَحْفرُ الخندَقَ ، خَوْفاً مِنْ عدوٍّ قريبٍ . وهُوَ يبشِّرُنـا بالنَّصرِ عَلىٰ عدوٍّ كبيرٍ وبعيدٍ ، فأنَّى للمسلمينَ ذلكَ الوَهْمُ والخيالُ : فارِسِ والرُّوم ؟) . ولكنَّ اللهَ حقَّقَ قوْلَ رسولِهِ ﷺ فيما بعْدُ .

تَحْصِينٌ داخِلِيٌّ

وفرغَ الرّسولُ وصحبُهُ مِنْ حفرِ الخندَقِ ، وقدْ أحكمُوهُ توْسِعةً وعُمقاً، حتَّىٰ غدا لا تَستطيعُ الخيلُ اقتحامَهُ إلا بصُعوبةٍ شديدةٍ مليئةٍ بالخطرِ ، وجَعلوا الرَّدْمَ النَّاتجَ عنِ الحفْرِ رداءً بينَهم وبيْنَ الخنـدقِ ، فكوَّنوا بذلـكَ حِصْناً آخرَ قبلَ الخندقِ ، ثُـمَّ قامُوا بتَشْبيكِ وتحصينِ المدينةِ مـن الدَّاخلِ ، فَوُضِـعَ الصِّبيانُ والنِّساءُ في حصونٍ منيعـةٍ بعد هذهِ العمليَّةِ . .

وعَسْكرَ النبيُّ ﷺ بـرجالِـهِ المقـاتلينَ عِنْدَ سَفْحِ جَبَلِ (سَلْعٍ) ، فجعلَ ظهْرَه إلى الجبلِ ، واستقبلَ العدوَّ بوجْهِهِ مِنْ ناحيةِ الخنْدقِ .

إنَّـهُ الاستعـدادُ التّـامُّ إنْ شاءَ اللهُ ، وستتحقَّقُ النَّتـائجُ كَما تـوقَّعها المسلمونَ قُبيلَ حفرِ الخندقِ ، ولَمْ يَبْقَ عليهمُ الآنَ إلا أَنْ يَرْفعوا أَيْديهم إلى السَّماءِ - هَـلْ تَدْرونَ لماذا ؟ لِيُنـاجـوا ربَّهم : اللَّهـمَّ نَصْرَكَ ، فأَنْـتَ وعَدْتَنا النَّصرَ ، وقلْتَ : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ .

كَيْفَ سَتَجْرِي المعركَةُ ؟

ها هُـمْ أُولاءِ يا ربِّ قَدْ نَصَروكَ ، وأَعدُّوا لعـدوِّهِم ما اسْتَطاعـوا مِنْ قُوةٍ ، ومِنْ تحصينٍ ، ومِنْ عَمَلٍ وجُهْدٍ ، فاللَّهمَّ إنَّا نطلبُ مَعَهُمْ نَصْرَكَ لَهُمْ ، إنَّك أنْتَ القويُّ العزيزُ ، ولا ناصِرَ لهُم (غَيْرُكَ) .

تابِعوا يـا أحبَّتي القصَّة عَنْ غـزوةِ الخندقِ التي عرفْنـا أَسْبابَها حتَّىٰ الآنَ.. و إنْ شَاءَ اللهُ سَنعرِفُ كَيْفَ كانَتِ الحرْبُ بَعْدَ حفرِ الخَنْدقِ . ؟. هَلْ سَيَتَفـاجَأُ المشركونَ بما أَعـدَّهُ المسلمونَ لَهم ؟ وهلْ سَيَتَمكَّنُونَ مِنْ عُبورِ الخندقِ ؟

كُلُّ هذا سنعـرفُ جوابَهُ عنْدمـا سنقِفُ معاً أمامَ الخنْـدقِ في القِصَّةِ القادمةِ ، ونَرىٰ الحوادِثَ هُناكَ واضحـةً بَيْنَ الفريقيْنِ ، والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ . .

* * * * * *

قِصَصُ السِّيرةِ النَّبوِيَّةِ

٤٣

المفاجأةُ المُدهِشةُ

صِفاتُ الجَيْشَيْنِ

والآنَ سأخبرُكُمْ كيفَ جرَتْ معركةُ الخندقِ بعْدَ الاستعدادِ التَّامِ لَها ، وأُذَكِّرُكُمْ بما قامَ بِهِ كُلُّ جيْشٍ مِنَ الفريقيْنِ مِنْ تَهْيئةٍ واستعدادٍ وأَعْمالٍ :

١ - جيْشُ العدُوِّ تجمَّعَ فيهِ عَشَرةُ آلافِ مُقاتلٍ ، جمَعَهُم اليهودُ مِنْ قريْشٍ وغَطفانَ وغيرِهم مِمَّنْ يريدونَ البطْشَ بِمُحمَّدٍ ﷺ وأَصْحابِهِ ، والكُلُّ يُجْمِعُ على رأْيٍ واحدٍ ، ويَسيرُ إلى غايةٍ واحدةٍ ، فيه مِنَ الفُرسانِ العددُ الكبيرُ ، ومِنَ الدُّروعِ الواقيةِ ما يكْفي العَدَدَ بأكْملِهِ ، وسَيَصِلُ قريباً إلى المدينةِ .

٢ - أمَّا جيْشُ المسلمينَ ، فقدِ انْتهى تَعْدادُهُ إلى ثلاثةِ آلافٍ ، لَمْ يتجاوزْ ذلكَ ، ولا يزيدُ فرسانُهم على سِتَّةٍ وثلاثينَ فارِساً ، وأكبرُ استعدادٍ قاموا بِهِ هوَ حَفْرُ الخنْدقِ في المكانِ الذي يُمكنُ أَنْ تَنْفذَ منْهُ جنودُ الأعْداءِ إلى المدينةِ ، وانْتهوا بعوْنِ اللهِ ، وقَدْ أَوْسَعوا الخنْدَقَ عُمْقاً وطُولاً وعَرْضاً وتَحْصِيناً .

طَلائعُ الأَحْزابِ

وما هُوَ إلا يَوْمٌ واحدٌ حتَّى ظهَرَ الجيْشُ الجَرَّارُ بطلائعِهِ ، وصارَ على أبْوابِ المدينةِ ، ويا لهولِ المفاجَأةِ ! ! لَقَدْ نزلَتِ الدَّهشةُ على عيونِ الأعداءِ ، وأَيَّةُ دَهْشةٍ أَعْظمُ مِنْ تِلْكَ ؟ ! خندقٌ عريضٌ عميقٌ شديدُ التَّحصينِ ، يَعْتَرِضُهم ويَسْتَوْقِفُهم ، ويَعْقِدُ أَلْسِنَتَهم عَنِ الكَلامِ ؟ إنَّهم

لَمْ يكُونـوا قطُّ يتـوقَّعونَهَا ، حتَّى قـالَ بعضُهم صـادِقاً : هـذِهِ مكيدَةٌ لا نَعرِفُها . .

وكادَتْ عَيْنا أَبي سفيانَ أَنْ تَجْحَظا وتَخْرجا مِنْ مكانِهِما ، وفركَهُما بيدَيْهِ عَسىٰ أَنْ يكونَ ما يراهُ حُلُماً ، ولكنَّ الحقيقةَ تصـدِمُهُ مرّاتٍ ، وكأَنَّهُ يأْمُرُ جفنَيْهِ بـالهبوطِ والانْسِـدالِ على عَيْنيهِ ، حتَّىٰ لا يَرىٰ مـا يَراهُ ، لكنَّهما تَـأْبيانِ إلا أَنْ تُطْلعـاهُ على خَنْـدقٍ بثـلاثِ صفاتٍ عظيمـةٍ ، لَمْ يسبِقْ لجزيرةِ العـربِ أَنْ عرفَتْ مِثْلَـهُ ، ولا سمعَتْ بمثْلِـهِ حتَّىٰ الآنَ . . إنَّها لمكيدةٌ حقّاً ، تَسْتَحِقُّ كُلَّ الدَّهشةِ ، بَلْ وأَشَدَّ دَهْشَةٍ .

تخطيطٌ جديدٌ

واضطربَ الجيْشُ المعْتَدي اضْطرابَـهُ الأَوَّلَ ، ورجفَتِ القلوبُ مِنْ هَوْلِ المفـاجَأَةِ ، واضطربَتِ الجيوشُ الـزَّاحفةُ أَنْ تقِفَ أَمامَ هـذا السَّدِّ العجيبِ جَبْراً لا اخْتِياراً ، وأَنْ تتريَّثَ قليلاً حتَّى تتـدبَّرَ أَمْرَها ، وتَرْسَمَ خِطَّةً جديدةً للموقِفِ الجديدِ .

سيِّدُ الكُفّـارِ مِنْ قريشٍ يعْصِرُ دماغَهُ ، فـلا يفْلُحُ في حلٍّ نـاجحٍ ، وسيِّدُ غطَفانَ ينظرُ في الأَرْضِ ، لا يَستطيعُ رَفْعَ رأْسِهِ لأَنَّ عقلَـهُ عاجِزٌ حتَّى الآنَ عَنْ خِطَّةٍ مناسبةٍ يدْخُلونَ بها المدينَةَ .

وعَسْكَرَ الجيْشُ القُرشيُّ ومَنْ والاهُ في مكانٍ قبالَـةَ الخَنْدقِ ، وعَسْكَرَ الجيْشُ الغطَفانيُّ ومن تَبِعَهُ في مكانٍ آخَرَ مِنْ ناحيةِ جبلِ أُحدٍ .

وسَرَحَ الطَّرفانِ خيـولَهما وإبلَهما في مزارعِ المدينةِ فعادَتْ خـائبةً لأَنَّ المسلمينَ قَدْ حَصدُوا زروعَهُمْ قَبْلَ شَهْـرٍ ، وأَدْخَلوا حصادَهُم وغِلالَهم إلىٰ المدينةِ .

وَقْفَةٌ طَويلَةٌ

وبقيـتْ كتائِبُ العَـدوِّ أَمـامَ الخندقِ ، تنظـرُ حـائِرةً لا تَدْري مـاذا تَسْتطيـعُ أَنْ تفعَلَ . وطـالَ وُقـوفُها ، وطـالَـتْ حَيْرتُها ، فكُلُّهم جـاؤُوا يظنُّون أَنَّ معركَةً مَعَ مُحمَّدٍ لَنْ تَستمرَّ يَـوْماً ، بَلْ بعْضَ يَوْمٍ ، فهذِهِ عادَةُ العربِ في معارِكِهِم ، وكُلَّ اعتقادِهم أَنَّ إحاطَةً واحدةً بالمدينةِ كافيةٌ في لحظةٍ لأَنْ تَلْتَهِمَ مُحمَّداً وصحْبَهُ . وهَيْهاتَ . . فـالخنْدقُ سَيَجعلُ الوَقفَةَ تطولُ أَكْثَرَ وأكثرَ ، ولا مَجالَ للاجْتيازِ ، وأَثَّرَ الوقوفُ الطَّويلُ في إدْخالِ اضطـرابٍ ثانٍ إلىٰ صفـوفِ الأَعـداءِ ، حيثُ تفكَّكَتِ الرَّوابطُ التي حملَتْهم علىٰ القتالِ .

وظَهرَ أَبو سفيانَ أَنَّهُ قائِدٌ للجيْشِ اسْماً لا فِعلاً ، فكُلُّ مَنْ أَمامَهُ كانَ يَمْلِكُ حُبَّ الـزَّعامةِ ، ممَّا يجعلـه يخرجُ عَنْ طاعةِ القـائدِ وتبعيَّتِهِ ، وهُوَ يَرىٰ أَنَّهُ أَهْلٌ للصَّدارَةِ في الـرأْيِ الأَوَّلِ والمقامِ الأَعْلىٰ للبحْثِ عَنْ حيلةٍ أمامَ الخنْدقِ ، ولن يتَّفِقَ الزُّعماءُ الذين كثُرَ عددُهم .

ضَرَباتٌ بالسِّهام

والجيْشُ المسْلمُ يترقَّبُ العدوانَ العمليَّ وهجومَ المشركينَ ، حتَّىٰ يردُّوا علىٰ مَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْهـم ، وكتائِبُ الأحزابِ لَمْ تَعرِفْ حِيْلَـةً حتَّىٰ الآنَ ،

وهيَ لا تَنفكُّ تطُوفُ بالخندقِ لَيْلاً ونَهاراً، عَلَّها تَجِدُ مَنْفَذاً فيهِ، ولكنَّ المسلمينَ لَمْ يَغْفلوا عَنِ الحراسةِ لحظَةً حتَّىٰ الآنَ، وكُلَّما حاولَتْ فِئَةٌ مِنَ المشركينَ الدُّنوَّ مِنَ الخندقِ صدَّها وابِلٌ مِنَ السِّهامِ والنِّبالِ المسلمةِ التي تمطِرُهم مِنْ فَوْقِهم ومِنْ أَمامِهِمْ، فترتَدُّ على أعْقابِها، وتَرْجعُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ خائبَةً مُنْهزِمَةً. إنَّهُ تراشُقٌ أَبْدىٰ للأحزابِ أَنَّ الاجتماعَ ضروريٌّ مِنْ جديدٍ، وأَنَّ عليهم تَوْحيدَ كلمتِهم، فمنَ العارِ أَنْ يَرْجعَ الجَيْشُ الكبيرُ وهُو عاجزٌ عَنْ دخولِ المدينةِ. وصَعُبَ على عشرةِ آلافِ مقاتلٍ أنْ يحملوا الهزيمةَ دونَ قِتالٍ، ووَسْوَسَ لهمُ الشَّيطانُ أَنْ يَبْدؤوا فَيَسْتعمِلوا خِطَّةً قِتاليَّةً هُجوميَّةً في أَفْضلِ فرصةٍ تُواتيهِم.

وَخَوْفٌ شَديدٌ

ويقولُ أَحَدُ الصَّحابةِ: (إنَّ الانتظارَ قَدْ طالَ، وازْدادَ الخوْفُ، فقدْ رأَيْنا أَنَّ الليْلَ والنَّهارَ أَصْبَحا عندَنا سواءً، لا مجالَ للعيونِ أَنْ تَغْفلَ لحظةً، فالمشركونَ قَدْ وَضَعوا بَرْنامجاً للمناوَبةِ في العملِ بينَهُم، فيَغْدو أبو سفيانَ في جماعتِهِ يَوْماً، ويغْدو خالدٌ بْنُ الوليدِ يَوْماً، ويغْدو عَمْرو ابْنُ العاصِ يَوْماً.. وعَظُمَ البَلاءُ، وخافَ النَّاسُ يَوْماً شَديداً، وكانَ معهم رُماةٌ يقدِّمُونَهم إذا غَدَوا بَيْنَ أيديهم، فتناوَشُوا يوماً بالنَّبْلِ ساعةً، ورسولُ اللهِ ﷺ على فَرَسِهِ، فرمىٰ (حِبَّانُ) وهُوَ أَحَدُ المشركينَ صَحابيّاً مِنْ كبارِ الأَنْصارِ واسْمُهُ (سَعْدُ بْنُ مُعاذ)، فأَصابَهُ بسَهْمٍ في أَكْحَلِهِ

(وهوَ عِرْقٌ إذا انْقطع لَمْ ينقطع الدَّمُ النَّازفُ منْهُ).

ودامَ التربُّصُ والتَّبادُلُ بالسِّهامِ حتَّىٰ خافَ اليهودُ الذين جَمعوا العربَ والأحزابَ أَنْ تَفلَتَ الفرصَةُ مِنْ أَيْديهم، وتنقلبَ الجموعُ عائِدَةً.

بابُ فَتْكٍ خَطِيرٌ

ماذا في يد اليهودِ الآنَ؟ الجوابُ واحِدٌ..

(إنَّ الجوَّ بارِدٌ جِدّاً، والشِّتاءُ يُخيِّمُ على الطَّبيعةِ، والأرضُ جَدْباءُ، والعلفُ الذي مَعَ المشركينَ قَدْ نفدَ، وكادَتِ الخيولُ تنفُقُ وتهلكُ مِنْ شدَّةِ الهزالِ..

وإنَّهُ لا سبيلَ إلا الدُّخولُ مِنْ جِهةِ الجنوبِ، أَيْ مِنْ عِنْدِ بَني قُريظَةَ وهمْ مَنْ بقيَ مِنَ اليهودِ، ويهودُ بني قريظةَ على عهدٍ مَعَ الرَّسول ﷺ أَنْ يُناصروه، وقَدْ ساعَدوه حقّاً في تهيئة أدوات الحفر في الخندقِ، عندما طَلَبَها المسلمونَ). حلٌّ واحِدٌ لا يوجدُ غيرُه، فهَلْ ستنجحُ الخِطَّةُ الجديدةُ؟

إنَّ مِنْ شِيَمِ اليهودِ أَنْ يغدروا بمَنْ حالَفَهُمْ وحالَفوهُ، ولَوْ فعلَها بَنُو قُريْظَةَ الآنَ، وغَدَروا برسولِ اللهِ، فإنَّهم سيَفتحونَ على المسْلمين باباً عظيماً للفَتْكِ بهم، فرحْماكَ يا ربُّ.. ساعِدِ المسْلمينَ فالغَدْر على الأبوابِ.

خِيانَةُ الغادِرِينَ

واسْتَطاعَ أَحَدُ زعماءِ اليهودِ خارجَ المدينةِ وهُو (حُيَيُّ بْنُ أَخْطب) أَنْ يَدْخل إلى بَيْتِ زعيمِ بَنِي قُرَيظَةَ : (كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ) فيقولَ لَهُ : يا كَعْبُ : إنَّما جئتُكَ بعزِّ الدَّهْرِ ، جئتُكَ بقريشٍ وسادَتِها ، وغطفانَ وسادَتِها ، وكلُّهم مَعَ قادتِهم قَدْ تعاهدوا على أَنْ يَسْتأصِلوا مُحمَّداً ومَنْ مَعَهُ ، فقالَ كعبٌ : وهَلْ تريدُ منِّي أنْ أقفَ إلى جانِبِكم ضدَّ محمّدٍ ؟ قالَ حُيَيٌّ : نَعَم ، فأجابَهُ كعبٌ معْتذِراً : وَيْحَكَ يا حُيَيّ ، فَدَعني، فَلَستُ بفاعِلٍ ما تَدْعوني إليْهِ ، فإنِّي لمْ أرَ مِنْ مُحمَّدٍ إلا وَفاءً وصِدْقاً ، فَلَمْ يَزَلْ حُيَيٌّ عنْدَ كَعبٍ يَعِدُهُ ويُغْريهِ حتَّى رَجَعَ كَعْبٌ عَنْ رَأْيِه ، وعاقَدَ الأَحزابَ على خِذْلانِ مُحمَّدٍ ﷺ وصَحْبِه ، وزادَ الكُفَّار حِزْباً مُعادياً ضِدَّ المسلمِينَ ، وخَرجَ حُيَي الغادِرُ مِنْ عنْدِ كَعْبٍ الخائِنِ وهُوَ يَقُول فَرِحاً : (إنِ انْصرفَتْ قريْشٌ وغَطَفانُ بَعْدَ الحربِ دخلتُ عندكَ بمَنْ معي مِن اليهودِ) .

وَاشْتَدَّ الضَّغْطُ

. . ومَعَ أَنَّ سعْدَ بْنَ مُعاذٍ سيِّدَ الأوْسِ وسَعْدَ بْنَ عبادةَ سيِّدَ الخزرَجِ قَدِ انْطَلقا مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِهِما إلى بَني قُرَيظةَ لِيُرجعوهُم عن رأيهم الجديدِ ، إلا أنَّ اليهودَ بقوا على غدْرِهِمْ قائلين : (لا عَهْدَ لمحمَّدٍ عنْدَنا) ، فقالَ لهُمُ ابْنُ معاذٍ : (أَخْشى عليكم مِثْلَ يَوم بني النَّضير

وأمرَّ منْهُ) فأفحشوا لَهُ في القَوْلِ ، وشَتَموهُ ..

فظنَّ المسلمونَ أَنَّهم قَدْ أُحِيط بهِمْ ، فإذا ما دَخَلَ الأَعداءُ مِنْ جهةِ بَني قُرَيظَةَ فقدِ انْتَهى الأَمْرُ ، ويصوِّرُ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى هٰذا الموقِفَ بآيةٍ مجملَةٍ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ ورسولُ اللهِ ﷺ يحثُّهم مُسْتَبْشِراً : (أَبْشروا يا مَعْشرَ المسلمينَ ، والذي نَفْسي بِيَدِهِ لَيُفَرِّجَنَّ اللهُ عنكُمْ ما تَرَونه مِن الشِّدَّةِ)

اقْتِحامٌ فاشِلٌ

وزادَ مِنَ الأَمْرِ على قلوبِ المسلمينَ أَنَّ المنافقينَ قَدْ كَشَفوا عَنْ حَقيقَتِهم مِنْ جَديدٍ كَما فَعَلوا في أُحُدٍ وَدَخلوا إلى بُيُوتِهِم وهُم يَقُولونَ : (يَعِدُنا محمَّدٌ أَنْ يفْتَحَ كُنُوزَ الفُرسِ والرُّومِ ، وأحدُنا يخافُ إذا ذَهَبَ ليقْضِيَ حاجَتَهُ) . وها هُمْ أُولاءِ المشركونَ قَدِ انتَفَشَتْ قُلُوبُهم عِنْدَ اقتناعِ بَني قُرَيظَةَ والمنافقين مَعاً بالعُدولِ عَنْ نُصْرَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وجعلَ الفُرْسانُ مِنَ المشركينَ يُحاولون في عَشَرةِ أَيامٍ مُتَتالِيةٍ مناوشاتٍ عديدةً رَيْثَما تشتدُّ كتائبُ الأَحْزابِ ، وأَتى الصَّناديدُ مِنْهُمْ مَكاناً ضَيِّقاً مِنَ الخَنْدقِ أَغْفَلَ المسلمونَ حراسَتَهُ قليلاً لِشِدَّةِ إرْهاقِهِم ، واسْتَطاعَ عَمْرو بْنُ وِدٍّ العامريُّ اقْتحامَ المكانِ بفرسِهِ ، ووقَفَ مُتَحدِّياً مُبارِزاً ،

فَخَرَجَ إليهِ عليٌّ ابْنُ عَمِّ الرَّسولِ ﷺ ، وجالَ مَعَ الصِّنديدِ المشركِ الكبيرِ جولاتٍ أصابَهُ في نهايتِها بضَربةٍ رائعةٍ على ساقِهِ ، وأُخرىٰ أَرْوَع قتلَهُ بها .

إسْلامُ (نُعَيْمٍ)

وأرْسَلَ الرّسولُ ﷺ إلى البُيُوتاتِ والصِّغارِ ، مائتي بَطَلٍ بقيادةِ (سَلَمَةَ بْنِ أَسْلم) حَذَراً مِنْ بَني قريظَةَ ، وثلاثمِئةٍ آخرينَ بقيادةِ (زَيْدِ بْنِ حارثَةَ) . وازْدادَ الحِصارُ حَوْلَ المسلمينَ ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ مُدَّخَرٌ مِنْ عَمَلٍ ، وهُناكَ رَفَعَ الرّسولُ يَدَيْهِ وهُوَ يقولُ : (اللّهمَّ إنّي أنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووعدَكَ ، اللّهمَّ ادْفَعْ عنّا شَرَّهُمْ ، وانْصُرْنا عليهِمْ) . واللهُ هُوَ النّاصِرُ حَقّاً ، وهُوَ الذي بعثَ عنايَتَهُ الآنَ لتَدْخُلَ المعركَةَ ، فماذا حَدَثَ يا تُرىٰ؟ . . لقدْ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ رجُلٌ اسمُهُ (نُعَيْمُ بْنُ مَسعودٍ) وهُوَ يقولُ : يا رسولَ اللهِ : إنّي قَدْ أسْلَمْتُ ، ولَمْ يَعْلَمْ قومي بإسْلامي ، وأنا تَحْتَ أوامِرِكَ ما شِئْتَ . فأمَرَهُ الرّسولُ أنْ يُخذِّلَ عَنِ المسلمينَ ما اسْتطاعَ، ويحاولَ أنْ يذهبَ إلى كُلِّ فريقٍ مِنَ الأعْداءِ ليدُبَّ في قُلوبِهم شَيْئاً مِنَ التَّفَكُّكِ والخوفِ ونَبذِ التَّعاهُدِ فيما بَيْنَهم . .

تَخْذِيلُ الفريقَيْنِ

وخَرَجَ نُعَيْمٌ حتّىٰ أتىٰ بَني قريظَةَ فقالَ : يا بَني قُرَيظَةَ تعرفونَ أنّي مِنْ غَطَفانَ ، وتعلمونَ أنّي أودُّكُم ، وإنّي أعْرَفُ بقريشٍ وغَطَفانَ مِنكُم ،

وإنَّهم قَدْ أتَوا للمغْنَمِ ، فإنْ رأوا فرصَةً أصابُوها ، وإلا فَهُمْ سَيَلْحقون ببلادِهِم ، ويتركُونكُمْ تُحارِبونَ محمَّداً وحْدَكُم ، ولا طاقَةَ لكُمْ بِهِ ، فإيّاكُم أنْ تُقاتلوا مَعَ قريشٍ وغطَفان حتّىٰ تأْخذوا منْهم رهائِنَ مِنْ أشْرافِهم ، فوَعَدوهُ بذلكَ وهُم لا يعلمونَ بإسلامِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ حتّى أتىٰ قُرَيْشاً فقالَ لهُمْ : تَعْلمونَ وُدّي لكُمْ ، وقَدْ علمْتُ أنَّ بَني قريظَةَ قَدْ نَدِموا على نقْضِهِم العهْدَ مَعَ محمَّدٍ ، وقَدْ أرْسلوا إليهِ أنَّهم نَدِموا ، وسَيأْخذونَ منكمْ ومِنْ غطفانَ رِجالاً ليُرضُوه بضَرْبِ أعْناقِهم . ثُمَّ أتىٰ غطفانَ وقالَ مثْلَ الذي قالَ لقريْشٍ ، وزادَ قولَهُ لقريْشٍ وغطفانَ : (فإنْ أتَوا وطَلَبُوا منكُمْ رِجالاً فَلا تُعطوهم ، ولا تُسلِّموهم أشْرافَكُمْ للإعدام . .) .

صَدَقَنا ابْنُ مَسْعُودٍ ! !

وحَقّاً : لَقَدْ نجحَتِ الحِيلَةُ وخُدِعَ الأحْزاب ، فها هُوذا أبُو سفيان يُرْسِلُ عِكرِمَةَ بْنَ أبي جهلٍ إلى بَني قريظَةَ : (أنَّ غداً هُوَ يومُ البَدْءِ بالقِتالِ ومُناجَزَةِ محمَّدٍ) ، فأجابَهُ بَنُو قُرَيظَةَ : (لا نُقاتِلُ معكُم حتّىٰ تُعطونا رهائِنَ مِنْ رِجالكم يكونُون بأيدينا ثِقةً لَنا ، فإنّا نَخْشىٰ إنِ اشتدَّ عليكُمُ القِتالُ أنْ تَلْحقوا بِبلادِكم ، وتَتْركونا مَعَ مُحمَّدٍ ، ولا طاقةَ لَنا بِهِ وحْدَنا) .

فلمّا رَجعَ عِكرِمَةُ بجوابِهم ، قالَ أبو سفيانَ : صَدَقَنا واللهِ نُعَيمُ بنُ

مَسْعودٍ . ارْجِعْ يا عِكْرِمَةُ ، وقُلْ لهم : واللهِ لا نُعطيكم رهائنَ أبداً ، فاخْرجوا مَعَنا للقِتالِ غداً ، وإلا فلا عَهْدَ بيننا وبَيْنكم . فلمَّا سَمِعَ بَنو قُرِيظةَ الرَّدَّ ، قالُوا : صَدَقَنا واللهِ نُعيمُ بْنُ مَسْعودٍ .

وَبَدَأ الاضطرابُ الثَّالثُ يأخذُ دَوْرَهُ ، وفازَ ابْنُ مسعودٍ في تَفْكيكِ العهْدِ بَيْنَ اليهودِ مِنْ جهةٍ ، وبيْنَ قريشٍ وغَطفانَ مِن جِهةٍ والحمدُ للهِ .

فَما النِّهايَةُ ؟

وإلى الآنَ يا أحِبَّائي لَمْ تَنْتَهِ الحكايةُ عَنْ غزوةِ الخنْدقِ ، فالحَرْبُ ما زالتْ قائمةً ، وإنَّما الذي بدا في الأُفُقِ هُوَ بوادِرُ نصْرٍ للمسلمينَ ، وفَرِحَ المسلمونَ ، وحمدُوا اللهَ على خِطَّةِ ابنِ مسعودٍ النَّاجحة .. وإنَّها لَفُرصَةٌ جميلَةٌ علىٰ المسلمين ألا يُضيِّعُوها ، بَلْ عليهم أَنْ يُتابعوا الدُّعاءَ إلى اللهِ تعالى لكَيْ يُتابعَ نَصْرَهُ لهم ، فَلا ناصِرَ غيرُهُ ، ولا يَسْتحِقُّ نصرَهُ إلا أمثالُهُم مِنَ المؤمنينَ الصَّادقينَ .

فما النِّهايةُ يا تُرىٰ ؟ وَكَيْفَ سيتمُّ النّصرُ بعْدَ أَنْ شَمَمنا رائحَتَهُ ؟ . إنَّهُ النَّصرُ الأكيدُ . . وإنَّها لَعِنايةُ السَّماءِ . . واللهُ يسهِّلُ هذا لعبادِهِ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ . اللَّهمَّ اجْعَلْنا ممَّنْ تَنْفَعُهم الذكْرىٰ يا ربَّ العالمينَ . اللَّهمَّ آمين .

*****

قَصَص

السِّيرة النَّبويَّة

٤٤



انتصار الصّادقين

الأمْرُ صَعْبٌ

توصَّلْنا يا أحبَّتي في الصَّفحاتِ السَّابقةِ إلى أنَّ اتِّفاقَ قُرَيْشٍ وغَطفانَ واليهودِ لَمْ يُفْلحْ في القَضاء على الاخْتلافِ وتفكُّكِ الرَّوابطِ فيما بَيْنهم ، حيْثُ سرْعان ما خَذَلَ بعْضُهم بعْضاً بعْدَ خِطَّةِ نُعَيم بْنِ مَسعودٍ التي تحدَّثنا عنْها ، في ذلكَ الوقْتِ تفكَّكتِ الرَّوابطُ وانْعدمَتِ الثِّقةُ ، وتوتَّرتِ الأعصابُ ، وسَئِمتِ النُّفوسُ طُولَ المَقام ، وحدَّد المُشْركونَ يومَ السَّبتِ لبَدْءِ القتالِ وهُوَ يومٌ لا يُقاتِلُ فيهِ اليهودُ عدُوّاً لهم ، وزيادةً علىٰ ذلكَ فقدْ أَرْسلَ اللهُ عَذاباً مِنْ عنْده علىٰ المشْركينَ ، أدْركوا بعْدَهُ أنَّ البقاءَ لَنْ يُفيدَهُم . . الوقْتُ شتاءٌ والجوُّ باردٌ ، والعادةُ في الحروبِ أنْ يبقوا يَوْماً أو بَعْضَ اليوْم ، أمَّا الأيَّامُ الطَّويلةُ دونَ فائدةٍ أوْ قِتالٍ ، فهذا أمْرٌ صعْبٌ لَمْ يَعْتدْ عليهِ العربُ مِنْ قَبْلُ .

هَلْ تدرُونَ ما العذابُ الذي أرْسلَهُ اللهُ مِنْ عِنْده على المعْتَدِين ؟ .

رِيحُ الإنْذارِ

كانَ العذابُ ريحاً تُنْذِرُ بالخَطرِ والويْلِ إنْ بقيَ الأعداءُ في أماكِنِهم ، وإنَّها لريحٌ لا تَعْرفُ حَدّاً للعَصْفِ والهَيَجان ، وجاءَت في ليلةٍ شاتيةٍ شديدةِ البَرْدِ حالكةِ الظَّلامِ ، كلُّ هَذا قد اجتمعَ ليَقْلِبَ قُدورَ

المشْرِكينَ على الأرْضِ وليَطْرحَ أوَانيهم على فَمِها ، ويُطْفِىءَ نيرانَهم ، ويقوِّضَ خيامَهم . وسَيْطرَ الرُّعبُ على الأفئدةِ ، وانتَشرَ الفراغُ المفْزِعُ في النُّفوسِ . يومٌ شديدٌ زادَ مِنْ صُعوبةِ الأَمْرِ ، فهلْ تتوقَّعُونَ أنَّ المعركَةَ ستَسْتمرُّ أكْثَرَ مِنْ ذَلكَ يا أحبَّائي ؟ . . إنَّ المشركينَ بقيادة أبي سُفْيانَ وسيِّدِ غَطفان لَمْ يعُودوا يُطيقونَ صَبْراً على البَقاء ، والغريبُ أنَّ القائدَيْنِ قَدْ نَفَذَ صَبْرُهما قَبْلَ الآخرينَ ! ولا عَجَبَ فقدْ آنَ الأوانُ لكيْ ينْتصرَ الصَّادِقونَ عليهِمُ انْتصاراً صادقاً ، وليُوقنَ الكافِرون أنَّ كُفْرَهُم لَنْ يَنْفعَهُم ، وأنَّ عَوْنَ اللهِ تعالىٰ دائمٌ للعبادِ الموحِّدينَ العامِلين علىٰ نَشْرِ دِينه . .

بَشائِرُ الفَرَحِ الحقيقيِّ

وأرْسلَ الرَّسولُ (حُذَيْفَةَ بْنَ اليمانِ) ، ليذْهبَ ، فيَرىٰ ما يَفْعلُ المشركونَ في اللَّيْلِ بَعْدَ هَذِهِ الرِّيحِ المنْذِرَةِ ؟ فذَهَبَ حذيْفَةُ ، فوجَدَ أنَّ أَبا سفيانَ قائمٌ يَصيحُ بالقوْمِ والقرشيِّينَ ، ويَقُول : يا مَعْشرَ قريْشٍ إنَّكُم واللهِ ما أَصْبحتُم بدارِ مقام ، لقَدْ هلكتِ الإبلُ والخَيْلُ ، وأخلفَتْنا بنو قرَيْظَةَ ، وبلَغَنا عنْهُم الذي نكْرهُ ، ولقينا مِنْ شدَّةِ الرِّيحِ ما تَرَوْنَ : ما يطمئِنُّ لَنا قِدْرٌ ، ولا تَقومُ لنا نارٌ ، ولا يَسْتمسكُ لنا بناءٌ ، فارْتحلوا فإنِّي مُرْتحلٌ .

وسَمِعَ القرشيُّون مقالَةَ أبي سفيانَ ، وسَمِعَ حذيفَةُ الحديثَ ، فعادَ إلىٰ

رسولِ اللهِ ، فرآهُ يصلّي ، فانْتَظرَ حتّى أَنْهىٰ الـرَّسولُ ﷺ صلاتَهُ ثُمَّ قالَ لَهُ : يا رسولَ اللهِ : إنّي قَدْ أَتَيْتُ القومَ ، وكانَ خبرُهم كَـذا وكَذا وسَوْفَ يَرْتَحِلونَ الآنَ ، فَحمِدَ رسولُنا ربَّـهُ علىٰ أَنْ بَدتْ بشائِرُ الفَرحِ الحقيقيِّ تلُوحُ في الأُفقِ.

انْخِذالُ القَوْمِ

وصمَّمتْ غطَفانُ على تَقْليدِ قريْشٍ والارتحالِ عَنِ المدينةِ دُونَ حَرْبٍ، وعَلِمَ الرَّسولُ بِخَبرِها ، وأَيْقنَ أَنَّهم مُرتَحِلونَ لا مَحالَةَ.

وتُشْرِقُ الشَّمسُ في الصَّباحِ لِينْظُرَ المسلمونَ ، فَلا يجِدُ أَحَدُهُم أَحَداً من جموعِ العدوِّ الحاشدةِ ، أينَ قريشٌ ؟ أَيْنَ غطَفانُ ؟ بل أَيْنَ الفرسانُ والقادةُ أمثالُ خالدٍ وعِكْرِمَةَ ؟ لا أثَرَ لأحدٍ منهمْ ، وهدأَتِ الرِّيحُ بإذْنِ اللهِ بعدَ ذهابِ المرتَحِلينَ . .

وارْتسمتِ ابتسامَةُ الفرحَةِ ، وانْهمَرتْ دُموعُ الشُّكرِ ، وانطلقَتِ الألسنَةُ تلهجُ بذِكرِ اللهِ ، وقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ : (الآنَ نَغزوهم ، ولا يَغْزوننا) . أي : إنَّ قريْشاً لم تعُدْ قادرةً علىٰ شنِّ غزوةٍ جديدةٍ ، فقدِ اقْتنعَ سادَةُ مكَّةَ الآنَ بأَنَّ اللهَ لَنْ يَترُكَ النَّصرَ يفلِتُ مِنْ أيدي المسلمينَ الصادقينَ مرَّةً أُخرىٰ بعدَ أُحُدٍ ، وحقّاً : فاللهُ مَوْلىٰ المؤمنينَ ، أمَّا الكافرونَ فلا مَوْلىٰ لهم .

حَمْداً لَكَ يا رب

ويهتِفُ مُحمَّدٌ ﷺ بدُعاءِ الحمدِ ، وأُنشودةِ النَّصرِ ، ويردِّدُ معَهُ المسلمونَ هَذا الكلامَ الجميلَ ، وبصوْتٍ مُرْتفِعٍ خاشِعٍ وجميلٍ : (لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَه . . صدَقَ وَعْدَهُ . . ونَصرَ عَبْدَهُ . . وأعزَّ جُنْدَهُ ، وهَزَمَ الأَحْزابَ وحْدَهُ . . فلا شيْءَ بَعْدَهُ . .) .

لِنُردِّدْ هذا النشيدَ الرّائعَ ونحنُ نشْعُرُ بالعزّةِ والفَخْرِ ، وحَقّاً لا شيْءَ بعْدَ نَصْرِ اللهِ . إنَّهُ نشيدُ النَّصرِ ... والشُّكرِ ، والحمدِ ، فالشُّكرُ لكَ يا ربُّ علىٰ ما أنعمْتَ ، وأكْرَمْتَ بهِ عبادَكَ الصّالحينَ . . الحمدُ لكَ لا حَمْدَ معَهُ لأَحدٍ غيرِكَ ، فأَنْتَ اللهُ الذي يَسْتحِقُّ كُلَّ حَمْدٍ ، وأَنْتَ القادِرُ علىٰ أَنْ تَنْصُرَ دَوْماً جُنْدَكَ وعَبْدَكَ صاحِبَ الخُلُقِ العظيمِ ، لا إله إلا أنْتَ ، صدقْتَ الوَعْدَ وحْدَكَ . . فالحمدُ لكَ وحْدَكَ .

صورةُ المعركة

لَقدْ كانتْ معركةَ حياةٍ أَوْ موتٍ ، فلَوْ نَجحَ الأحزابُ في حَرْبهم هذِهِ لانْتَهىٰ المؤمنونَ مِنْ يثربَ ، ولَقُتِلَ الصَّحابةُ أَجْمعونَ ، إنَّها لَمْ تكُنْ معركةَ ميدانٍ مثْلَ بدرٍ وأُحدٍ حتّىٰ تتميَّزَ فيها البُطُولَةُ والمبارزةُ واستعراضُ الهجومِ ، بَلْ كانَتْ معركةَ أعْصابٍ ، وامتحانَ عزائمَ ، واختبارَ قلوبٍ .

ولقدْ أَخفقَ المنافقونَ وانْهزموا مكْشُوفينَ علىٰ حقيقَتِهم مرَّةً أُخرىٰ ، وأخفقَ اليهودُ داخِلَ وخارجَ المدينةِ ، وكلَّلتْهم الهزيمةُ أيْضاً ، وأَخفقَ

المُشركون مِنْ قُرَيْش وغطفانَ ، وولَّوُا الأدْبارَ مَهْزومين . ولَمْ يَصْبِرْ إلا المؤمنونَ الذين أيْقنوا أنَّ اللهَ مؤيِّدُهم لا شَكَّ بعنايتِهِ ، وأنَّ نَصْرَهُ حقٌّ ، ووعْدَهُ صِدْقٌ ، فاسْتَحقُّوا نَصْرَ اللهِ على نَجاحِهم في الامتحانِ نَجاحاً باهِراً : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ . .

وأَيْنَ سيَذْهَبُ الغَدْرُ ؟

والتفتَ المسلمونَ مَعَ رسولِهم ﷺ إلى خَنْدَقِهم ، يَشْكرونَ لِسلْمانَ طِيبَ فِكرِه ، وصَوابَ رأيِه ، ونَظَروا إلى نُعيم بنِ مَسْعودٍ ، يحمِّلونَهُ قُبْلَةَ الرِّضا عَنْ إيمانه وحُسْنِ إسْلامِه ، ويودِعُونَهُ تحيّةَ الاحْترام والإعجابِ والشُّكْرِ والتَّقديرِ لِشدَّةِ ذكائِهِ وسْطَ المعْركةِ . ووقَعَ نَظَرُهم أخيراً على بُيوتِ بَني قُرَيظةَ ، فغلَتْ صُدورُهُمْ ونُفوسُهم ، وتَذَكَّروا الغَدْرَ الذي فَتحَ عليهم ثغرةً كبيرةً في وقتٍ كانَ المسلمونَ فيه أحْوجَ إلى العَهْدِ ، إنَّهُ لولا نَقْضِهم للعهْدِ معَ الرَّسولِ لَما اسْتَطاعَ المشركونَ أنْ يجدوا باباً أخيراً للدّخولِ والهجومِ على المسلمينَ ، ولَقَدْ كانَ مِنَ الجائزِ أنْ ييأسوا مِنَ الوُصولِ إلى محمَّدٍ وصحبِهِ لَوْلا هذِه الخيانَةُ التي أعْطَتْهم خَيْطاً طَويلاً مِنَ الأملِ ، والصَّبرِ على البَقاءِ ، إنَّهُ الغَدْرُ الذي زلْزلَ قلوبَ المسلمينَ وزادَ مِنِ اشْتدادِ الضَّغطِ عَليهم . .

الجَزاءُ العادلُ

لَمْ يكُنْ هُناك سببٌ للغَدْرِ غير الحقدِ على الدَّعْوةِ وأَصْحابِها ، مَعَ أنَّ اليهودَ لَمْ يَروا مِنْ مُحمَّدٍ ﷺ إلا وفاءً وصِدْقاً ، كما قالَ زعيمُهم كَعْبُ بْنُ أسدٍ قبيْلَ الخيانةِ ، فهَلْ سيسكُتُ المسلمونَ عَنْ هذِهِ الخيانةِ ؟ وهَلْ سيَعْفونَ عَنْ شِرْذِمةٍ كادَتْ أَنْ تفتحَ بابَ الفَتْكِ والفَناءِ على مِصْراعَيْهِ ؟ .

والحقُّ يُقالُ : إنَّ عَمَلَ بَني قُرَيظةَ هُو (نَقْضٌ وغَدْرٌ وخِيانةٌ) . والنتيجةُ الوحيدةُ هِيَ : (انْتَظِروا يا بَني قُريْظةَ قليلاً حتَّى تَلْقَوا الجزاءَ العادِلَ على عملِكم هَذا ، ولا تتوقَّعوا إلا قَتْلَكم وفناءَكم على أيْدِينا ، لأنكم قَدْ نَوَيْتم إفْناءَ المسلمينَ ورسولِهم ودَعْوتِهم) .

هَذا جزاءُ مَنْ يغدرُ بدَناءةٍ ، وإنَّ غَدْرَكُم لَدَنِيءٌ حقّاً ، لأنَّهُ غَدْرٌ مِنَ الخَلْفِ لِمَنْ أدارَ لكُم ظَهْرَهُ واثقاً بكُم ، مُطْمئناً إلى عَهْدِكُمْ ، واعْترفْتُم بوَفائِهِ وصِدْقِهِ لأعْدائِهِ المحارِبينَ لَهُ .

تَلْبِيَةُ النِّداءِ

إنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أنْ لا يُصفِّيَ المسلمونَ حِسابَهم الآنَ مَعَ يهودِ بَني قُرَيظةَ ، ومِنَ الخطأ أنْ يَتأخَّروا أوْ يأمنوا لأمْثالِهم بَعْدَ أنْ حَصَلَ ما حَصَلَ ، فلا تترُكْهم يا رسولَ اللهِ ، ولا تُمْهِلْهم لخروجٍ أوْ هَرَبٍ ، فَلو أخْرَجْتَهم كَما أخْرجْتَ مَنْ قبلَهم ، لَقاموا بمثْلِ ما فعَلَهُ المطْرودونَ مِنْ

تأليبِ الأعْداءِ ضِدّكَ ، فضَعْ نهايةً وَحَدّاً نهائيّاً لبَني قُريظةَ يا رسولَ اللهِ، فالوَقْتُ معكَ الآنَ . . وأتَمَّ الرّسولُ ﷺ صلاةَ الظهْرِ بعْدَ انْدحارِ الأحزابِ الغُرباءِ عَنِ المدينةِ ، ثُمَّ أمَرَ بِلالاً أنْ يُناديَ في النّاسِ : (مَنْ كَانَ سامِعاً مُطيعاً ، فَلا يُصَلّيَنَّ العَصْرَ إلا في بَني قُريظةَ) ، فأخَذَ المسلمونَ يَلْبَسونَ سِلاحَهم مِنْ جديدٍ ، ويَتَوافدون سِراعاً على الطّريق إلى حُصونِ بَني قريظةَ في الجَنوبِ ، وعند المساءِ ، كانوا جميعاً قد اجْتَمعوا ، لَمْ يتخلّفْ منهُم أحَدٌ ، تتقدّمُهم فُرسانُهم ، ويحمل لواءَهُم عليٌّ .

حِصارٌ طَويلٌ

واسْتقبلَهُم بَنو قُريظةَ يَشْتمونَ رسولَ اللهِ وأزْواجَهُ ، فَسَكَتَ المسلمونَ ، ثُمَّ قالُوا : السَّيفُ بَيْننا وبَيْنكم ، وأمَرَ الرّسُولُ بحصارِهِم ، فَبدأَ الحصارُ على الفَوْرِ ، واخْتبأ اليهودُ في حُصونِهم ، خائِفينَ مِنْ شِدّةِ الحِصارِ أنْ تَطولَ ، وقذفَ اللهُ في قُلوبِهِم الرُّعْبَ ، فأرسلوا إلى الرّسولِ أنْ يخرجوا بِنِسائِهم وأبْنائِهم وما حَملتِ الإبلُ مِنْ أمْوالِهم ، كَما فعلَ بَنو النَّضيرِ مِنْ قَبْلِهِم ، فَرَفضَ رسولُ اللهِ ﷺ طلَبَهم .

وأشارَ زعيمُهم (كعْبُ بْنُ أسدٍ) عليهم أنْ أسْلِموا وكُونوا في عِدادِ المسلمينَ تَنالوا عَفْوَ الرّسولِ ، فَرَفَضَ اليهودُ رَأيَهُ على الرّغْمِ مِن اقْتناعِهم بعَجْزِهم عَنْ مُحاربةِ الرّسولِ والمسلمينَ وخَذْلهم ، واخْتلفوا ، ودَبَّ القَلقُ، وبدا النّدم على الوجوهِ اليهوديّةِ مِنْ سُوءِ صَنيعِ الأيْدي

والنُّفوسِ ، وأدْركوا أخيراً أنَّ المنافقينَ لنْ يمدّوا لهمْ يدَ العَوْنِ ، وَأنَّ حُكْمَ الرّسولِ عليهم هُوَ الموتُ والقَتْلُ لا مَحالَةَ .

تَحْكيمٌ في أوانِهِ

وتَركَ الرّسولُ لهم أنْ يَختاروا رَجُلاً مِنَ الأوسِ ليَحْكمَ بيْنَهم وبيْنَهُ ، فاخْتاروا بطَلَ الأوسِ وسَيِّدَهُم الذي أصابَهُ سَهْمٌ أمامَ الخندقِ . . إنَّه (سعدُ بْنُ مُعاذٍ) ، ويا لَغريبِ أمرِهم ! إنَّهُ مَنْ حاولَ إرْجاعَ بني قريْظةَ عَنْ خِيانتِهم، فشَتَموهُ، وأفْحَشوا لَهُ في القوْلِ . . وأرسَلَ الرّسولُ وراءَهَ، وكانَ في المسْجدِ يُداوي جُرْحَهُ بعْدَ أنْ نَزَفَ كثيراً وقْتَ الحِصارِ الطَّويلِ لبَني قريظةَ ، وسرْعانَ ما سارَ سعْدٌ ناسِياً ألَمَهُ ، وفِئةٌ مِنْ حَوْلِهِ يتشَفَّعونَ ، ويَطْلُبونَ منْهُ التّسْهيلَ في الحُكْمِ على بَني قُريظةَ ، وهُوَ ساكِتٌ لا يُجيبُهم ، ثُمَّ تكلَّمَ، وقالَ بجُرأةِ المؤمنِ العادلِ : (لَنْ أتَساهلَ في العُقوبةِ ، فلقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أنْ لا تأخُذَهُ في اللهِ لَوْمةُ لائمٍ مِنَ النّاسِ) .

عنْدها عرفَ هؤلاء مقْصدَهُ، وحُكمَهُ ، وعَلِموا أنَّ إلحاحَهم عليْهِ لَنْ يُفيدَهم أبداً . .

مِنْ جِنْسِ الذَّنْبِ

ووَصَلَ سعْدٌ ، وقالَ لرسولِ اللهِ متأدّباً : اللهُ ورَسُولُهُ أحَقُّ بالحكم . وما أشَدَّ أدبَهُ ! فقالَ له الرّسولُ ﷺ : قَدْ أمرَكَ اللهُ أنْ تحْكُمَ فيهِمْ ،

فالتَفَتَ سعْدٌ إلى المسلمينَ قائلاً : عليْكُمْ عهْدُ اللهِ وميثاقُهُ أَنَّ الحُكْمَ فيهم بما أحكمُ الآن ؟ قالُوا : نَعم . . وعِنْدَها قالَ سَعْدٌ بأَعْلىٰ صوتِهِ : فإِنِّي أحْكُمُ أَنْ تقتَّلَ الرِّجالُ ، وتقَسَّمَ الأموالُ ، وتُسْبىٰ الذَّراري والنِّساءُ . . ! ! .

وسادَ صمتٌ رهيبٌ . . قطَعَهُ صوتُ رسولِ اللهِ قائلاً لِسَعْدٍ : (لَقَدْ حَكَمْتَ فيهم بحُكْمِ اللهِ منْ فَوْقِ سَبْعِ سماواتٍ) .

ونَفَّذَ المسلمونَ حُكْمَ مُعاذٍ في اليهودِ ، وبَدؤوا بقائِدِ قُريظةَ كعبِ بن أسدٍ وقائِدٍ آخَرَ اخْتبأَ عِنْدَ كعبٍ هوَ مفتاحُ البلاءِ علىٰ اليهودِ : (حُيي ابْن أَخْطب) ، ولمْ ينْجُ مِنَ القَتْلِ إلا ثلاثةُ رجالٍ أظْهروا الوفاءَ والصِّدقَ والإِسلامَ عَنْ قَناعةٍ تامَّةٍ .

نَتائِجُ عظيمَةٌ

ولا تَسْأَلوا عنِ العددِ الذي ذُبِحَ وقُتِلَ ، فمهْما كانتِ المذبحَةُ عظيمةً حقّاً ، ومهْما كانَ مِنْ أَمْرِ القَضاءِ على قبيلةٍ بأكملِها مِنَ اليهودِ ، فالأمْرُ أَعْظمُ وأَدْهىٰ وأَمَرُّ فيما لَوْ كانَ العكْسُ ، أيْ لَو نَجَحَ التَّحالُفُ اليهوديُّ مَعَ المشركين ، ونفَذَ الكافرون مِنْ بابِ الغدْرِ الجنوبيِّ . .

إنَّ نتائج عظيمةً قَدْ تحقَّقتْ يا أحبَّتي والحمدُ للهِ بحُكْمِ ابْنِ معاذٍ هذا ، فلَقَدْ نَجا المسلمونَ ، وتخلَّصوا مِنْ غدرٍ وَخيمٍ ، وأَخذوا أراضيَ وأمْلاكَ الغادرينَ ، فوسَّعَ اللهُ بها على الأنصارِ والمهاجِرين مَعاً ،

واشْتروا ببعضِ ما ملكُوا سِلاحاً وخَيلاً للجهادِ في سبيلِ اللهِ ، فالحمدُ للهِ على ما أَنْعم بِهِ ، ورضيَ اللهُ عَنِ سعْدِ بنِ مُعاذٍ الذي أَصابَ في حكمِهِ بنظرةٍ عميقةٍ طويلةٍ إلى المستقبلِ الإسلاميِّ ، ورضيَ عَنْ سلمانَ صاحِبِ خنْدقِ الحياةِ وعَنْ نُعيمٍ صاحِبِ فكرةِ النَّجاةِ . . وعَنْ كلِّ أبطالِ الحقِّ ، وصلّىٰ وسلَّمَ علىٰ قائِدِهم العظيمِ .

وَانْتَهىٰ وُجُودُهُمْ

وبهذا يا أعزّائي تَنْتَهي غَزْوةُ الخنْدقِ ، لَقَدِ انْتهتْ بانتهاءِ وُجودِ اليهودِ في المدينةِ ، فلَمْ يعُدْ لَهُمْ أَثَرٌ يُذْكَرُ ، ولا ضَرَرٌ داخِلَ المدينةِ ، وبانْتهاءِ وجودِهم فَقَدَ المنافِقونَ أَنْصاراً لَهُمْ مِنْ قبائِلِ اليهودِ : (بَني قَيْنُقاعَ الذين طُرِدوا بعْدَ بدْرٍ ، وبَني النَّضيرِ الذين طُرِدوا بَعْدَ أُحدٍ ، وبَني قريظَةَ الذينَ أُعْدِموا بَعْدَ الخندقِ) . وستقولونَ : إنَّ طابعاً جَديداً سيُخيِّمُ الآنَ علىٰ المجتمعِ المسلمِ . . نَعَمْ إنَّه طابعُ قوَّةِ العقيدةِ والغِنىٰ والاعتزازِ ، فما غَنِمَهُ الرَّسولُ ﷺ مِنَ الأعداءِ كانَ كبيراً ، فمَنْ بني قريظةَ وحدَهم ربحَ المسلمون : (١٥٠٠) سيف و (٣٠٠) درع و (١٠٠٠) رمح و (١٥٠٠) ترس و آلافاً من الإبل والمواشي و آلافاً من الأمتار المربعة من الأراضي و غنيمة معنوية إعلامية .

كُلُّ هذا زِيادةً علىٰ انتصارِ المسلمينَ على المُشركينَ مِنْ قريْشٍ وغَطَفانَ ، فالحمدُ للهِ . .

قصص
السيرة النبوية
٤٥

لا تلقوا السلاح

نَظْرَةٌ جَدِيدَةٌ

الحمدُ للهِ الذي نَصَرَ رسولَهُ وعبادَهُ المسلمينَ في غَزْوةِ الخَنْدقِ . . ولقدْ جاءَ هَذا النَّصْرُ في أَوانِه مِنْ تاريخِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ حيثُ أَنَّ العَربَ مِنْ حولِ مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ أَخَذوا ينْظرونَ إلى الإسلامِ نظْرةً جديدةً ، وسَرىٰ في نفوسِهم أَنَّ دعْوةَ المسلمينَ لا بُدَّ وأَنْ تكونَ مؤيَّدةً بقُوةِ اللهِ ، لذلكَ فالمسْلمونَ على حقٍّ ، والغلبَةُ لَهُم في النِّهايةِ .

لا مانِعَ إذاً مِنْ تَخْفيفِ العَداوةِ ، ومِنَ المحاولةِ الجادَّةِ في التَّقرُّبِ مِنَ المسلمينَ أَمامَ الجوِّ الذي مَلأَ الجزيرَةَ رهْبةً وجَلالاً عن الإسلامِ ورسولِهِ ﷺ ، على أَنَّ المسلمينَ مَعَ ذلكَ طَلُّوا يقظِينَ لم يُلْقوا سلاحَهم قطُّ ، لأَنَّهم مَعَ عهْدٍ ربَّانيٍّ في أَنْ يُعِدُّوا دوماً ما استَطاعوا مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رباطِ الخيلِ يُرْهبونَ بِهِ عدوَّ اللهِ وعدوَّهم . ولا بُدَّ منْ ذلكَ لإبْعادِ رُوحِ التَّواكُلِ والغَفلةِ عَنْ مجتمعِهم الرَّاسخِ بإذْنِ اللهِ .

غَزْوَةٌ ضَرِيَّةٌ

وراحَ رسولُ اللهِ في السَّنةِ السَّادسةِ يَعْملُ على إرْهابِ العدوِّ في كلِّ ناحيةٍ ، فأخذَ يبعثُ السَّرايا ، ويقودُ الغزواتِ في الشَّرقِ والغرْبِ وفي الشَّمالِ والجنوبِ ، ليزْرعَ في قُلوبِ أعدائِهِ الرُّعبَ ، فلا تَجْرُؤُ قبيلَةٌ منْهم على الاعتداءِ ، أوْ مَدِّ يَدِ الأذىٰ والغَدْرِ . .

وأَوَّلُ هذِه السَّرايا والغزواتِ كانَ في الليْلةِ العاشرةِ منْ شَهْرِ المحرَّمِ ، حينَ بعَثَ الرَّسولُ ﷺ الصّحابيَّ (مُحمَّدَ بْنَ مسْلمةَ) في ثَلاثينَ راكِباً إلىٰ بَني بكْرِ بنِ كِلابٍ ، وكانُوا ينْزلونَ في مكانٍ اسمُهُ (ضَرِيَّةُ) علىٰ بُعدِ سَبْعةِ أيّامٍ منَ المدينةِ في طريقِ البَصْرةِ ، فَسارَ إليهمُ الصَّحابيُّ ، يكْمنُ في النَّهارِ ، ويمْشي في الليْلِ ، ولمَّا وصَل خافُوا مِنْهُ ، وهَربوا ، وهُم الذيـنَ كانـوا ينْوونَ الغَدْرَ بـرسولِ اللهِ ، فقَتَلَ منهـمْ مُحمَّدُ بْـنُ مسلمة عَشَرَةً ، وهَربَ الباقُونَ ، واسْتاقَ المسلمونَ إلى المدينةِ مائةً وخمسينَ بعيراً وثلاثةَ آلافِ شاةٍ غنيمةً . .

غَزْوَةُ بني لَحْيانَ

وفي ربيعِ الأوّلِ خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في مئتينِ منْ أَصْحابهِ قاصِداً بني لَحْيانَ الذين غدَروا بأصْحابِ الرَّجيعِ بعْدَ غزوةِ أُحُدٍ وجُروحِها ، ووَصلَ إليهمُ الرَّسولُ ، وقَدْ سارَ في طريقٍ واتجاهٍ مغايرٍ لهُم ، ليُوهِمَهُم الرَّسولُ بأَنَّهُ يُريدُ الشَّمالَ . ويا للخَوْفِ الشّديدِ ! . . لَمْ يَرَ في بُيوتِهم أَحداً ، كلُّهم هَربوا إلى رُؤُوسِ الجِبالِ خائِفينَ ، وأقامَ الرَّسولُ هُناكَ يَوْماً وبَعْضَ اليَوْمِ ، وبعَثَ سَراياهُ في كُلِّ ناحيةٍ ، فَلَمْ يعْثروا علىٰ أَحَدٍ ، ووصلَ الخَبَرُ إلى قريْشٍ فأَصابَها رُعْبٌ شديدٌ خوْفاً منْ أنْ ينقلبَ محمَّدٌ عليهم . .

ونجحَ الرَّسولُ في إرْهابِهِ لبَني لحْيانَ ، فَلَمْ يعُدْ لهُمْ ظنُّ سوءٍ أو غدْرٍ

برسولِنا وأَصحابِهِ ، وعادَ القائدُ إلى المدينةِ ، وكانَ اليوم قيظاً ، فكانَ يقولُ: (أعوذُ باللهِ مِنْ وَعثاءِ السَّفر وكآبةِ المنْقلَبِ وسُوءِ المنْظرِ في الأَهْلِ والمالِ)، فوَقاهُ اللهُ السُّوءَ ، ووقىٰ أصحابَهُ أيضاً . .

غَزْوَةُ ذِي قَرَد

وبعدَ ليالٍ منْ رجوعِهِ خرجَ في نحوِ خمسمائةٍ مِنْ أَصْحابِهِ إلىٰ مكانٍ اسمُهُ (ذِي قَرَد) على بُعْدِ يومٍ منَ المدينةِ ، ليردَّ غارةً لأَحدِ المشركينَ هو: (عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ) الذي أَغارَ على ماشيةِ المسلمينَ ، وقتَلَ راعيها، واخْتَطفَ امْرأَةً كانَتْ مع الرَّاعي ، وسرْعانَ ما كانَ الصَّحابةُ ورسولُ اللهِ ﷺ يُلاحِقونَ السَّارقينَ المعْتدينَ ، واسْتطاعوا اسْتِعادةَ ما سَلَبَهُ العدوُّ وقتْلَ ثلاثةِ سارقينَ ، بيْنَما هربَ الباقُونَ إلىٰ منازِلهِم في غَطفانَ ، خائفينَ مِنْ قوّةِ الرَّسولِ الذي عادَ إلى المدينةِ بعدَ غيابِ خمسِ ليالٍ ، وقَدْ أَبدىٰ أصحابُهُ في المعْركةِ وملاحقةِ اللصوصِ شجاعةً فائقةً ، وإقْداماً رائعاً ، وأَثْنىٰ عليهمُ الرَّسولُ قائلاً : خَيْرُ فُرسانِنا اليومَ أَبْو قتادَةَ، وخيْر رجَّالتِنا اليومَ أَبْو سَلَمةَ) . وتمكّنتِ المرْأَةُ المخطُوفةُ مِنَ العَوْدةِ على ناقةٍ مِنَ النُّوقِ المَسْروقةِ ، وحمدَ المسلمونَ ربَّهم .

سَرِيَّةُ الغَمْرِ

وفي ربيعِ الأوّلِ أيضاً بعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ أَحَدَ صحابتِهِ واسمُهُ (عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ) في أَرْبعينَ راكِباً إلى مكانٍ اسمُهُ (الغَمْرُ) ، وهُوَ

ماءٌ لبَني أسدٍ على طريقِ نجْدٍ .

وأسْرَعَ الصَّحابَةُ ليُدْرِكوا الأَعْداءَ قبْلَ أَنْ يعلَمَ الأَعْداءُ بقُدومِهم . .

لكنَّ الخبرَ وصلَ إلى بَني أسدٍ قَبْلَ وصولِ الصَّحابةِ ، ممَّا جَعلهم يَهْربون خَوْفاً ورَهْبةً ورُعْباً مِن المسلمينَ ، إلا أَنَّ عُكَّاشَةَ لَمْ يقفْ مكْتُوفَ الأَيْدي دُونَ حِراكٍ أمامَ هُروبِهم ، بَلْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَخْبارِهم حَتَّىٰ وقعَ على أَنْعامٍ لهم، فاسْتاقَها ، وكانَتْ مائةَ بعيرٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إلى المدينةِ ، ولَمْ يَلْقَ أذىً ولا كَيْداً . ووصَلوا إلىٰ رسولِ اللهِ سالِمينَ غانِمينَ منصورينَ يحمدُونَ اللهَ تعالىٰ .

إنَّ كلَّ هَذا يَجْعلُنا نتحقَّقُ مِنْ قَوْلِ رسولِ اللهِ بعْدَ غزوةِ الخندقِ : (الآنَ نَغْزوهُم ، ولا يَغْزُونَنا) .

سَرِيَّةُ ذِي القَصَّةِ

وفي ربيعِ الثَّاني بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ الصحابيَّ (محمَّدَ بْنَ مَسْلمةَ) أيضاً في عَشرةِ رجالٍ لا أكثرَ ، لكنَّهم أَبْطالٌ . . إلى بَني ثَعلبةَ في مكانٍ اسمُهُ (ذِي القَصَّةِ) ، وهُوَ مكانٌ على بُعدِ أربعةٍ وعشرينَ ميلاً مِنَ المدينةِ . وجرَّبَ بَنُو ثعلبَةَ الحرْبَ مع الأَبطالِ العَشرةِ ، فَوجدوا فيهم صَنادِيدَ لا يَهابونَ الموْتَ ، وليْسَ لهمْ مِنْ حِيلةٍ في قَتْلِهم وجْهاً لوجْهٍ ، فانْتَظروا حتَّىٰ يأْتِيَ الليْلُ ، ويسْتريحَ الأَبْطالُ . . واشْتبكُوا معَهُم في صراعٍ طويلٍ ، ولَمْ ينْجُ إلا محَمَّدُ بنُ مسلَمَة، إذْ تركُوه بَعْدَ أَنْ وقَعَ جَريحاً

ظانِّين أنَّهُ ماتَ . وردَّ الرَّسولُ ﷺ على العدوِّ بأنْ أَرْسَلَ أَبا عبيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ في أَرْبعينَ رَجُلاً ، فهرَبَ الغادِرونَ وتركُوا بعْضَ النِّسوةِ والأَنعامِ، ولَمْ يَرْجعوا إلى بُيوتِهم خَوْفاً ورُعْباً ، واسْتولىٰ أبو عبيدةَ علىٰ غنائِمَ باردةٍ دُونَ حربٍ أَو قِتالٍ، وجَعَلَ ذلكَ علامَةَ إنذارٍ لهُمْ..

سَرِيَّةُ الجمُومِ

وَفي الشَّهرِ ذاتِهِ بعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ في نَفرٍ مِنَ المسلمينَ إلىٰ بَني سُلَيْمٍ الذينَ غدَروا بأَصْحابِ رسولِ اللهِ في بئْرِ مَعُونَةَ، وسارَ زَيْدٌ بسرْعَةٍ حتَّىٰ وصلَ إلىٰ مكانِ (الجَمُومِ) حيْثُ يقطُنُ بَنُو سُلَيْم ، فهرَبَ الأَعْداءُ مِنْ وَجْهِهِ وتَفرَّقوا ، فلَحِقَهُمْ زيْدٌ وأَصْحابُهُ ، ودَخَلَ بيوتَهُم ، وأَصابَ هُناكَ أنعاماً ومواشيَ كثيرةً ، وأَسَرَ بعْضَ الرِّجالِ وامرأةً ، وعادَ غانِماً إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ بعْدَ أنْ علَّمَ العدُوَّ درْساً في اخْتِفائِهم أمامَهُ هارِبينَ خائفينَ ، وأَفْهمَ بَني سُلَيمٍ أَنَّهُمْ لَوْ أَرادوا الغَدْرَ ثانيةً فَلَنْ يَسْتطيعوا ، فالمؤمنُ لا يُلْدغُ مِنْ جُحْرٍ مرَّتَيْن ، ومِنْ طريفِ الأَمْرِ أَنَّ المرأَةَ التي أُسِرتْ قَدْ وجدَتْ زَوْجَها أَسيراً أَيْضاً ، فابْتَسَمَ رسولُ اللهِ لَهُما ، وأطلقَ سراحَ المرأةِ ، ووهَبَ لها زوجَها ، ليُعْطيَ بَني سُلَيم درْساً آخر في الرِّفْقِ إضافةً إلى دَرسِ البَطلِ زيْدِ بنِ حارثَةَ لهم عنْدما لاحقَهُم، وأَسَرَ رِجالهم .

سَرِيَّةُ العِيصِ

وفي شَهْرِ جُمادى الأُولى أَرْسَلَ الرَّسولُ زَيْداً أيضاً إلى مكانٍ اسْمُهُ (العِيصُ) . مَعَ مائةٍ وسبعينَ راكباً ، فاعترضَ قافلةً كبيرةً لقُرَيْشٍ قادمةً منَ الشّامِ ، واسْتَطاعَ أَنْ يأْخُذَ القافلةَ كُلَّها ، وفيها فِضَّةٌ كثيرةٌ لصَفْوانَ بْنِ أُميَّةَ ، وأَسَرَ فيمَنْ أَسَرَ مِنَ الرِّجالِ زَوْجَ ابنةِ رسولِ اللهِ زَيْنَبَ ، واسمُهُ (أبو العاصِ بْنُ الرَّبيعِ) وكانَ ما يزال كافِراً ، وفي المدينةِ وافقَ الصَّحابةُ على إطلاقِ سَراحِ ابْنِ الربيعِ وردِّ مالِهِ إليه ، فذَهب أبو العاصِ إلى مكّةَ ، فأَدّى إلى كُلِّ ذي مالٍ مالَهُ ، ثُمَّ قالَ : هَلْ بقِيَ لأَحدٍ منكُم عنْدِي حقٌّ ؟ قالُوا : لا ، قَدْ وَفَّيْتَ حقَّنا ، ووجَدْناكَ وفيّاً كَرِيماً ، قالَ : فَإِنّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ ، واللهِ ما مَنَعني مِنَ الإِسلامِ عِنْدَهُ إلا أَنْ تظُنّوا إنّما أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أموالَكُم . ثُمَّ خرجَ فقدِمَ المدينةَ مُسْلماً يعيشُ إلى جنْبِ زوجِهِ وبنتِ خالتِهِ زينبَ المسلمةِ رضيَ اللهُ عنهما . .

سَرِيَّةُ الطَّرَفِ

أَراكُم قَدْ أَحْبَبتُم زيدَ بْنَ حارثَةَ لأَنَّه بطَلٌ كَما تَعْلمونَ وتَرونَ ، وقَدْ أَحَبَّهُ رسولُ اللهِ أَيْضاً ، لذلِكَ بعثَهُ الآنَ مرَّةً ثالثةً في جُمادى الآخرة إلى بَني ثعلبةَ الغادِرينَ في مكانٍ اسمُهُ (الطَّرَفُ) على بُعْدِ ستَّةٍ وثلاثينَ ميلاً في طريقِ العراقِ ، فخرجَ البطلُ زيدٌ في خمسةَ عشَرَ رجُلاً منَ

الأبطالِ مِثْلِه ، ودوَّى في الآذانِ نَبأُ بطولاتِه السّابقةِ ، فهرَبَ سُكّانُ البيوتِ منْ بَني ثَعْلَبَةَ خَوْفاً وذُعْراً ، ولمّا وصَلَ زيْدٌ لم يعْثُرْ على أَحدٍ ، لا مِن رجالِهم ولا منْ نِسائِهم ، ووجَدَ أَنْ لا فائِدَةَ مِنَ البقاءِ ، فأَخذ ما اسْتَطاعَ مِنَ الأنعامِ غنيمةً باردةً للمسلمينَ ، وعادَ إلى المدينةِ سالماً مَعَ أَصحابِه ، وسُمِّيتْ هذِه السَّريةُ بسريَّةِ الطَّرَفِ ، نِسْبَةً إلى اسْمِ المكانِ الذي وصلَ إليه زيْدٌ معَ الأَبْطالِ .

لقد رأَيْتُم زَيْداً بعْدَ الهجرةِ وقَبْلَها بطلاً . . وما زالَ إلى الآنَ بَطَلاً . . وسيَبْقى بطلاً . . رضيَ اللهُ عنه وأرضاهُ .

سَرِيَّةُ وادِي القُرى

ولَقَدْ حدثَ أَنْ ذَهبَ بطَلُنا زيْدٌ في تجارةٍ إلى الشّامِ ، وبَيْنَما هُوَ راجعٌ اعْترَضَ طريقَهُ بَنو فزارَةَ ، غَدْراً واعتِداءً ، وكادُوا أَنْ يقتُلوه ، لَولا أَنَّهُ سرعانَ ما وصَلَ إلى المدينةِ ليَحْكي للرَّسولِ خبرَهُ ، فأَرْسَلَهُ الرَّسولُ ﷺ في نَفَرٍ منْ أَصْحابِهِ في شهرِ رجبٍ لينتقمَ منْ بَني فزارَةَ ، ويعطيَهم دَرْساً لا يَنْسَوْهُ . .

وأَحْكَمَ زيدٌ الخِطَّةَ ، وعلَّمَ رجالَهُ كَيْفَ ينفِّذونَها ؟ ووَصَلَ معَهم إلى مكانِ بَني فزارَةَ في وادِي القرى ، وأَحاطَ الأَبْطالُ بالغادِرينَ ، وقتلوا منْهُم جَمْعاً كبيراً . . جزاءَ غَدْرِهم وعُدْوانِهم ، وكانَ الدَّرْسُ ناجحاً . . وعادَ فائزاً غانِماً ، بعْدَ أَنْ أَقنعَ بني فزارَةَ أَنْ لا يقْتربُوا مِنْ مُسْلمٍ غَدْراً ،

ولا يعتدوا عليه أو على تجارته، وأضاف إلى صفحة نضاله بطولةً رائعةً.. حماكَ اللهُ يا زيدُ، ورعاكَ في كُلِّ سَراياكَ وبُطولاتِكَ، ورضيَ اللهُ عَنْ كُلِّ بطلٍ مثلك، يُدافعُ عَنْ رِسالةِ الإسلامِ..

سَرِيَّةُ دَوْمَةِ الجَنْدَلِ

وصَحابيٌّ قَديرٌ، خَبيرٌ كُلَّ الخِبرةِ بِما يَنفعُ المسْلمينَ، اسْمُهُ (عبدُ الرَّحمن بْنُ عَوْفٍ)، أَرسَلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ في شَعبانَ مَع سَبْعمِئةٍ مِنْ أَصْحابِهِ إلى بَني كَلْبٍ بِدومَةِ الجَنْدلِ على أطرافِ الشّامِ..

وسارَ إليهم عَبْدُ الرحمنِ، وعَرضَ عليهمُ الإسْلامَ في دعوةٍ جميلةٍ محبَّبةٍ، فأَسْلمَ شيخُهم (الأَصبغُ بْنُ عَمرو) وكانَ نصرانياً، فأَسْلمَ مَعَهُ ناسٌ كثيرٌ مِنْ قومِهِ، ووافقَ الباقُونَ علىٰ أنْ يدفعوا الجزْيَةَ: (وهيَ مالٌ يدفعُهُ مَنْ أرادَ البقاءَ على دينِهِ، شريطةَ أنْ يُدافعَ المسلمونَ عَنْهُ لقاءَ هذا المالِ). ورضيَ عبْدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ بهذا العهدِ معَهم، ورَحَّبَ بمَنْ أَسْلمَ منْهم، وتزوَّجَ مِنِ ابْنةِ الأَصْبغِ، وقَدِمَ بها إلى المدنيةِ فَرِحاً بإسْلامِ الكثيرينَ، وأَدْخلَ الفرحَ إلى قلبِ رسولِ اللهِ عنْدَما أَعْلمَهُ بالخبرِ، وباركَ الرّسولُ فتْحَهُ وانْتصارَهُ ونجاحَهُ وزواجَهُ أيْضاً.

سَرِيَّةُ الهَمَجِ

وفي شعبانَ أيضاً بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ في مائةِ رجلٍ إلى بَني سعدِ بْنِ بكْرٍ في مكانٍ اسمُهُ (فدك)، لأَنَّهم يريدونَ التَّحالفَ

مَعَ يهودِ خَيْبَرَ علىٰ غزوِ المدينةِ، فسارَ إليهِمْ عليٌّ بِمَنْ معَهُ مِن الرِّجالِ، حتَّى انْتهوا إلى ماءٍ يُسمَّىٰ (ماءَ الهمجِ). فوجدوا رَجُلاً مِنْ بَني سعدٍ، فدلَّهُمْ علىٰ مكانِ قومِهِ، فلمَّا أحسَّ القَوْمُ بعليٍّ وصحْبِهِ، هَرَبُوا تارِكينَ وراءَهُم أَغْنامَهم ومَواشيهم وأَنْعامَهم، وظلُّوا هارِبينَ خَوْفاً مِنْ بَطْشِ عليٍّ والصَّحابةِ بهمْ، وعادَ عليٌّ البطلُ إلى المدينةِ ومعَهُ رمْزُ الانتصارِ: أَلفانِ مِنَ الشِّياهِ، وخَمْسمائةٍ مِنَ البعيرِ).. وامتنعَ بَنُو سعْدٍ بعْدَها مِنْ مَدِّ يَدِ التَّحالُفِ إلى اليهودِ، لأنَّهم رأَوُا البدايَةَ المُرَّةَ، وردَّ المجتمعِ المسلمِ ضدَّ غدْرِ الأشْرارِ ونَوايا الهدْمِ والدَّمارِ، وبقيَ زُعماءُ اليهودِ في خَيبرَ وحْدَهم، يتحيَّنونَ الفُرَصَ للغَدْرِ والخيانَةِ والتَّحالفِ معَ قبيلةٍ أُخرىٰ مِنْ جديدٍ.

مَقْتَلُ أَبِي رافِعٍ

ومِنْ هؤلاء الزُّعماءِ (أَبُو رافعٍ)، الذي فعَلَ المُستحيلَ قُبيلَ غزوةِ الخندقِ مَع حييِّ بنِ أَخْطب حتَّىٰ يُؤلِّبَ الأَحْزابَ ضِدَّ المدينةِ، وها هُو ذا اليوْمَ يُريدُ أَنْ يجدِّدَ العهْدَ مَعَ غطفانَ والمُشركينَ ليتجهَّزوا جميعاً ويحاربوا الدَّعوةَ الإسلاميّةَ.

إنَّهُ شبيهٌ بكَعْبِ بنِ الأَشْرفِ، الذي نالَ ثَمرةَ خيانَتِهِ وغدْرِه وعُدْوانِهِ، وما أَبُو رافعٍ إلا رجلٌ مثلُهُ يظْلِمُ نفْسَهُ، ويجرُّ السَّيفَ إلى رَقَبتِهِ. وهٰذا ما كانَ حَقّاً، فلقَدْ أَرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى خيبرَ مَنْ يقتلُهُ،

وتمكَّنَ الموكَّلونَ بهذهِ المهمَّةِ مِنْ تنفيذِها على خيرِ وَجْهٍ ، دُون تمْثيلٍ ولا تَشْويهٍ ، وهٰذا جزاءٌ عادلٌ لأبي رافعٍ ، وسَيكونُ الجزاءُ نفسُهُ ضِدَّ كلِّ مَنْ تُسوِّلُ لهُ نفسُه عَملاً كعملِ أَبي رافعٍ أَوْ كعبِ بنِ الأَشْرف أو حُييِّ بْنِ أَخْطب ، والويْلُ لزعماءِ اليهودِ مِنْ عاقِبةٍ وخيمةٍ لهُمْ ولأَتْباعِهم ، ولكلِّ مَنْ يَسْمعُ نَصِيحتَهم الشِّرِّيرة .

الدِّفاعُ الهجُوميُّ

ومضت السَّنةُ ورسولُ اللهِ ﷺ على هذه الحالِ مِنْ إرْهابِ الأَعْداءِ في اتِّجاهاتِ الجزيرةِ الأَرْبعِ حوْلَ المدينةِ ، وإنَّ كلَّ ما حَدَثَ لَمْ يكنْ لغايةِ الاعتداءِ على أَحَدٍ ، إنَّما كانَ رَدًّا على عُدْوانٍ يَبْدأُ بِهِ الأَعْداءُ ، أَوْ يُحاولونَ العمَلَ لَهُ ، وعلينَا أَنْ نَفهمَ هدفَ رسولِ اللهِ ، وأَنْ نَحصرَهُ في غايةٍ واحدةٍ : هي (ردُّ الاعتداءِ) ، واللهُ يقولُ : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ولقدْ أدَّتْ هذهِ المناوَشاتُ أَغراضَها على أَتمِّ وجهٍ ، واستقرَّتْ هيبةُ المسلمينَ في نفوسِ العربِ حوْلَ المدينةِ ، وأَخذَ الجوُّ يتهيأُ لحياةِ استقرارٍ وسِلْمٍ بيْنَ المسلمينَ وجيرانهم .

وصارَ مِنَ الممكنِ أَنْ تقومَ علاقةُ الجوارِ على تناسِي الثَّاراتِ ، ودفْنِ الحزازاتِ ، وعلى التَّعاونِ والتَّلاقي في سبيلِ مجتمعٍ أَوْسعَ وأَكْبر ، يحيا تحتَ ظِلِّ الخَير ..

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٤٦

الصّلح خير